دولة قطر
جامعة قطر

حولية
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني
١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

دولة قطر
جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

ملامح الشخصية الخليجية

دراسة في التحليل الاجتماعي للأدب

د. ماهر حسن فهمي
أستاذ وعميد كلية الإنسانيات

هل يمكن ان ندرس الانتاج الادبى دراسة جمالية تذوقية خالصة ونعتبر انفسنا نقادا أدوا مهمتهم على الوجه الاكمل ؟ هل يمكن مثلا ان نحلل نصا لعمر بن أبى ربيعة يتغزل فيه بنفسه بدلا من ان يتغزل بالمرأة أو للمتنبى حيث تتضخم الأنا وتعلو على كل صوت دون أن نعرض للظروف التى نشأ بها أى للبيئة ودون أن نحاول فهم نفسيته أو بعبارة أخرى دون الاستعانة بالعلوم الانسانية الاخرى ؟ حتى فى دراستنا الدقيقة للخصائص الاسلوبية فى النثر وللظواهر الموسيقية فى الشعر ، هل يمكن ان ندرس شخصيات نجيب محفوظ التى تنتمى الى طبقة معينة وتصور شريحة اجتماعية معينة دون أن نربط بين قيم هذه الشخصيات وقيم الطبقة التى ينتمون اليها وأن نكتفى بالحديث عن بناء الشخصية من الناحية الفنية ؟ وهل يمكن ان ندرس موسيقى شاعر من الشعراء دون ان نفسر سبب انتشار انغام معينة وهو غالبا مايكون سببا نفسيا أو اجتماعيا .

من الممكن أن نقوم بدراسة جمالية خالصة وهى دراسة تذوقية فنحلل اساليب محمود درويش أو سميح القاسم أو هارون هاشم رشيد من شعراء المقاومة دون أن نهتم بمضمون الشعر نفسه ، ومن الممكن أن نحلل قصائد جبران خليل جبران أو ايليا ابى ماضى أو ميخائيل نعيمة من شعراء المهجر دون أن نهتم كثيرا بالربط بين الاتجاه التأثرى أو الانطباعى فى النقد الادبى وبين العلوم الانسانية الاخرى لكن الحياة الانسانية أعقد من أن يفسرها قول واحد،

والاعمال الادبية تعبير عن الحياة بكل عطائها وأبعادها ٠

وقديما كان ابن سلام ، اذا أراد أن يتحدث عن الشعراء قسمهم الى جاهليين واسلاميين ثم عاد فقسم الجاهليين الى شعراء بادية وشعراء قرى ، فهو اذن قد أدرك قيمة الزمن وأثر البيئة وهو أول ناقد أدبى نعتبر عملـه انجازا مهما ٠ وهكذا كان الشأن لدى ناقد آخر مثل حازم القرطاجنى فقد كان يعرض للعمل الادبى من ناحية مبدعه ومن ناحية متلقيه ومن ناحية الرابطة بينهما أى النص ٠

وقد بدأت المحاولات الجادة في دراستنا النقدية العربية لتأصيل علم النفس الادبى بتوجيه من الدكتور طه حسين حين ألف محمد خلف الله أحمد كتابه « من الوجهة النفسية فى دراسة الادب ونقده » وحاول فيه التنظير لهذا الاتجاه ٠ والفكرة التى تستحق اسم نظرية هى ملكان لصاحبها فضل عرضها وتحقيقها وتحليلها واستقراء أمثلتها وازالة ما يعرض لها من شبهات ومحاولة تطبيقها فى ميدان الدراسة الخاصة ٠ وهذا ما حاوله المؤلف مستفيدا من جهود الاوروبيين (١) كفرويد ويونج وريشاردز وهربرت وغيرهم من الذين رأوا ان كل عمل فنى نوع من الاذاعة الذاتية عن الفنان يمكن أن يقرأها أولئك الذين يدركون المغزى الرمزى لان الناس فى العادة اما أن يتجهوا الى داخلهم ويتخذوا من طيات نفوسهم وأحلامهم مادة لابداعهم ومنهم الفنانون ، واما أن يتجهوا الى خارجهم ويرموا ببصرهم الى ما حولهم ويسلطوا عليه حســـــهم وملاحظتهم وتفكيرهم ومنهم العلماء والمشرعون ٠ وافاد أيضا من جهود الباحثين العرب وعلى رأسهم طه حسين فى دراسة المتنبى وأبى العلاء ، والمازنى فى دراسة بشار ، والعقاد فى دراسة أبى نواس وابن الرومى ٠

---

(١) درس فرويد Frued دافنشى ودوستوفيسكى من خلال أعمالهما الفنية وقد عرض ستانلى هيمن فى النقد الادبى الفصل السادس لدراساته ٠ امايونج Jung فقد تناول تكوين العمل الفنى او فكرة اللاشعور الجمعى وعلاقته بالمبدع « الترجمة الانجـــليزية » Modern Man in search of a soul وتناول ريتشرد Richards فى كتابه « اصول النقد الادبى » الادب واثره فى نفسية المتلقى وعلى الاخص من الناحية العصبية ٠ وتناول هربرت S.Herbert فى كتابه The Unconcious in Life and Thought London, 1932 ص ١٧٩ ـ ١٨٠ رموز الاديب محاولا ردها الى اصولها الواعية كما فعل مع شلى فى بروميثيوس طليقانتيجة عقدة كراهية الاب ٠

فبروميثيوس هو شلى ٠ انظر خلف الله ٢٢ ـ ٢٣ (من الوجهة النفسية) ٠

وقد قوبل هذا الاتجاه بهجوم شديد من قبل بعض نقاد الادب وعلى راسهم محمد مندور بمقالاته التى جمعها فى كتابه « فى الميزان الجديد » وعلى الرغم من ذلك فقد سار الاتجاه النفسى يعمق مجراه فكتب مصطفى سويف « الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة » وحامد عبد القادر « دراسات فى علم النفس الادبى » وعز الدين اسماعيل « التفسير النفسى للادب » وغيرهم ٠

هذا احد الاتجاهين قدمت به لاوضح أن الطريق ليس معبدا أمـــام المحاولات التى تبذل للاستفادة من الدراسات الانسانية فى مجالات الادب ونقده من أجل تحليل اشمل ٠ أما الاتجاه الثـــانى فهو التحليل الاجتماعى للادب ، وسط الجهود المبذولة من أجل انشاء علم الاجتماع الادبى ٠ والجهود فى هذا المجال بدأت من القرن الماضى منذ مدام دى ستال De stail ودراستها بعنوان « عن الادب من حيث علاقاته بالنظم الاجتماعية » وهى ترى ان الادب يصور التغيرات الهامة فى النظم الاجتماعية خاصة تلك التى تدل على الحركة نحو اهداف العدالة والحرية والمساواة وهى شعارات الثورة الفرنسية (٢) ٠

ثم جاء بعدها ماركس وانجلز وقد جمع الناشرون اقوالهما بهذا الصدد فى كتاب بعنوان « الادب والفن » عرضا فيه العلاقة بين الفنون والطبقـــات الاجتماعية فيمكن ان تقول ان فنا كالمديح يزدهر فى البيئات الارستقراطية بينما ينتشر الهجاء فى المحيط الشعبى ٠ أما تين H.Taine فعرض فى كتابه « تاريخ الأدب الانجليزى » لنظريته عن العنصر والبيئة والزمن ويقصد بالعنصر الوراثة واثرها فى جنس من الاجناس البشرية ، وبالبيئة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى مكان معين ويركز الزمن الانتباه على جوانب الاستقرار والتغير فى الحضارة ٠ وعلى الرغم من النقد الذى وجه الى هذه النظرية الا انها بقيت محاولة مهمة من محاولات القرن الماضى لانها قامت بدراسة نظرية وتطبيقية فى نفس الوقت ٠ أما فى القرن العشرين فهناك

---

(2) Madame de stail : De la litterature consideree ses raports avec les institution sociales .

راجع الخلفيات الفكرية لعلم اجتماع الفن بكتاب « دراسة علم الاجتماع » د٠ محمد الجوهرى وآخرون ٠ الفصل الخامس عشر القاهرة دار المعارف ١٩٧٥ (اهتمت مدام دى ستال بصفة خاصة بالمرأة ووضعها الاجتماعى) ٠

Karl Marx and F.Engels : Literature and Art.

المدرسة الفرنسية والمدرسة الامريكية وأهم جهودهما معاصرة فى الستينات والسبعينات ·

أما فى الولايات المتحدة فهناك عدد من الدراسات تثير الاهتمام مثل دراسةروبرتويلسون R.Wilson بعنوانالشاعرالامريكى The American Poet : A.Role Investigation Harvard University 1952 حاول فيه دراسة طبيعة دور الشـــاعر باعتبـــاره فنانـــا وعضـــوا فى المجتمع · وكذلك نجد دراسة لروث انجليز R.Inglis عن العلاقة بين القصـــة والمجتمـــع

An Objective Approach to the Relationships between Fiction and Society (American Sociological Review 1938,p-630)

وهى ترى ان الادب يدفع الى التغيرات الاجتماعية عن طريق دفع القراء الى تقليد ابطال الروايات ويؤكد هذا الرأى لوفنتال Lowenthal فى دراســـة الادب وصورة الانسان ·

Leo Lowenthal : Literature and the Image of Man (Boston Beacon press 1957) .

ويرى ان الادباء يملكون حساسية عالية للتغيرات الاولى فى علاقـــة الانسان بالمجتمع ويعكسون هذه الحساسية بطريقة واعية أو لا واعية فى أعمالهم · فامعان النظر فى كتاباتهم يمكن ان يكون ذا أهمية لدارسى التغير الاجتماعى ·

واما فى فرنسا فهناك شارل لالو C.Lalo وكتابه L'Art et la vie Sociale « الفن والحياة الاجتماعية » ويدرس لالو الفن من حيث علاقته ببيئته الاجتماعية مع توجيه عناية خاصة للنظم الدينية والعائلية والسياسية وهى نفس نظرة مدام دى ستال · ويقترح البير ميمى A.Mimmi فى كتابه « Problemes de la Sociologie de la Litterature» فى Paris' 1963 « مشاكل علم الاجتماع الادبى » دراسة جوانب أربعة رئيسية :

الدراسة الاجتماعية للاجناس الادبية ، الدراسة الاجتماعية للموضوعات، الدراسة الاجتماعية للشخصيات ، وأخيرا الدراسة الاجتماعية للاساليب ·

وبدأت فعلا دراسات أكثر تخصصا كدراسة لوسيان جولدمان L.Goldman فى كتابه «من أجل علم اجتماع الرواية » « Pour une Sociologie de Roman Paris, 1964 » وهو يرى انه ليس هناك عمل فكرى هام يمكن أن يكون تعبيرا عن خبرة فردية خالصة ، ويرى ثانيا ان هناك مجموعة من القيم وهى الحرية

والمساواة والملكية مع مشتقاتها من التسامح وحقوق الانسان وتنمية الشخصية (وهى قيم الليبرالية) ومنها نمت السيرة الفردية التى أصبحت العنصر المكون للرواية والتى أخذت صورة الفرد المشكل تحت تأثير عامل الخبرة الشخصية فالفنان أصلا فرد مشكل بمعنى انه لا يتأقلم تأقلما كاملا ومستمرا مع مجتمعه لانه يحاول أن يعيش على قيم كيفية سامية بينما التنافس هو العنصر القوى فى الحياة ٠

ولكن هذه الاتجاهات لم تجد الطريق ميسرا أمامها فقد قامت حركة نقدية مضادة تزعمها رايمون بيكار الاستاذ بالسوربون واصدر سنة ١٩٦٥
R.Picard : Nouvelle critique ou nouvelle imposture Paris, 1965

كتابا بعنوان « نقد جديد ام خدعة جديدة » وانصب نقده على أن هذه الدراسات النفسية والاجتماعية تجور على حقيقة الاعمال من الوجهة الادبية من ناحية ومن ناحية ثانية صعوبة التحليل النفسى بالنسبة للحى فما بالنا بالميت ومن ناحية ثالثة ميل اصحاب هذه الاتجاهات الى أن يسوقوا نتائجهم باعتبارها يقينية ٠ وهى اعتراضات متوقعة كما قلنا من قبل وربما احتاجت الى نقاد يسهمون بجهودهم الى جانب الاجتماعيين كما وقف نقاد الى جانب النفسيين فى الاتجاه الاول ، وذلك يوضح سببا من أسباب البطء الشديد فى نمو التحليل الاجتماعى للادب من حيث المنهج والحدود الفاصلة بينه وبين النقد الادبى وندرة البحوث ، فلا أعرف سوى دراسات الدكتور عبد الباسط محمد حسن الاجتماعية التى استفادت من الرواية المصرية وسيد يس الذى اهتم بالتطور التاريخى لهذا الاتجاه ودراسة الدكتور أحمد الحوفى عن الحياة الاجتماعية من الشعر الجاهلى وجهود الدكتور طه حسين فى تعليل نشأة الغزل الحجازى ٠ واذا أردنا مجرد العلاقة فكثيرا ما نجد حديث النقاد عن الادب باعتباره صورة للحياة ولكن بطريقة عفوية ودون محاولة جادة لتقنين هذه العلاقة ٠

ان نظرية تلاقى المدنيتين التى شرحها بالتفصيل ابراهيم سلامة (التوتر والتوازن) فى محاولة للربط بين الادب والحياة الاجتماعية مازالت متألقة ، فعندما تلتقى الحضارات المختلفة تقوم مرحلة تفاعل تعكس أثرها على الحياة الادبية بطبيعة الحال فى صورة حيرة وتوتر ، ثم يهدأ التفاعل رويدا رويدا حتى يعود المجتمع الى التوازن مرة أخرى ٠ ولتوضيح هذه الفكرة يحسن أن نرى دلالتها فى حركة الشعر بمنطقة الخليج ٠

فقد تجمعت فى الربع الاول من هذا القرن عدة عوامل ، حركت منطقة الخليج العربى فكانت بداية اليقظة ، منها حركة التأثير التى كانت تأخذ مجراها من الشمال الى الجنوب أو من البصرة الى منطقة الخليج ، لأن الصلات البحرية كانت أسرع وأهم من الصلات البرية (الماء واللؤلؤ) ، ومنها ان الاستعمار الذى كان يهتم بنقاط ارتكاز على الساحل لتامين الملاحة بدأ يشم رائحة النفط وأخذ يتجه الى الداخل ، فبدأت حوافز النهوض التى يثيرها التصادم بحضارة قوية تعمل عملها فى عودة المشاعر الى أصولها الموروثة حتى تجد فيها حقيقتها التى تحميها من الفناء ، أو بعبارة أخرى نشأت حركة الاحياء •

ويمكن تلخيص العوامل الفعالة : فى الدعوة الى التعليم وارسال البعثات وظهور المطبعة التى ارتبط وجودها بظهور الصحافة وطبع كتب التراث ثم تنشيط حركة التاليف • وعلى صفحات الجرائد وضح الصراع بين القديم والجديد فى الفكر والحياة الاجتماعية • ولكن فى اطار حياة الغوص كقضية تعليم الفتاة وقضية الصحف والمجلات(٣) •

وكان ظهور النفط انقلابا أشبه بالانقلاب الصناعى الذى حدث فى أوروبا منذ قرنين تقريبا • فالتقدم السريع الذى حدث فى اعقابه ، وتدفق احـــدث ما أخرجه العلم والتكنولوجيا واستثمار المال وبناء المدن وشق الطرق ، وانشاء المصانع فى فترة زمنية قصيرة ماعرفها التاريخ (عشرون عاما للكويت وعشرة أعوام لقطر وخمسة للامارات) وما ترتب على ذلك من تطور فى الاوضاع

---

(٣) أ ـ كتب عبد العزيز الرشيد كتابا يعارض فيه خروج الفتاة حتى للتعلم (تحذير المسلمين من اتباع غير سبيل المؤمنين) ، اما وجهة النظر الاخرى فعبر عنها عبد الله سنان فى قوله :

بالله لا تهملوا حظ البنات فما　　بنى سواهن فى اخلاقنا بان

ب ـ هاجم الملجى مجلة المنار قائلا :

الى الله أشكو من ضـــلال على عمد　　اتتنا به الكفار عن كل مرتد

قلوا كتب الاسلاف واستبدلوا بها　　سجـــلات أصحاب المنار على عمد

وقد رد عليه مساعد بن عبد الله قائلا :

قـــل سلاما ثم اعرض عنهم　　جهـــلهم رايهـــم فى المقتـــل

لا تحاذر من خيـــال زائـــل　　انهـــم من عمـــرهم فى الارذل

الاجتماعية ، كل ذلك يعني أن الاقتصاد كان عاملا حاسما في تطور المنطقة ٠

فتوسعت القاعدة التجارية ونشطت الاعمال المصرفية وانشئت عشرات البنوك المحلية والاجنبية وترتب على ذلك أن أصبحت المنطقة منطقة جذب وفد اليها الكثيرون بحضاراتهم المختلفة فاثروا في التركيبالسكاني وتعقدت الحياة بحيث كادت تنسف البساطة القديمة مما غلب الجوانب المادية ، كما ارتفعت مستويات المعيشة حتى غدت الكماليات من الضروريات ، وجعلت التكيف مع الحياة الجديدة أمرا بعيد المنال في كثير من الاحيان ، خاصة في أوساط الشباب ٠

وقد تأخر الخليج في نهضته بضعة عقود من السنين عن بقية الوطن العربي نتيجة وقوعه في الاطراف الشرقية للامة العربية بعيدا عن مراكز الاحداث في ذلك الوقت ، بحيث تقع المرحلة الاصلاحية السلفية في تاريخه بين الحربين العالميتين ، وهي المرحلة التي وقعت في قلب الامة أواخر القرن الماضي كحركة جمال الدين الافغاني في الاصلاح الديني والسياسي وحركة البارودي في الشعر ، وان كان من الواضح ان الحركة في منطقة القلب أقوى وأعمق ٠

كان الشعر العامي هو اللون الغالب في القرن الماضي ، لان الشعر الفصيح مرتبط بانتشار التعليم من حيث المبدعون ومن حيث الجمهور أيضا ، ويحتاج الموقف الى قائد يلفت الانظار ، فاذا كان البارودي قد لفت الانظار في القرن الماضي هناك في قلب الامة الى المستوى الفني للشعر العربي الفصيح في ازهى عصوره ، فان الامر هنا في الجناح الشرقي لم يكن يحتاج الى أكثر من لفت الانظار الىالشعر العربيالفصيح نفسه ، وقد قام بهذا الدور الشاعر عبدالجليل الطباطبائي الذي عاش حول منتصف القرن الماضي وتنقل بين البصرة حيث نشأته ، والزبارة بقطر حيث تزوج ، والبحرين حيث مدح ، والكويت حيث مات ، فهو ينسب الى الخليج كله ٠

على أن العوامل الفعالة كانت قد بدأت تعمل عملها ، خاصة بوسائل الاعلام ، وكان حصادها لابد أن يظهر ٠ ففي الثلاثينات كان شوقي وحافظ في مصر والزهاوي والرصافي في العراق قد تجاوزت شهرتهم وعبرت الى كل أرجاء الوطن العربي من المحيط الى الخليج فاذا نظرنا الى شعراء الاحياء في الخليج ـ ومن أهمهم صقر الشبيب وخالد الفرج من الكويت ، ومحمد ابن

عيسى الخليفة وعبد الرحمن المعاودة من البحرين ، وأحمد بن يوسف الجابر وابن درهم من قطر ـ وجدنا خصائص مدرسة البارودى وشوقى والرصافى ومن اتجه اتجاههم ، وهو يمتثل لطبيعة النظام الشعرى العربى فى اطاره العام ، ويعتمد على العقل كثيرا فى معانية المحددة مما يفسر لنا ظاهرة الحكمة وربما كان السبب ارتباط القصيدة بالمناسبة العامة فتعلو نبرتها الخطابية لانها تخاطب جمهورا كبيرا ومن هنا أيضا يتقرر مبدأ الوضوح .

وقد خط شوقى لهذه الجماعة دروب المحافظة على التصنيف الموروث ودروب التعبير عن مشكلات العصر ، بمعنى ان شعر المديح يسير الى جانب الشعر السياسى الذى يتناول القضايا القومية وان المعارضة أو طريقةالتعامل مع الموروث تسير الى جانب محاولة البحث عن الشخصية الفنية المستقلة . ومن هنا نجد شعراء الخليج يتناولون قضايا الوطن العربى نتيجة تأثر البيئة الخليجية باحداثه ، كأن الجميع ينبض عن قلب واحد مهما تباعدت أطرافه أو شغلته الشواغل .

وشعراء الاحياء فى قلب الامة كان لهم خط فكرى اسلامى واضح فى شعر شوقى وأحمد محرم على سبيل المثال ، لان الاحداث السياسية التى عاشها هؤلاء فى الربع الاول من القرن العشرين كالدعوة للجامعة الاسلامية ، واعلان الدستور ودخول الدولة العثمانية الحرب كانت أيام الخلافة ، ثم الغيت الخلافة الاسلامية وانفرط العقد أو كاد ولذلك نجد شعراء الاحياء فى الخليج خلال الربع الثانى من القرن لا يتناولون القضايا السياسية والاجتماعية من موقف اسلامى واضح ، ولكنهم يحتفلون بالمناسبات الدينية كذكرى المولد والاسراء والمعراج وحلول شهر رمضان أو العيدين ، وان كانت هذه المناسبات تثير أشجانهم حينا وغضبهم حينا آخر حسب رؤيتهم لاحوال المسلمين .

ثم كانت النقلة بعد اكتشاف البترول واستغلاله أشبه بالمفاجأة ، وتعقدت الحياة ، مما غلب الجوانب المادية وأوهى عرى الروابط ، فتراجع المفهوم القبلى وبدأ مفهوم الاسرة يحتل وضعا جديدا ، لان التجمعات تبدأ فى الذوبان فى المدن الكبيرة . وترتب على هذا أن أصبحت قيم التعليم قيما أساسية ، ثم ظهرت النزعة الفردية نتيجة الاحساس بالذات على أثر ارتفاع الاجور

من ناحية والاستغلال الاقتصادى من ناحية أخرى • وبعبارة أخرى أصبح على الفرد أن يواجه زحام الحياة وحده ، وأن يواجه التطورات السريعة وحده، مما جعل التكيف مع الحياة الجديدة أمرا بعيد المنال ، وظهرت حالة من القلق تتميز بها النقلات الاجتماعية فى الحضارات •

ومن هنا ظهر تيار جديد فى الشعر عرف فيه النقاد سمات الرومانسية ، لم تعد موضوعات الشعر مديحا وهجاء وفخرا ورثاء ، ولكنها أصبحت حديث النفس ونجوى الذات الضيقة بالواقع والتى تحلم بالمدينة الفاضلة ، وترتب على هذا أن الجهارة الخطابية لم تعد واضحة فرقة الالفاظ حلت محل الجزالة والهمس بدلا من الخطابة • فالجملة الشعرية ليست جملة منطقية ، ولكنها تعبير جمالى ينقل تجربة وجدانية يهمس بها الشاعر الى رفيقه أو الى ذات نفسه ولم تعد القصيدة تكتب لتنشد ولكنها تكتب لتقرأ •

والأحزان التى تحيط بالشاعر ليس لها تعليل شخصى مباشر ، وانما هى نتيجة ضغط الحياة وكثرة تحدياتها واحساس الفرد بالحيرة أمام المتغيرات المادية ، فلا ملجأ له سوى العواطف عزاء عن الواقع والى الطبيعة عزاء عن المدينة ، والى الماضى عزاء عن الحاضر ومن ثم تتكرر صورة الاغتراب المعنوى مرة ومرات • يقول خليفة الوقيان :

غريب ان مضيت وان أتيت	ونـاء ان دنـوت وان نأيت
وكنت مع الغدير العذب نبعا	سقيت الظـامئين وما ارتويت

ويقول غازى القصيبى :

أغـريق أنـا فى بحـر عـلى	موجـه ينأى شراع عن شراع
أغـريب ليس فى أحلامـه	غـير مينـاء وتلـويح ذراع
أوحيـد راح فى درب الأسى	يتمشى من وداع لـوداع(٤)

وقد عبر الكثيرون عن رغبتهم فى العودة الى حياة البساطة ، الى الخيمة والناقة : الرمزين الخالدين للبدوى(٥)•ونظرية الرومانسية تقوم على تقسيم

---

(٤) قطرات من ظمأ ص ٨
(٥) راجع أبيات محمود شوقى الايوبى (كنت هنا وكان لى بيت من الشعر) •

النفس الانسانية الى العقل والضمير والروح ، الاول معنى بالحقيقة والثانى بالواجب والثالث بالجمال ، والجانب الثالث هو المقصـــود فى الشعر • والقصيدة فى عرف الشاعر الرومانسى تعالج فى كثير من الاحيان تلك اللحظات التى يرى الشاعر فيها ذاته فى علاقة خالصة مع السماء • فهى تنتشله من غربته فى الأرض ، ولذلك كانت قصيدة نعيمة : « كحل اللهم عينى بشعاع مـــن ضياك ، كى تراك • فى جميع الخلق فى دود القبور ، فى نسور الجو فى موج البحار ، فى صهاريج البرارى فى الزهور ، فى الكلا فى التبر فى رمل القفار • واجعل اللهم قلبى واحة تسقى القريب ، والغريب(٦) » محورا يدور حوله الكثيرون • يقول ابراهيم العريض(٧) :

ياالهى جهلت كنهك لـــــكن	فى مرايا الوجود ظلـــك بـــاد
حيث أمعنت فى الطبيعة لحظا	لاح حيــا مــا خلته من جمــاد

وهكذا كان الشعر الرومانسى يتبنى العودة الى الداخل الى ذات الشاعر بعد أن عاش الشاعر طويلا فى اطار الملابسات الخارجية ، واقترب من التجربة الصوفية فى عزوفه عن الماديات والحديث عن وحدة الشهود • أو بعبارة أخرى وجدنا فترات الانتقال الحضارى بما فيها من توتر تدفع الاديب الى الدوران حول الذات القلقة التى تشغله كثيرا عن رؤية العالم الخارجى بأبعاده المختلفة وصراعاته المستمرة التى لا تود أن تهدأ •

والواقع أن منطقة الخليج التى شهدت التيار الرومانسى فى أعقاب ظهور النفط ، شهدت مولد التيار الواقعى الذى ارتبط بالشعر الحر يساير التيار الرومانسى فى مرحلة من مراحله وكلما تقدمت الايام ركد التيار الرومانسى وازداد تدفق التيار الجديد حتى غلب على الموقف الادبى فى الخليج •

يقــول مطاع صفدى(٨) :

« والطفرة بنية تغير خاصة تنتمى الى صيغة التطور بمعناه العام ، واذا كان الاجتماعيون قد درسوا التطور وحالاته المختلفة ، فان الطفرة تبقى ولا شك

---

(٦) همس الجفون ص ٣٥

(٧) العرائس ص ١٠٩

(٨) التقدم العربى والمجتمع الاستهلاكى « مجلة الفكر العربى يناير ١٩٧٩ » •

حالة خاصة لم تعط حقها بعد من الدرس والتحليل • مع العلم بأن أولى مميزات الطفرة فى التنمية العربية أنها لا تأتى نتيجة تحولات عميقة فى البيئة الاجتماعية ولكنها تفتعل خارجيا ان صح الوصف ، بحيث أن فرض ظروف التنمية السريعة والكثيفة ينتج صدمة الاستجابة الفورية التى تحقق بدورها انقطاعا فى سيولة الحياة الاجتماعية المعتادة وتفجر سلوكيات أقرب الى اللاعقلانية » وهذه المرحلة المعاصرة تعنى بداية تأقلم الانسان الخليجى مع واقعة الجديد ، فلم يعد التأسى كافيا ، لكنه يحاول أن يقوم بعمل ما ازاء تلك المدنية التى طاردت ابله لتقيم المصانع وتصارع من أجل المال ، ولم يعد التحليق فى الخيال ورسم عالم مثالى مجديا فهو ينظر الى واقعه ويحاول أن يؤصل الجديد كى يخطو وسط الاعاصير بسلام •

« سملت يانخلة ، سلمت ياكريمة الأيادى، تمرك الشهى كان فى الطريق زادى ، لولاه ماطابت لى الرحلة(٩) • فالنخلة هنا رمز للثقافة العربية الاسلامية ، واشارة الى الأصالة ، كما أن الجمل رمز للصبر الأبدى الذى لا يعرف اليأس ولذلك يتخذه معادلا لمعنى الصمود والامل فى غد مشرق :

اياك ياصديقى ياجمل ، اياك أن تكل أو تمل ، أو تفقد الامل •

ومنذ الصدمة الحضارية والتوتر حتى معايشة الواقع ومحاولة التأقلم بقيت عناوين الدواوين تحمل مدلولا خليجيا فى كثير من الاحيان مثل «نفحات الخليج » لعبد الله سنان و « أغاني البحار الاربعة » لعبد الرحمن رفيع ، و « المبحرون مع الرياح » لخليفة الوقيان ، و « أنين الصوارى » لعلى عبدالله خليفة ، و « مذكرات بحار » لمحمد الفايز ، و « من أغانى البحرين » لاحمد محمد الخليفة ، و «أشعار من جزيرة اللؤلؤ » لغازى القصيبى •

ثم بدأت القصيدة تأخذ طابعا أبعد من محور الذات ، بمعنى أن الرؤية الشعرية انطلقت من الذات الى الخارج وربطت بين الموقف الذاتى والموقف العام فى وحدة عضوية تؤكد انعكاس الحدث العام على كل فرد وارتباط كل فرد بالحدث العام نتيجة التطور الحضارى المعاصر •

---

(٩) الشعر لاحمد العدوانى من الكويت

هذه النظرة الى تطور القصيدة من حيث بناؤها ورؤيتها وربطها بالتطور الحضارى لا تكتمل مالم تتناول الجانب الآخر للعمل الادبى وهو تحليل الاساليب • والواقع أن تحليل شعر الخليج ومحاولة فهمه لا تتم مالم ندرسه على أساس الارتباط ببيئة لها سماتها ، ببيئة تجمع بين البداوة والساحل •

والشعر يمنحنا رؤية خاصة للحياة الاجتماعية ، رؤية الشاعر الذى يصور لا رؤية الأديب الذى يخطط ككاتب الرواية أو المسرحية والفارق واضح• هذا تأتيه الصور من اللاوعى وذاك يحكم عقله الى درجة كبيرة ويقول ما يريده على ألسنة شخوصه بوعى • وعندما يسكت العقل الواعى تنطلق الصور الصادقة لترسم شريطا لوجدان المجتمع أروع مما يخططه العقل • ومن المعروف فى الدراسات النقدية المعاصرة أن الخيال يلعب دورا مهما فى ابداع الصور ، ولكن المقصود بذلك أنه يقوم بعملية تركيبية ، كالمركب الكيمائى من مجموعة مواد ، ولكنه لا يخترع من فراغ ، فهو يمتح من مخزون ضخم من البيئة • وينبغى أن نستبعد التراكيب البلاغية الموروثة لأنها تدل على الماضى ولا ترسم الحاضر الا بقدر تعلقه بذلك الماضى •

وعندما كنا نقول ان الأدب مرآة الحياة ، كان ذلك مرتبطا بفهم الأدب فى ضوء نظرية المحاكاة وقد تردد مصطلح المحاكاة منذ افلاطون ، ومصطلح المحاكاة كما هو معروف مرتبط عنده بنظريته العامة فى المعرفة ، والتى تقول بأن العالم الحقيقى هو « عالم المثل » أما هذا العالم فليس سوى انعكاسات لذلك العالم الحقيقى • رسم أفلاطون مدينة مثالية بسكانها وما يجب لهم من اعداد ، وما يجب عليهم من سلوك ، وكان أن تعرض للدور الذى يجب أن يقوم به الشعر فى بناء هذه المدينة الفاضلة ، ورأى أن الشعر كسائر الفنون الجميلة من صور التقليد أو المحاكاة • ويتحدث أفلاطون عن الشعر ـ وهو يعنى الشعر الملحمى أو المسرحى على وجه الخصوص ـ فيرى أن الطبيعة صورة لعالم المثل ، وشعر المحاكاة صورة للطبيعة ، فهو يبعد درجتين عن الحقيقة ويضرب مثلا لذلك بهومير فهو لا يعرف الكثير عن قيادة الجيوش ومع ذلك يتصدى لهذا الموضوع فيتصور قادة يقودون جيوشا فى شعره • ومن الواضح أن اختيار الموضوع عنده هو الذى يحدد قيمة العمل من الناحية الخلقية • ثم جاء أرسطو وأرجع أصل الشعر الى أمرين : غريزة المحاكاة وغريزة النغم • وأقدر الشعراء فى رأيه على المحاكاة من يستطيعون الانفصال

بالمواقف أو الذين عاشوا التجربة الادبية • وليست المحاكاة رواية الامور كما وقعت فعلا ، بل رواية ما يمكن أن يقع وهذا مجال الابداع ، وهو فارق بين المؤرخ وبين الشاعر • فلو كتب هيرودوت شعرا لظل تاريخا لانه يروى ما وقع لأشخاص معينين ، بينما معالجة الشعر انسانية عامة ، وليست أسماء الأشخاص في الشعر سوى رموز حتى لو كانت هذه الاسماء تاريخية لأن وقائع التاريخ ملهمة للفنان ، ولهذا فاقت الملهاة الهجاء ، لأن الأسماء في الملهاة ذات مدلول عام بينما هي في الهجاء فردية خاصة وهنا لا تكون المحاكاة مجرد تقليد ، ولكنها تعمق في الحقيقة وتحليل لها مادام الشعر لا يقتصر على رسم الظواهر • ولذلك فالفن عنده لا يحاكى ظواهر الاشياء التى تصور عالم المثل ولكنه يتعمق نفوس الناس ويحاكى حركتهم ومشاعرهم(١٠) •

ثم تراجعت نظرية المحاكاة أمام الاتجاهات المعاصرة واهمها نظرية كوليردج فى النقد الأدبى ، وهى تؤمن بفكرة الالهام ، وعلى ذلك نفى كوليردج فكرة المحاكاة اذ ليس هناك أصل للصورة الفنية ، وليس الخيال تذكر شيء أحسسناه من قبل وقد تجرد من قيود الزمان والمكان ، ولكنه ابداع جديد لصورة تأتى ساعة تستحيل الحواس والوجدان والعقل كلا واحدا فى الفنان ، وهـــذا أهم محور ركز عليه فى كتابه « السيرة الأدبية » •

والحقيقة أن المرآة قد تحققت عمليا بعد اختراع الآلة الفوتوغرافيـــة فسجلت صور الطبيعة بكل دقة ولكنها لم تخرج فنا ، هذه هى محاكاة أفلاطون ومرآته(١١) • وبذلك يتضح أن الفن يبدع مركبا جديدا من مخزون الصور والتجارب ، وهذا أحد الفروق بين عالم الاجتماع والأديب • وربما كانت فكرة أرسطو أكثر ارتباطا بالمسرح وفكرة كوليردج أكثر ارتباطا بالشعر الغنائـى ولكن نظرية المحاكاة تراجعت بعد جهود كوليردج فى نظرية الخيال ، وأصبحت الصور المبتدعة تمثل اشارات وتوحي ايحاء ، فهى رموز فنية ، وفى ضوء هذه الرموز يمكن التحليل الاجتماعى للاساليب والصور •

---

(١٠) راجع النقد الادبى الحديث محمد غنيمى هلال ص ٤٧/٤٨ •

(١١) راجع فن الادب لسهير القلماوى القاهرة ١٩٥٣ ص ١٢٦/١٣٧ •

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

هكذا تغنى بدر شاكر السياب الشاعر البصرى بعينى محبوبته • ان الصورة هنا صورة عربية من البادية ، حيث يصطف النخيل ـ أطول أشجار الصحراء ـ ساعة السحر حين يختلط بياض الفجر بظلام الليل • وهو هنا لم يقل غابتان ولو قال ذلك ما كانت الدلالة الجمالية واضحة ولا كانت الاشارة البيئية واقعة • فهو يمتح من مخزون الصور لديه ، ومن هنا كان الشاعر حقيقة ابن بيئته ، لا من حيث الحديث عن المناسبات السياسية والاجتماعية بل من حيث التعبير عن أدق ملامحها • ونفس المدلول عند على عبد الله خليفة•

عيناك فى الصباح والمساء كالألق (لمعان البرق)
كواحتين دونما حدود(١٢) •

وما دامت الصحراء النبع الذى لا ينضب للصور ، فلنستمد منها فى الغزل « عيناك كواحتين » أى فيهما السواد اللانهائى « دونما حدود » ولا تكتمل الصورة ، لأن الألق هو البريق ، وهو بريق مستمر لا ينطفىء « فى الصباح والمساء » •

وكان ياصديقتى أن لحت فى الطريق
كالواحة الخضراء فى مسارب القفار(١٣)

هكذا تستمر الواحة فى العطاء ، وفى مجال الغزل بالذات وفى العصر الحديث على وجه الخصوص ، حين أصبح الانسان يقطع الايام حائرا كالضال فى الصحراء ، اذا وجد الواحة الخضراء أحس معنى الحياة من جديد ، وآن له أن يطمئن وأن يستند الى ذراع رفيقته فى هذه الرحلة التى نقطعها ، فاذا لم يجد أحبابه كانت الحياة صحراء جرداء(١٤) ، واختفت الواحة الا من خياله أما واقعه فسراب يلهث خلفه ، هكذا يردد غازى القصيبى :

---

(١٢) أنين الصوارى ص ١٣٢ •
(١٣) أغانى البحار الاربعة ص ١١ •
(١٤) ديوان الشعر الكويتى ص ٢٦٩ •

تعبت من الجرى خلف السراب
من البحث عن واحة فى الخيال(١٥)

ولكن الصحراء تعود فتنبت الأمل لأنها ملك غير محدود ، فيه معنى الحرية التى عشقها العربى :

وأرى الصحراء ملكى وأنا — وحبيبى بالأمانى نستبد
وأرى الرمل قصورا وأنا — بذراها فى جلال الملك أبدو
وأرد القيد عن حريتى — كاذب من قال ان الحب قيد
وأرش الحنظل المر منى — فاذا الحنظل فى كفى شهد(١٦)

وفيها تنبت صور الأمل « أنسج من ضوء الأقمار ومن شوقى ، خيمة حب صوفية »(١٧) • فعلى ضوء القمر فى الصحراء العارية التى لا يحجبها حجاب الصناعة والمدنية الكثيف ، يوحى قمر الصحراء بصور الأمل •

ان لوحة العربى التى يرسم فيها منذ القدم آماله وآلامه هى الرمال • وقديما قال ذو الرمة وهو جالس أمام الاطلال تعبث يده بالرمال أمامه كأنما أخذه الذهول الى منتهاه :

عشية مالى حيلة غير أننى — بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده — بكفى والغربان فى الدار وقع

وهكذا تنادى الصبية العربية أباها الذى ذهب ولم يعد « وترسم فى الرمل شمسا ، وترسم نخلة »(١٨) ولعل الشمس هنا ترمز للحياة والنخلة ترمز للصمود ، للعربى ابن الصحراء الضارب فى أعماقها كماتضرب جذور النخلة ، المرتفع الهامة كارتفاعها ، المتكيف مع الصحراء ، حتى اذا اغترب لم يتأقلم بسهولة ، واذا تغيرت ملامح بيئته لم يتكيف بالسرعة

---

(١٥) قطرات من ظمأ ص ٧٨ •
(١٦) ديوان أمنية لسعاد الصباح •
(١٧) عبد الله العتيبى (ديوان الشعر الكويتى ص ٢٥٢) •
(١٨) اضاءة لذاكرة الوطن ص ٩ •

التي تتغير بها الحياة من حوله ٠

وقد كان العربى بصورة عامة ، قديما فى الجزيرة بدويا حتى الأعماق كما لاحظ ذلك الباحثون ووجدوا وجوه صور البلاغة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز تتاثر بحياة البادية وبالناقة على وجه الخصوص فقالـــوا للرجل اذا عجز عن الكلام (اعتقل لسانه) وان احسن فى أمر (لله دره) وان أهمل الشىء وتركه وشأنه ، (ألقى حبله على غاربـــه) واذا اعتزل أمرا (لا ناقة لى فيها ولا جمل) وكذلك قالوا وطئه بمنسمه وضرسه بأنيابه وأناخ عليه بكلكله وأخذ بزمامه وتسنم الأمر وغير ذلك(١٩) ٠

ويتضح مما سبق أن الخليجى على الرغم من التطورات المعاصرة التى يحاول أن يتأقلم معها مايزال بدويا فى أعماقه ٠ ومن هنا نستطيع أن نفهم جانبا من شخصيته ٠ ولعلماء الاجناس أن يدرسوا الملامح والجماجم ، وأن يقرروا ماشاءوا فنظرياتهم موضع جدال(٢٠) ، ولكن الذى لا جدال فيه أن جانبا مهما من محاولة دراسة الانسان وفهمه ترجع الى تحليل ما بداخل هذه الجماجم أعنى فكره ، وخصوصا ، فى لحظات انسيابه بعفويه ، ومن هنا كانت الصور الشعرية لها دلالاتها تماما كما يحاول النقاد المعاصرون دراسة شخصيات الروايات التى تنتمى الى تيار الوعى ٠ وهى نوع من القصص ترتكز أساسا على ارتياد مستويات ما قبل الكلام من الوعى ، بهدف الكشف عن الكيان النفسى للشخصيات ، والروائى يستخدم لذلك المناجاة والتداعى الحر من خلال الذاكرة ، مع حرية مزج الماضى والحاضر والمستقبل المتخيل ، وبذلك يمكن تقديم العنصر المزدوج فى الحياة الانسانية، أى الحياة الداخلية مع الحياة الخارجية فى وقت واحد(٢١) ٠

ومن هنا يصبح للأبيات التالية دلالتها على مرحلة من مراحل التطور الذى أسرع الخطى فلم يلحق به الانسان الخليجى ولم يتأقلم معه ، وبقى متعلقا بصحرائه وخيمته ٠

---

(١٩) أساليب الصناعة ص ٥٢ للدكتور محمد حسين ٠

(٢٠) دراسات فى عالم الانسان (الانثروبولوجيا) د٠حسن شحاته سعفان ـ القاهرة النهضة العربية ١٩٧٣ ٠

(٢١) راجع تيار الوعى ترجمة محمود الربيعى (الفصل الثانى) أنواع التكنيك ٠

يقول أحمد العدواني :

كنت هنا وكان لى بيت من الشعر
نسجته صنع يدى بالصوف والوبر
قام على رابيـــة مخضرة الطـــــرر
تؤمه الضيفان بين مرتق ومنحـــدر
والشمس تفتر له ويضحك القمر
ياليت شعرى ماأرى مافعل القـــدر
ملاعب الربيـــع قد حلت بها الغـــير
على آثارها ناس من الحـــضر
شادوا عليها لهم القصور من حجر
كأنها مقابر معكوســـــة الصور(٢٢)

ونفس المدلول نصل اليه من قول محمد الفايز « ودنسوا رمالها فلم يعد لخيمة أثر »(٢٣) • والواقع أن الدراسات الاجتماعية التى قامت لتدرس أثر النفط فى حياة الخليج ، وجدت أن نمط الحياة قد تغير ، فهجر أغلب السكان البادية وحياة البحر معا ، واتجهوا الى المصانع والشركات لأنها أوفر دخلا وأكثر راحة(٢٤) • وترتب على هذا أن انقلبت معايير العلاقات بـــين الناس ، فبعد أن كانت تبنى على أساس الانتماء القبلى ، فكك ظهور النفط هذه العلاقات الاجتماعية وأحل محلها قيما جديدة تقوم على أساس طبقى فى أحيان كثيرة(٢٥) ، ولكن كيان الفرد تزلزل فظهرت النزعة الفردية بعد أن كانت الروح الجماعية القبلية هى السائدة(٢٦) •

ان هذه النتائج يصل اليها عالم الاجتماع بعد أن يدرس العـــــادات والتقاليد والنظم والطبقات الاجتماعية ، ويلاحظ خط تطورها ويعرض للعوامل المؤثرة فيها ، ولكنها دراسات ونتائج فى الظواهر الاجتماعية ، أما رواسب

---

(٢٢) ديوان الشعر الكويتى ص ٩٢ •
(٢٣) النور من الداخل ص ٣٠ •
(٢٤) البترول والتغير الاجتماعى فى الخليج •د• الرميحى ص ٥٠ •
(٢٥) التيارات السياسية فى الخليج العربى د• العقاد ص ٣٦٤ •
(٢٦) الالتقاء الحضارى واثر البترول •د• جهينة ص ١٧٧ •

التفكير ووجدان الفرد فذلك ما يصل اليه التحليل الداخلى للأدب من زاوية اجتماعية ٠

ولكن الصورة لم تكتمل فذلك وجه واحد من وجوهها ، انها صورة الخليج برمالها اللامتناهية ومياهها الزرقاء ، فما زال أمامنا شوط نقطعه مع الشعراء على ضفاف الخليج ٠ يقول غازى القصيبى :

حبنا يشرق فى عينيك كالبدر على ليل الخليج
سلة من لؤلؤ(٢٧)

صورة لا يرسمها الا شاعر خليجى ، فالشخصية الخليجية تتضح بهذا المذاق الخاص الذى يجمع بين الرمال والبحار ومهما رسمنا من صور فلن يصل خيالنا الى تصوير اشراقة الحب فى عينى من نحب بسلة من لؤلؤ ٠ انه شاعر الخليج وحده الذى لديه هذا المخزون من الصور ٠ وتمثل المرأة المترفة التى تتزين باللؤلؤ مساحة كبيرة من شعر الغوص ، فهى لا تدرى ما يقاسيه الغواصون من أجل حبة واحدة من هذا العقد الذى تعبث بـه أناملها ، وعلى شفتيها ابتسامة ، بينما زوجة الغواص لا تجد الا البؤس والحرمان ٠ والصور التى ولدها الشعراء عديدة ، وكثير منها فى دواوين « محمد الفايز ، وعلى عبد الله خليفة » ٠

أعـد ذكر غواص تهـاوى لقاعـه ... كأن به رغم العرا عالما أرقى
هل الغادة الحسناء جست عقودها ... وهل عرفت من زين الصدر والعنقا؟
فليست حليـا ما ارتدتـه وانـما ... محاحر غواص وبحارة غرقى(٢٨)

هكذا كان البحر برغم جوده قاسيا ، وهكذا عاش الانسان الخليجى قبل عصر النفط برغم معانقته للبحر يخافه وتطوف بذهنه صور العـذاب الذى لا يتوقف كأنه سيزيف هذا العصر ٠ ان الخليجى بدوى فى أعماقه ،

---

(٢٧) معركة بلا راية ص ٨٣ ٠

(٢٨) النور من الداخل ص ٩٩ ٠

توحي له الصحراء بالحرية والحب والاحساس بامتلاك العالم ، بينما نجـــد أكثر صور البحر ـ كما قلنا ـ تدور حول الايدى التى « شققتها كثرة الملح وأدمتها الحبال » ٠وهو لا يفتأ حتى اليوم يذهب الى البر ، والذهاب الى البر فيه معنى الترويح عن النفس من عناء المدينة ومتاعبها ، حتى لو كان الذهاب من أجل القنص أو صيد الحيوان ، فهو يستروح نسمات الصحراء ويحن اليها ويشعر أن جذوره ضاربة فيها ، ولذلك يعود اليها من حين الى حين ، أما البحر فهو يوحي لعلى عبد الله خليفة« بأنين الصوارى » :

ويحهم قد أبحروا ويح الشجـــون
ويح أيام تغذت من عـــذاب ٠٠٠
بعضِ انسانٍ على الشاطىء ملقى كالرفات
عافه البحر وألقته قوانـين الحيـاة

ان البحر مرتبط بالشجون والعذاب لأن الغواص اذا شاخ لفظه البحر، واذا ركب البحر لاقى الاهوال طول النهار ٠ « ثم يأتي الليل من بعد الكلال ، خالى الانجم مهزوز الظلال » حتى النهام ـ مغنى السـفينة ـ حزين اللحن ، وحتى الصوارى لا تعرف سوى الأنين كأنها تشارك الغواص سعاله ٠ وتمر أيامه وتمر لياليه بطيئة « شيء ثقيل » وثقل الحزن لا يذكره بالجبال التى ترد على البال ، لكنها تذكرة بالمرساة :

كالليـــل فى حاراتـــنا
كالحزن ، كالسن الكبير(٢٩) ٠

والرثاء يلهب خيال الشعراء بصور من الخليج لأنها تفيض بالأسى ، وهى صور أكثرها غريب عن المغرب العربى لأنها بيئية ٠ يقول عبدالله العتيبى(٣٠) :

---

(٢٩) السن : صخرة كبيرة مثلثة الشـــكل بها ثقب جانبى تستعمل كمرساة للسفن الكـــبيرة ٠

(٣٠) صلاة من أجل السياب ص ٢٥٤ (ديوان الشعر الكويتى) ٠

هـــذا فتى جيكـــور وابنهـــــــا الحبيب
ســـفينة بلا شراع ، تهيم فى الخليـــج
نهامها كلامـــه وداع ، غنـــاؤه نشـــيج
رباه ان كان الدواء ، مكانه أعمق أعماق البحار
فهب لنا تجارب الالى ، كم حصدوا المحار

فالسفينة بلا شراع توشك أن تتحطم صورة مألوفة الى حد ما ، أما الجديد هنا فهو تشبيه المحتضر بهذه السفينة ، وهي هائمة يغنى نهامـــها أغنية الوداع • وتصوير الامر العسير بأنه بين فكى الاسد تصوير مألوف ، ولكن تشبيهه بالدرة فى أعمق أعماق البحار ، ومن ثم حاجتنا الى غواص ممن كان لهم دراية بالمحار هو الجديد • فعلى الرغم من أن حياة الغوص قـــد انتهت الا أن الشاعر ما يزال يمتح من الصور المخزونة فى أعماقه • ومن اعجب هذه الصور البحرية فى مجال الرثاء أبيات « غازى القصيبى » التى رثى بها شقيقه « نبيل » وله ديوان كامل فى رثائه ، وهو من أصدق ألوان المراثى فى شعرنا المعاصر :

كيف أغرت دربه كنعدة   كيف شد الخيط هامور وراح
فترقبتك والليـــل أسى   وترقبتك والفجـــر نواح(٣١)

ذلك سلطان البيئة ، وواضح عمق أثر الثقافة الموروثة فى شـــعر شعراء هذا العصر •

ومنذ العصر الجاهلي ونحن نستعمل قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى « ويرانى كالشجا فى حلقه » والمقصود ما يغص به الانسان ولا يبتلعـــه فيقف فى حلقه ، كناية عن الضيق الشديد ، ولكن هذه الصورة التى أصبحت مألوفة تتغير الى قول الشاعر الخليفى : « ومن أشناه شص فى لهاتى »(٣٢) • وواضح أن الاسماك هى التى تغص بالشصوص ولكن الصورة منتزعة من البيئة ، وهكذا تخلص الشعراء من أثر الموروث الذى كان سائدا فى مرحلة الاحياء ، وأمدتهم الحياة الاجتماعية بسيل من الصور الجديدة التى أثرت

(٣١) ذكرى نبيل ص ١٠٥ • (الكنعد والهامور من الأسماك) •
(٣٢) ديوان الشعر القطرى ص ١٩٠ •

الفن من ناحية ، وكانت فى نفس الوقت رموزا واشارات لمرحلة من مراحل التطور .

وتستمر البيئة المعطاء فى الهام الشعراء ، ففى « ديوان محمد الفايز » جمع هائل من الصور الجديدة التى أمدته بها مياه الخليج وسفنه وأشرعته وأكثرها صور حزينة كما قلنا .

ياراحلا بلا وداع
يازورقا تخاف من قلوعه الرياح . ياشراع
حباله الأعصـــاب
وبحره العذاب(٣٣)

استخدم القدماء حبال الخيمة كثيرا ، اما أن تكون حبال الشراع من الأعصاب المشدودة دائما فذلك هو المركب الجديد والرؤية الجديدةلمجموعة من المواد القديمة : الشراع ، الحبال ، الأعصاب . وقد يكون الشراع نفسه من خيوط غير التى تعرفها : « ياشراعا من خيوط الصبر »(٣٤) . ويدور الشراع دورانا طويلا ، حتى يصبح فى النهاية رمزا .

فقديما كانت العرب تقول « شم الأنوف » دلالة على الاباء ، وكانت تقول « ملكنا مارن الدنيا » لأن الأنف أبرز جزء فى الوجه ، كأن ارتفاعه ارتفاع للشخص ودلالة على الكبرياء ، ولكن الشاعر الخليجى يقول «شم» صوارينا(٣٥) وكأنه يقول « شم أنوفنا » ، ويردد فى نفس المعنى « ومتى أرفع رأسى للصوارى شامخا مثل شراعى »(٣٦) . فالشراع يشمخ ويرتفع فى كبرياء ككبرياء الأنوف الشامخة فى الاصطلاح العربى المألوف .

حتى البدر الذى يشبه الشعراء والناس وجوه حبيباتهم به لكماله ، يبحث له شاعر الخليج عن صورة أجمل ، فلا يجدها الا فى اللؤلؤ « البدر

---

(٣٣) النور من الداخل ص ٥٩ .
(٣٤) انين الصوارى ص ٤٠ .
(٣٥) انين الصوارى ص ٤٠ .
(٣٦) الديوان السابق ص ٥٤ .

يشرق في سواحلنا كلؤلؤة كبيرة »(٣٧) • ومن الحق أننا نقول تلألأ ضوء القمر اشارة الى بريقه ، ولكن الصورة برغم ذلك لا تخطر الا على بـــال الشاعر الذى يحلم كلما رأى الخليج بما فى أعماقه :

أتيت أمرح فـوق الرمل أنبشــه عن ذكرياتى القدامى عنهوىصغرى
أقول : شاعرك الولهان تذكـــره أتاك يحلم بالاصداف والدرر(٣٨)

لأنه بطبيعته « يهوى الغوص فى الأسرار ليلمس جوهرالاشياء»(٣٩) • وهكذا أصبح الدر رمزا لجوهر الأشياء أو للحقيقة الناصعة ، فهو يحاول الوصول اليها وهى تستتر حينا ولكنه يصل اليها ، فالحياة أمامه واضحـــة مكشوفة كالطبيعة لا ضباب ولا غموض •

ولذلك فالنقلة الحضارية كانت كبيرة مفاجئة ، ورأى الشاعر أو الانسان الخليجي نفسه أمام موقف جديد يريد أن يلوث صفاء حياته بما لا يعرفه مما فى باطن الأرض •

لوث البترول كفى وثيابى والجبين(٤٠) •

وتتوقف السفن على الخليج وتتحطم القناديل : « على الرمال قناديل محطمة »(٤١) ، ويسكت النهام فلا يعود يغني للبحارة فى لياليهم ، بل لا يعود البحارة أنفسهم الى البحر ، فقد شردتهم الحياة الجديدة التى لم تعد بحاجة اليهم ، « وشردوا بحارها فلا نهام ساهر ولا وتر »(٤٢) ولكنه لا يلبث بعد حين أن يهدأ نفسا • كأنما يبدأ فى التأقلم بعض الشىء مع الحياة الجديدة ، يحاول أن يتصدى بدلا من أن ينقم ، ويتطلع الى الغد بأمل كبير :

ياغـــدنا الأخضـــر
أزهاره عوالم من نور
تغـــازل البـــدو(٤٣)

---

(٣٧) مذكرات بحار ١٦٨ •
(٣٨) معركة بلا راية ص ٨٦ •
(٣٩) فى ذكرى نبيل ٥٩ •
(٤٠) ديوان الشعر الكويتى ٢٧٥ •
(٤١) النور من الداخل ٢٥ •
(٤٢) الديوان السابق ٣٠ •
(٤٣) ديوان الشعر الكويتى ٩٩ •

الفارق واضح بين منهجين ، أحدهما يدرس الحياة الاجتماعية ثم يستشهد على صحة ما يقول بالنصوص الأدبية من شعر ونثر فيتناول تعليم الفتاة أو ارتفاع المهور أو الزى أو العادات والتقاليد ، كدراسة « آدم ميتز » فهى دراسة حضارية ، والثانى يدرس الادب دراسة تحليلة ليتبين مافيه من اشارات اجتماعية تصور أعماق المجتمع ، ووجدان البيئة • فالنص هنا هو الأصل وهو غير الوثائق ، هو البوح والفيض التلقائى ، أو هو تيار الوعى الذى يتدفق بمجموعة من الصور تمثل جوهر البيئة وحقيقتها ، ولكنه لا يعطى رسما فوتوغرافيا لها ، وكلاهما يعمق الآخر •

وقد يثور سؤال يتصل بالشاعر ووضعه الطبقى ، بمعنى أن الشاعر الذى ينتمى الى بيئة الغواصين يمكن أن يذكر صور الغوص ، بينما الشاعر الذى ينتمى الى بيئة أخرى يستمد صوره من مخزونه الذى يتصل بحياته داخل هذا الاطار أو ذاك • وربما كان هذا صحيحا وهو على أية حال يشكل الاتجاه الثالث من اتجاهات التحليل الاجتماعى للأديب ـ أعنى دراسة الأدباء أنفسهم ـ ولكننا عندما نستعرض أسماء شعراء الخليج الذين تناولوا الموضوعات المشتركة نجدهم ينتمون الى أكثر من طبقة ، بالرغم من أن كلمة طبقة اجتماعية تعتبر مصطلحا جديدا فى منطقة الخليج • فلم تكن الحدود الطبقية واضحة تماما ، ولا هى حتى اليوم • والامر الثانى أن كل الشعراء على وجه التقريب قد تناولوا فى صورهم البادية والبحر معا ذلك أن المجتمع الخليجى مجتمع صغير ، كان الى عهد قريب يمارس لونى الحياة معا • فى الشتاء البداوة وفى الصيف الغوص ، وحتى اذا اقتصرت حياته على الصيد وحده ، فهو على حدود البادية التى يشعر بالانتماء اليها ، هذا بالاضافة الى أن المرء يمكن أن يكون منتميا فكريا الى غير طبقته ، وان كان هذا قليل الحدوث •

وهكذا يتضح أن ربط الادب بالمجتمع ربطا عضويا يمكن أن يتكشف عنه اتجاه نقدى جديد يحلل الادب باعتباره ظاهرة اجتماعية ، بينما يدرس التاريخ الادب ككل ، باعتباره جزءا من تاريخ الحضارة • وهذا الاتجاه يسعى لكى يضع يده على الظواهر العامة ويعزل منها الوقائع الممثلة لدلالات معينة ، لكى يربط ربطا سليما بين الجزئيات المتعددة سعيا وراء الوصول الى فهم متكامل للظواهر الادبية •

تبقى هناك وجهتا نظر : الاولى ترى أن الفن متميز عن الواقع وليس صورة له أو تعبيرا مباشرا عنه ، فهو واقع نسبى ولا يصح ان نقابل بينه وبين الواقع الحقيقى أو نأخذ أحدهما على أنه صورة مطابقة للآخر ، فلا تصح هذه النظرة العلمية التي ترد الظواهر الى مسببات بيئية فى دراسة الفن • وهذا الرأى يقال عندما يحاول الناقد أن يفسر العمل تفسيرا فنيا وحسب فيعزله عن جوه العام ليقرر مجموعة من القيم الجمالية ، فينظر الى التناسب بين الصور وينظر الى الموسيقى التصويرية والى الوحدة العضوية فى العمل الفنى • وهى نظرة مهمة لاشك وهى محور عمل الناقد الادبى فى تذوق النص وتوجيه الاديب • ولكننا لا نستطيع أن نتحاشى النظر الى المحتوى فى النص الادبى ، وعندما ننظر الى المحتوى نجد أنفسنا أمام أمرين :

الاول : أن نأخذ قول الشاعر مأخذا حرفيا فعندما يقول : « غريب ان دنوت وان نأيت » نفهم أنه رحل عن وطنه وعندما يقول : « أفسدت بيننا الامانات عيناها » نفهم أن فتاته على جانب كبير من الجمال بحيث خان الرسول الامانة ، وهذا هو الفهم المباشر المرفوض ، لأن الفن أعمق من مجرد التعبير المباشر ، فالغربة قد تكون احساسا بعدم الامان والمحبوبة قد تكون رمزا لأمل يعذب صاحبه • والناقد الادبى هو الذى يستطيع أن يفهم التعبير الرمزى والتعبير المباشر فى ضوء فهمه لتاريخ الادب • وأذكر أن مستشرقا قرأ قول الشاعر :

فانك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكان يعلق بشىء من الدهشة متسائلا عما اذا كان هذا غزلا أم مديحا ، وعما اذا كان الممدوح اذا سلمنا بأنه مديح ـ رجلا أم امرأة •

الأمر الثانى : مكونات هذا المحتوى وجزئياته وصوره ، وهذا هو موضع الدراسة ، وهى لا تتعارض مع عملية التذوق الفنى بل تمنحه بعدا جديدا ، ولذلك فنحن عندما نتوقف منذ امرىء القيس أمام قولـــه فى مطلع معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » لا نستطيع أن نفسره الا فى ضوء الحياة البدوية ، لماذا خاطب فعل الأمر المثنى ولماذا ذكر المنزل • ولذلك نرى ابن سلام يدرك أثر البيئة فيلتفت اليها فى طبقاته ـ كما قلنا ـ ونرى ابن قتيبة يعلل البداية بالأطلال تعليلا بيئيا أيضا •

والاعتراض الآخر الذى يوجهه أصحاب النقد الجمالى موجه فى الحقيقة الى أصحاب التفسير النفسى للادب ، لأن العمل الفنى والشعر خاصة من وجهة

النظر النفسية يتمثل فى الخيالات الابتكارية التى تنجم عن ذلك النشاط العقلى الذى يرمى الى الاستعاضة عما فى البيئة أو النفس من نقص أو قصور ، أى الى القضاء على الصراع الداخلى بما يؤدى الى الاحتفاظ بالتوازن النفسى ، ويونج له وجهة نظر تغاير وجهة نظر فرويد ، فيونج يرى الاهتمام بالبحث عن الشعور الجمعى وآثاره فى الفن عامة والشعر بالذات ، ويرى الاهتمام على وجه الخصوص بتلك البقايا من التقاليد التى ترسبت فى لا شعور الانسانية منذ مراحلها البدائية الاولى ·

والحقيقة أن المنهجين يستفيد منهما ناقد العمل الادبى ، فعندما نقرأ قول الشاعر الجاهلى الذى يقول : « يادار عبلة بالجواء تكلمى » نجد أن تشخيص الدار ، والبداية بالنداء أو بما يعرف بالاسلوب الانشائى ، وهذا النغم الهادىء الذى يعلو فى نهاية الجملة الشعرية بفعل الامر ، لها دلالة جمالية · ولكن الوقوف عند الدار فى حد ذاته له دلالة بيئية لارتباط حياة البدو بالرحلة وراء الكلأ ولذلك يخلفون وراءهم الأطلال ، وهذه الأطلال تذكرهم بماض من الزمن انتهى أو بجزء من العمر اغتاله الموت ، فالأطلال رمز للموت بما فيها من تآكل وخراب وصمت أبدى ، ورعب الانسان الجاهلى من الموت مسطور فى أكثر شعرهم ، ويكفى أن نقرأ معلقة طرفه لندرك عمق هذا المدلول ، فلم يكن لهم دين يمنحهم الطمأنينة والحياة بعد الموت ، ولم تكن لهم فلسفة تؤمن بتناسخ الارواح كبعض الشعوب المجاورة لهم ، وانما كانوا وجها لوجه أمام الموت · بقى الجانب الأخير وهو مخاطبة الجماد ونداؤه وتجسيمه ويمكن أن يرجع الى الرواسب البدائية فى أعماق الشاعر عندما كان يخلع الحياة على كل الكائنات وهذا التشخيص يمنح العمل الادبى حيوية لا تتوفر فى التجريد ·

وهكذا يتبين أن المنهج التكاملى هو المنهج النقدى الذى يستفيد من العلوم الأخرى ويرى فى العمل الادبى اشعاعات فى كل اتجاه ، ومعنى ذلك أن العمل الادبى كما يرى رنيه ويليك وأوستن وارين فى كتابهما « نظرية الأدب » يمكن أن يدرس فى ضوء العوامل الرئيسية المحددة للابداع الأدبى وهو ما يسمى بالمنهج الخارجى ، كما يدرس فى ضوء التحليل الجمالى وهو ما يسمى بالمنهج الداخلى · ومن الواضح أنه لا يمكن الاكتفاء بأحد الجانبين ، فالنقد الخارجى وحده لايهتم بالحكم على النص من الناحية الجمالية وبذلك

يساوى بين العمل الجيد والعمل الردىء ، والنقد الداخلى يهتم بالأساليب والموسيقى وتذوق الصور الأدبية وقد يصل الى حد عزل النص عن كل ما حوله ٠

اننا لا نستطيع أن ندرس النص الأدبى معزولا عن كل شىء ، عن ظروف مجتمعه وعن حياة صاحبه وعن حقيقة تكوينه النفسى الخاص ٠ فهذه الدعوة كانت فى يوم من الأيام لها أنصارها العديدون فى مقابل المحاولات الأخرى لتحويل النقد الأدبى الى علم ، وكان لابد أن ينتهى التطرف وأن تعود الحياة الأدبية مؤثرة ومتأثرة بالقدر الذى يمنحها رؤى جديدة ٠

ولم يعد علم الجمال يتوقف عند الانسجام فى جزئيات الشكل ويعيره أكبر الالتفات ، ولم تعد الموسيقى وحدها تحتل هذه المكانة العالية التى كانت تنفرد بها أيام الرمزيين حتى لنراهم يتحدثون عما يسمى بموسيقى الصمت ، ولكن الدراسات الجمالية اليوم تنظر الى البنية كلها وخصوبة العطاء الذى يمكن أن نجده فى العمل الفنى ، وهذا العطاء كثيرا ما يتوقف على ثقافتنا وتحليلنا وتفسيرنا للعمل الأدبى ، ولكنها أنشطة عقلية وفى نفس الوقت لا تغفل الجانب الذوقى الاصيل ٠ ومن هنا يتضح أن التحليل الاجتماعى للأدب يمكن أن يساعد الباحث الأدبى والاجتماعى على دراسة ظاهرة من الظواهر ، بنفس القدر الذى يثرى الدراسة النقدية ٠

المجتمع القطري ومؤشرات التنمية

دكتورة جهينة سلطان سيف العيسى

مدرسة بقسم الاجتماع

تحتل قضية التحديث مكانا بارزا في الفكر الاجتماعي المعاصر ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وظهور الدول الجديدة أو دول العالم الثالث كما يطلق عليها البعض • وطالما أن التحديث يرتبط بالتنمية فقد أدى الى تنوع وتعدد الاتجاهات في تفسير قضايا التحديث ، الذى كان للاختلافات الايديولوجية أثر بارز في اختلاف المداخل النظرية والاستراتيجيات والاساليب المقترحة لتنمية المجتمعات سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا • وتبين الدراسات التحليلية للتراث السوسيولوجي – في هذا المجال – اتجاهات متعددة في دراسة التحديث منها ، اتجاه الثنائيات ، والاتجاه التطورى المحدث ، واتجاه المؤشرات والاتجاه الانتشارى والاتجاه السيكولوجي والاتجاه التكاملي(١) •

وسنتعرض في هذا البحث الى بعض المتغيرات التى أدت الى تحديث المجتمع القطرى وتنميته بغض النظر عن الاحكام القيميه المتعلقة بهذا الموضوع على وجه الخصوص•وذلك بالاستعانة باتجاه المؤشرات الذى يعتبر من الناحية السوسيولوجية هو الدراسة الكمية والكيفية لبعض المتغيرات • ولا تكون هذه المؤشرات ذات دلالة ما لم تكن مستندة الى اطار نظرى وفهم تاريخى مقارن•(٢) فكلما اتخذ اتجاه المؤشرات شكلا كيفيا فانه يميل الى تحديد بعض العناصر النموذجية اللازمة للتحديث والتنمية ، وبالتالى فحتى يتم التحديث يجب اكتساب سمات معينة ، والا فان فقدان هذه السمات سيعنى التخلف بالضرورة • وهذا يتطلب من الباحث الا يتبنى اتجاهات ونماذج ما لم تكن مرتبطه اساسا ببناء المجتمع تاريخيا من جهة ، وتكون اطارا مرجعيا

للمقارنة من جهة أخرى • فاذن هل نستطيع أن نعتبر بعض مؤشرات التحديث فى المجتمع القطرى دليلا على تنمية هذا المجتمع ؟ طالما أن عملية التحديث والتنمية تواجه معوقات كثيرة ، اما ثقافية أو اجتماعية ، تتخذ من المجتمع قاعدة أو أساسا لها • التى منها النمو المستمر للصراع الداخلى بين الجماعات المختلفة فى المجنمع ، وتطور التنافر والانقسامات دون احتمال ايجاد حلول أو تسوية ، بالاضافة الى وجود انماط مختلفة من الاتصال وعدم وجود كادر مؤهل لادارة النشاط الاتصالى • ومن ناحية أخرى يتصف اقتصاد المجتمع بالمشكلات ومن ثم لا يؤدى الى تنمية معايير جديدة تتناسب مع الوضع الجديد، ولا يؤدى ايضا الى تطور ونمو الاوضاع التنيظيمية الجديدة وبالتالى يفقد ميكانزمات التنظيم فيما يتعلق بالنباء الاجتماعى حتى يمكنه معالجة المشكلات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية • هذه العوامل وغيرها أدت الى انتكاسه فى بعض المجتمعات النامية •

ويمكن أن نشير الى بعض المتغيرات التى تؤدى الى تحديث المجتمع ، كانتشار التعليم وتطوره وانتشار وسائل الاتصال الجماهيرى والتصنيع والتنمية الصناعية التى لعبت دورا فى تحديث المجتمعات الرأسمالية وغيرها وتلعب نفس الدور بابعاد مختلفة فى الدول الجديدة • وعلى ذلك سنتناول كلا من هذه المتغيرات بمفرده •

اولا : تطور النظام التعليمى :

يبدو أن التعليم مثار اهتمام الدول الجديدة ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان التعليم ضرورى لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بالاضافة الى انه يحقق معنى للوطنية عن طريق تداخل فئات الشعب المختلفة ، ومن جهة ثالثة فان الطبقة المتعلمة هى التى تحافظ على الوضع السياسى فى العالم المعاصر • ويمكن أن تمتد وظائف التعليم الى مجالات أخرى غير الاقتصاد والدولة ، فهى بالاضافة الى انها تقوم بتزويد الفرد بالمهارات الفنية ، فهى تفتح أمامه الطريق لمعرفة ذاته وحدود امكانياته ، وبهذه الامكانيات يصبح دور الفرد أكثر تمايزا وذا اكتساب توجيهى •

وتختلف الجماعات الاجتماعية المختلفة الاقتصادية أو الادارية أو

التنظيمية فى نوعية احتياجاتها التعليمية ، ومن ثم يختلف جانب الاشعاع التعليمى باختلاف الاحتياجات والمتطلبات فيحاول من جهة أن يشبع حاجة القوى البشرية ، ومن جهة أخرى يكون النظام التعليمى ملزما بتوفير الاحتياجات التعليمية المختلفة من مدارس تتدرج ما بين دور حضانة وجامعات. وتتكون نتيجة هذا التفاعل الخصائص البنائية للنظم التعليمية فى المجتمعات الحديثة .

ان سنة ١٩٥٦ تعتبر بداية حقيقية للتعليم النظامى القائم على أسس تربوية حديثة فى قطر . اذ وضع فيها أول منهج دراسى متطور يتمشى مع البيئة المحلية ، وحددت فيه المراحل التعليمية الثلاث: الابتدائية ، الاعدادية، الثانوية ، ووضعت لوائح مدرسية ، واصبحت الحكومة مسئولة عن التعليم بالاشراف على تنظيمه وتطويره(٣) .

فقد شهدت قطر فى الربع الاخير من هذا القرن نموا ملحوظا فى مجالات التربية والتعليم وقد اتخذ هذا النمو أوجها ثلاثة ترتبط ببعض ارتباطا قويا وهى :

أولا : تطور اعداد المدارس .

ثانيا : تطور اعداد الطلاب والمدرسين وثالثا : تطور ميزانية التعليم .

فبالنسبة لتطور اعداد المدارس فعندما ابتدأ التعليم فى قطر عام ٥١/ ١٩٥٢ م كانت هناك مدرسة واحدة للبنين ، وفى عام ١٩٥٥/٥٤ م افتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات ، وتضاعف عدد المدارس فى الخمس سنوات الاولى بمعدل ١٧ مرة . بينما تضاعف فى الستة عشر سنة الاخيرة بمعدل ثلاث مرات تقريبا . ويرجع ذلك الى التطور فى منطقة الخليج العربى الاقتصادى ، وازدهار التعليم فى المملكة العربية السعودية الكويت والبحرين، ويقظة الوعى القومى وتقدم سبل المواصلات وربط قطر بشبكة خطوط جوية وبحرية بالعالم الخارجى والاهتمام بوسائل الاتصال الجماهيرى من اذاعة وصحافة وارساء قواعد التنظيم الادارى وازدياد السكان وتدفق الهجرة .

وأما من ناحية تطور اعداد الطلاب والمدرسين فمنذ ان انتظم التعليم

ابتدأت اعداد الطلاب بالازدياد المضطرد ، فقد كان عدد الطلاب ٥٦٠ طالبا يدرس لهم ٢٦ مدرسا عام ١٩٥٤ ليصبح ١٥٠١ طالبا يدرس لهم ٨٤ مدرسا عام ١٩٥٦ ، ليصل الى ١٧٠٥٤ طالبا و ١٥٣٣٦ طالبة يدرس لهم ١٠٦٦ مدرسا و ١١١٩ مدرسة فى الدراسى ١٩٧٧/٧٦م(٤) ٠

وارتبط بتطور اعداد الطلاب والمدرسين والمدارس تطور فى ميزانية التعليم ، فبعد أن كانت لا تتجاوز ١٪ فى الميزانية العامة فى عام ١٩٥٧/٥٦م اصبحت ١٨ر٢٥٪ منها فى عام ٦٣/٦٢م واخذت تتزايد عاما بعد عام بحيث كانت نسبة الزيادة خلال الفترة ما بين ٥٥ ــ ١٩٧٢ تساوى ٥٨٪ ٠

ولا شك أن هذا التطور فى اعداد الطلاب سيؤدى الى تغييرات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية ترتبط بالاقتصاد العالمى والسياسة العالمية ٠ ومما يؤكد أن ما يحصل عليه الفرد من التعليم فى البلاد النامية هو تأكيد الاتجاه نحو اكتساب المعرفة ٠ وحيث أن بداية التعليم فى قطر لم تكن اجبارية أو ملزمة فان تطوع الاباء واقبالهم على ارسال ابنائهم الى المدارس يعنى أن المجتمع القطرى قد وضع قدمه فى طريق التحديث ٠ وان انتشار التعليم وتطوره سواء بالنسبة لاعداد المدارس أو المدرسين أو التلاميذيؤكد بداية الخوض فى مسيرة التحديث ٠ وهذا لا يعنى أن المناهج وأساليب التدريس وغيرها لاتحتاج الى اعادة تقييم ٠ فالاهتمام بالتعليم دافعه فى الحقيقة ليس كدافع الاهتمام بقطاعات أخرى كالتصنيع أو الدفاع جاء طارئا مع النفط ، انما هو اعمق من ذلك بكثير لان مجتمعات الخليج التقليدية كانت تنظر نظرة اعزاز واكبار الى الشخص المتعلم واهتمت بهذا المجال عن طريق الكتاتيب وعن طريق ارسال الشباب فى بعثات دراسية الى البلاد العربية لاكتساب المعرفة والتعلم بفترة سبقت كثيرا ظهور النفط ٠

ثانيا : التنمية الصناعية :

يتبادر الى الذهن هنا عدة استفسارات عند التطرق الى موضوع التنمية الصناعية فى قطر ، ماهى الاتجاهات الكامنة فى العملية الانتاجية وما اثرها على المجتمع ؟ وما هى الخطة الصناعية ؟ وما هى مجالات الصراع

والتنافر بين الثقافة والتقليدية السائدة وبين التصنيع كثقافة حديثة ؟ وكيف يوجه هذا التصادم بحيث يؤدى الى تنمية وليس الى نكوص أو ارتداد ، كلها يعجز المرء الاجابة عليها طالما ان التصنيع فى قطر يعتبر من العمليات الحديثة. ولكن نستطيع ان نشير الى أقدم صناعة حديثة عرفها المجتمع القطرى ، وهى صناعة البترول .

وهنا نقول أن العملية الانتاجية للبترول تمتد الى مايزيد عن الربع قرن مضت ، ولكن التصنيع لم يبدأ الا فى العشر سنوات الاخيرة بصورة فعلية(٥) . وهل يعني ذلك ان التصنيع يمكن ان يخلق ثقافة عامة ، وذلك عندما يصل المجتمع الى مرحلة معينة من التصنيع فانه يشابه فى خصائصه العامة أى مجتمع صناعى آخر وصل الى نفس المرحلة ، وتتمثل تلك الخصائص العامة فى تقسيم العمل ، وانخفاض اعداد العمال الزراعيين وارتفاع اعداد العمال الذين يعملون فى التصنيع وخاصة الفنيون ، والاعتماد على التكنولوجيا المتطورة التى تعتمد على المعلومات العلمية الحديثة والاساليب التقنية الجديدة بالاضافة الى ارتفاع معدل التحضر واقتصاد متخصص يعتمد على التجارة التى تربط أجزاء المجتمع بالاسواق العالمية ، وأيضا يمتاز بنسق من الحراك الاجتماعى المفتوح ، وتوفير التعليم لكل فئات الشعب ، كما يكون لذلك المجتمع شبكة اتصال جماهيرية واسعة تربط افراد المجتمع بنماذج فكرية قومية بالاضافة الى ظهور قيم حديثة تعتبر وسائل تجريبية لتحقيق الاهداف وهنا نجد أن خصائص المجتمع القطرى شبه الصناعى لاتختلف عن خصائص باقى مجتمعات الخليج العربى .

فالتصنيع فى قطر يختلف عنه فى الجزائر أو مصر،وهذا يتطلب بالضرورة فهم الاطار التاريخى للتصنيع ، لاننا من خلال هذا الاطار يمكن ان نفهم ابعاده وتقييم نتائجه . وعند تقييم النتائج يجب ان نضع اعتبارات منها طبيعة الافراد أو الهيئات المشرفة على تنفيذ برامج التصنيع ، وتأثير التصنيع على العمال والاداريين والانساق الاجتماعية ، كذلك مدى توافق النسق القيمى الصناعى مع نسق قيم المجتمع السائد والتغيرات التى يحدثها فى القيم . كذلك يجب التعرف على المواقف التى يتخذها العمال أثناء عملية التصنيع واتجاهات المؤسسات الرسمية فيها .

وبالقاء نظرة على انجازات قطر فى المجال الصناعى نجد أن الحكومة قد خصصت لقطاع التصنيع الثقيل مبلغ (١٤٩٥) مليون ريال في الميزانية العامة للدولة لعام ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦م) مقابل (٣٠٥) مليون ريال رصدت لهذا الغرض فى ميزانية ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥م) • فيأتى ضمن مشروعات التصنيع مصنع الحديد والصلب • كما بوشر العمل فى توسعه مصنع الاسمدة الكيماوية ، ويجرى العمل فى انشاء مصنع السوائل الغازية وتطوير مرافقة البرية والبحرية وتقدر تكلفته بحوالى (١٤٠٠) مليون ريال رصد له فى ميزانية ١٩٧٦ مبلغ (٣٥٠) مليون ريال وسيسدد المصنع نفقاته كاملة خلال خمس سنوات من بدء التشغيل •

كما بدأ العمل فى تنفيذ مشروع البتروكيماويات ، وينتظر ان يبدأ الانتاج فى أوائل عام ١٩٨٠ وتبلغ التكلفة المقدرة للمشروع (٢٠٠٠) مليون ريال ، وستبلغ طاقته الانتاجية (٢٨٠) ألف طن سنويا من الاثيلين والبولثيلين ، كما يجرى العمل لتوسيع مصنع الاسمنت والاعداد لانشاء مصنع السماد العضوى •

وهناك مشروعات الصناعات الخفيفة المعدة للتنفيذ وأهمها مشروعات البناء والمستهلكات المنزلية مثل المنظفات والمعلبات الغذائية والزيوت النباتية والدهون وأدوات التجميل وصناعة الورق والصناعات البلاستيكية •

ومن الملاحظ أن قطاع البترول يساهم مساهمة قوية فى الانماء الصناعى ويأتى فى مقدمة أهداف التخطيط الاقتصادى للدولة الاستفادة القصوى من مساهمة قطاع البترول فى التنمية الاقتصادية •

ولكن هناك سؤال يبقى دون أجابة محددة وهو ما دور العمال (الموارد البشرية) فى التنمية الصناعية ؟ ففى الدراسة التى أجرتها « منظمة العمل الدولية » عام ١٩٧٦ م وجد أن من بين ١٣٫٥٧٠ عامل قطرى يوجد خمسة آلاف عامل يعملون كحراس وسائقى سيارات وعمال غير مهرة ، ويوزعون بالتساوى على القطاعين الحكومى والخاص • يعمل حوالى (٣٠٠٠) عامل فى الانتاج وما يرتبط به ، فنهم ٧٠٠ عامل فى القطاع الحكومى ، بينما هناك ١٨٠٠ عامل ممن يعملون فى أعمال مكتبية منهم ألف عامل فى القطاع

الحكومى . بينما هناك ١٧٠٠ عامل يعملون فى أعمال فنية منهم ١٤٠٠ عامل يعملون فى القطاع الحكومى .

كما أن ثلاثة أرباع القطريين الذين يعملون فى وظائف متخصصة وفنية هم من فئات المعلمين ورجال الدين والمساحين والمخططين ، بينما يعمل ١٤٪ من القطريين فى القطاع الحكومى فى مراكز ادارية عليا(٦) .

والملاحظ ان ٧٦٪ من مجموع قوة العمل فى قطر لم تحصل على أى نوع من التعليم الرسمى ، وحوالى ٥٪ فقط من مجموع القوى العاملة فى قطر (محلية ووافدة) حاصلة على نوع من التعليم الثالث (أعلى من الثانوى) . كما قدر عدد قوة العمل الحاصلة على شهادة جامعية عام ١٩٧٢ م بحوالى ١٠٠ شخص ، فى حين أن أكثر من ١٠٠ شخص أكملوا تعليمهم الثانوى أو الصناعى ممن يشاركون فى مجموع قوة العمل القطرية(٧) . أما المرأة فليس لها دور فعال فى قوة العمل اذ تبين ان القوى العاملة القطرية تبلغ ٨٢٠٠ شخصا تقريبا من بينهم ٢٨٤ امرأة فقط (١٩٧٠ سنكلير)(٨) . بينما نجد ان معدل النمو السنوى للسكان يبلغ ٣ر٥ سنويا .

ونجد أن قوة العمل القطرية فى عام ١٩٧٥ حسب تقرير منظمة العمل الدولية بلغت ١٢٫٠٧٥ عاملا بينما كانت عام ١٩٧٠ م حوالى ٨١٦٨ عاملا أى أن معدل الزيادة السنوية بلغت ١٠ر٣٪ والتى لا ترجع بطبيعة الحال الى الزيادة الطبيعية فقط . وعلى ذلك فان الزيادة السنوية فى قوة العمل القطرية تبلغ ٦٪ سنويا تقريبا .

وعلى ذلك فان دور الاقتصاد الحديث والتنمية الصناعية لا يظهر بوضوح وفعالية مالم يستفيد ويساهم فيه العنصر البشرى . وخاصة وان دول العالم الثالث تواجه قضية التنمية الاقتصادية السريعة وهى قضية التعجيل من النمو التكنولوجى مما يجعل افراد المجتمع يواجهون صراعا بين عاداتهم وتقاليدهم ونسق قيمهم التقليدى وبين انماط السلوك والقيم والاتجاهات المرتبطة بالتصنيع .

ففى المجتمع القطرى نجد ان الانتقال السريع من اقتصاد تقليدى (غوص

ورعى) الى اقتصاد حديث (صناعة النفط) أدى الى جميع ما يتوقع من هذا الانتقال فبمجرد ترك الناس مهنة ابائهم واجـــــدادهم (الغوص) بسبب كسادها نتيجة لظهور اللؤلؤ الصناعي من جهة ، وظهور النفط من جهة ثانية ، ظهرت مشكلات كثيرة منها التنمية الداخلية غير المنتظمة ، والانعزال الفردى، الانشغال بمشكلات التوظيف والعمالة وغيرها التى لاتختلف فى مضمونها عن المشكلات التى تواجه المجتمعات الانتقالية بصفة عامة ومجتمعات العالم الثالث ومجتمعات الخليج العربى بصفة خاصة ٠

ثالثا : انتشار وسائل الاتصال الجماهيرى :

يؤمن كثير من دراسى التنمية والتحديث بدور وسائل الاتصـــــال الجماهيرى (الاذعة ـ التليفزيون ـ الصحف ـ الطرق) فى ربط جميع أنحاء المجتمع ٠ وخاصة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والبدويـــة والمناطق النائية ، ومن ناحية ثانية تربط المجتمع بالعالم الخارجى فتقرب الناس فكريا ونفسيا بانماط متنوعة من الحياة والسلوك ٠ وخاصة عندما تؤدى الى التكامل الاجتماعى والسياسى ، بحيث يظهر على مستويات ثلاثة ، أولا : مع موضوعات ذات طابع محلى بحت وثانيا : مع موضوعـــات ذات طابع قومى ، وثالثا : تكاملا مع موضوعات ومواقف سياسية بحته(٩)٠ وتكمن فائدة وسائل الاتصال فى وظيفة محتواها ٠ فعندما تتحكم الدولة فى التليفزيون فان برامجه ستكون وفقا لاهداف الدولة ، وهنا يكون ضروريا معرفة من يدير ويتحكم بوسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع قيد الدراسة ، خاصة ان وسائل الاتصال فى المجتمع ترتبط بتقدم النظم الاخرى فيه ٠ ومن ناحية أخرى تبدو علاقة وسائل الاتصال الجماهيرى بالتحديث عندما نتمكن من الاجابة عن من هو القائل ؟ وماذا يقول ؟ ماهى آداة قوله ؟ لمن يوجه القول ؟ واخيرا ماهو مفعول قوله ؟ واذا استطعنا أن نجيب عن هذه الاسئلة الخمسة أمكن أن نحدد ابعاد وسائل الاتصال الجماهيرى وهى البعد التثقيفى والبعد التربوى التى ترمى الى تحقيق التنمية ٠

ونجد أن قطر عنيت بوسائل الاتصال الجماهيرى بانشاء وزارة الاعلام التى تضم عددا من الادارات تأتى الاذاعة فى مقدمتها ، وقد دأبت اذاعة قطر منذ تأسيسها فى يونيو ١٩٦٨ على تطوير برامجها وتقوية ارسالها وتذيع

باللغتين العربية والانجليزية البرامج الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية والترفيهية حيث بلغ عدد ساعات الارسال الاسبوعية عام ٦٨ ـ ٧١ ستا وسبعين ساعة اسبوعيا (١٠) • بينما بلغت ساعات البث التليفزيونى ٤٨ ساعة اسبوعيا فى نفس الفترة ٦٨ ـ ١٧(١١) •

اما عن الصحف والمجلات فيبلغ عدد المجلات الاسبوعية مجلتين اسبوعيتين بالاضافة الى جريدة يومية تصدر بالعربية واخرى تصدر بالانجليزية • وتقوم وزارة الاعلام باصدار مجلة شهرية ثقافية وتتولى وزارة الدفاع اصدار مجلة رياضية شهرية وتصدر وزارة المالية والبترول مجلة متخصصةشهريا •

الآثار الاجتماعية للتنمية :

نستطيع ان ننتقل الى بعد آخر وهو آثار التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وذلك بعد ان تعرضنا الى مؤشرات التنمية وخاصة التصنيع حيث تفرض الصناعة على المجتمع الحركة السريعة والتغير المستمر طالما انه يتطلب احداث تغيرات بنائية واجتماعية وثقافية كما ان التنمية تفترض وجود قدر من الانفتاح الاقتصادى والسياسى ، كما تعد المعرفة العلمية من الامور الوثيقة الصلة بعملية التنمية •

وقد بينت بعض الدراسات ان برامج التنمية التى تنفذ فى دول العالم الثالث قد تحرك الميول والنزعات القومية لتحطيم عزلة المجتمع المحلى بحيث يندمج اعضاؤه فى المجتمعات المحلية الاخرى التي يضمها المجتمع القومى ويكونون علاقات اجتماعية جديدة وثيقة(١٢) ونلاحظ أيضا ان الاسرة فى هذه المجتمعات تتعرض لتغيرات كثيرة من ناحية وظائفها وبنائها وادوار الافراد فيها • وسوف نحاول فيما يلى عرض الاثار الاجتماعية للتنمية فى قطر •

١ ـ التنمية والتحضر :

من الصعب ايجاد علاقة وثيقة بين التنمية والتحضر ، الا انه من الواضح ان للتنمية تأثيرا قويا فى كثير من جوانب التحضر وخاصة لارتباط الاخير

بالتصنيع احيانا . فالتنمية تؤثر على نمو بعض المناطق الحضرية وايضا تؤثر فى نمط النمو الحضرى نفسه ، وفى المستوى النسبى للنمو الاقتصادى الداخل فى التحضر(١٣) .

والتنمية فى بلاد العالم الثالث ادت الى ظهور مراكز حضرية لاترتبط بالتصنيع ، ذلك ان التحضر فى كثير من المجتمعات الجديدة يسبق التصنيع . فقد ظهرت المراكز الحضرية فى قطر قبل التصنيع بفترة كبيرة . فحوالى ثلثى السكان يتمركزون فى العاصمة « الدوحة » وليست الدوحة هى المركز الصناعى . فالمراكز الصناعية هى اما فى مسيعيد أو دخان اللتان لانجد فيهما ارتفاعا فى معدل التحضر . فالنمو الحضرى فى قطر جاء فى نمو مراكز حضارية وادارية وتجارية .

فقد كانت قطر فى اوائل الخمسينات مركزة فى مدينة الصغيرة « الدوحة » تطل على الخليج العربى ذات طابع المدينة الصحراوية . والبيوت مبنية من الطين ، مكونة من طابق واحد ، الشوارع ضيقة غير مرصوفة . حدودها « مشيرب » أما الاحياء فكانت صغيرة مكتظة بالسكان ، وبها سوق رئيسى صغير يعرض فيه البدو اغنامهم وجلودهم للبيع بالاضافة الى سوق مسقوف صغير يطلق عليه « سوق واقف » تباع فيه الاقمشة وبعض الاشياء الضرورية ، وبقربه تتناثر مستودعات الاخشاب والتمور «العمارات». ويوجد فى كل حى مسجد وتبنى المساجد والبيوت من الطين واللبن وتطلى بالجص « الكلسى » .

ونتيجة للنمو الاقتصادى تحولت الدوحة الى مدينة حضرية ، لها خصائص خصائص المدن ولم يوضع مخطط خاص بتوسيع مدينة الدوحة وانما تم ذلك بداية تدفق النفط آليا . لكن الدولة سعت الى تعبيد الطرق واستصلاح الاراضى المحيطة بها وربطها بالمدن والقرى المجاورة بشبكة مواصلات ومن جهة أخرى جعلتها المركز التجارى وانشئت فيها الادارات والوزارات والمرافق العامة .

وتابع ذلك ظهور مدن صناعية فى كل من مسيعيد ودخان تكاد تمتاز بنفس خصائص المدن الصناعية الاخرى ، من وجود عمال دون اسرهم ،

ومساكن خاصة للعمال مع مرافقها ٠

يمكن القول أن مدى النمو الحضرى يؤدى الى ظهور مشكلات كمشكلة التضخم الحضرى التى تتمثل فى ان المدن لاتمتلك الاساس الاقتصادى الذى يضمن لسكانها الحضريين مستوى معيشة لائق فهذا غير وارد بالنسبة للمجتمع القطرى لان لديه من الامكانيات الاقتصادية التى تجعله قادر على مواجهة التضخم الحضرى ونتائجه كظهور الاحياء المتخلفة والنقص فى الخدمات الحضرية وسوء استغلال الارض وارتفاع معدلات الكثافة السكانية وقلة الخدمات التعليمية والترويحية ٠

٢ ـ التنمية والأسرة :

يبدو أن هناك اتفاقا بين علماء الاجتماع على أن التنمية تؤثر تأثيرا مباشرا على بناء الأسرة ووظائفها ٠ فالنمو الاقتصادى والتغير الاجتماعى والثقافى أدى الى تغيرات بارزة فى الاسرة القطرية ٠ ونستطيع أن نتبين ملامحه فى تغير بناء الأسرة حيث تتجه الاسرة الى النمط النووى بدلا من نمط الاسرة الممتدة ، ويترتب على ذلك تغيرات فى أدوار الافراد فيها ٠ نتيجة للتغير الايكولوجى وانتقال البدو الى الحضر الذى ارتبط بالتطور الاقتصادى فانتقال المجتمع من مجتمع « رعوى » يعتمد على الصيد والقنص والرعى الى مجتمع شبه صناعى له موارد اقتصادية ثابتة وكثيرة ومتنوعة أعطت الفرد استقلاله فأصبحت له وظيفة معينة ترتب عليها مركز ودور جديدان ، وأدت النزعة الفردية الى زيادة دخله ، وزيادة متطلباته وكذلك تطلعاته ، فما أثر على اتجاهاته وميوله أصبح يمارس مهنة تختلف عن تلك التى كان يمارسها فى المجتمع التقليدى والتى تعتمد على « العمل الجمعى » ومن ثم أصبح انتماؤه الى جماعة العمل أقوى من انتمائه للقبيلة والعشيرة ٠ وحتى يحقق الاستقلال الذاتى رأس أسرة وأصبح مسئولا عن جماعة صغيرة مكونة من زوجته وأبنائه له اقتصاد مستقل ومسكن قد يبعد عن مكان اقامة عائلته الاصلى فالعوامل الاقتصادية غيرت من بناء الاسرة ٠

ويتبين من دراسة أجريت على الاسرة القطرية عام ١٩٧٥ انه ٥ر٥٤٪ من العينة تسكن بمفردها بينما ٥ر٤٥٪ مع عائلتها ٠ ونجد أن ٣٧٪ من تلك

الاسر تعيش فى نفس المنطقة الجغرافية للعائلة الممتدة ، والباقى يعيش فى مناطق أخرى(١٤) • وترتب على ذلك تغير فى أدوار أفراد الاسرة القطرية ، فأصبح الاب هو « رب الاسرة » وترتب عليه التزامات جديدة تجاه أسرته وتجاه مجتمعه سواء كانت مادية أو أدبية ، مما أدى الى زيادة الضغوط النفسية والاجتماعية عليه لانه يفكر دائما فى مستقبل أبنائه وعليه يجب أن يحافظ على مركزه وان يكون له طموح بدرجة تسمح له بتغيير مركزه الى الافضل وفق ما يسمح به مجتمعه • كما طرأ تغير على دور الزوجة الذى ترتب عليه تغير فى مكانة المرأة التى كانت لا تزيد عن « أنثى » مهمتها الانجاب وادارة شئون المنزل ورعاية الاطفال وهى النظرة التقليدية التى توارثها المجتمع بحكم أفكاره ونسق قيمة وبنائه الاجتماعي والاقتصادى التقليدى ، فتغير دور الزوجة فى الاسرة النووية تغيرا ملحوظا فهى الآن « ربة البيت » وتقوم بجميع الامور المنزلية وتقوم بتربية الاطفال وتنشئتهم الاجتماعية ويدل على ذلك أن ٨٠٪ من الامهات اليوم يقمن بمعاقبة الابناء اذا أخطأوا(١٥) وقد كان ذلك فى الاسرة الممتدة من اختصاص الجدات والعمات وليس الامهات ، كما أصبحت العلاقة بين الزوجين ذات طابع اقتصادى فهو يأتى بالدخل وتقوم الزوجة بالاشراف على صرفه وتوزيعه على بنود ، فهذا التعاون الاقتصادى جعل الصلة بين الزوجين وثيقة تقوم على الاحترام والثقة •

ويرجع تغير دور المرأة نتيجة لافساح مجال التعليم أمامها والذى ستظهر آثاره بصورة أوضح فى المستقبل ، فالتعليم يطيل من فترة طفولة الابناء وبالتالى يتأخر سن الزواج وستصبح الفتاة أكثر نضجا عندما تتزوج ، فتتغير نظرتها الى الحياة الاسرية وتكون أقدر على المسئولية الاسرية ، كما سيترتب على نزول المرأة الى ميدان العمل ان تكون مستقلة وتابعة فى نفس الوقت ، وستتغير مكانتها فى المجتمع •

كذلك ضعف دور الاجيال الاكبر (متمثلا فى الاجداد والجدات والاعمام والعمات والاخول والخالات) فى تربية النشىء • لاستقلال الاسرة النووية عن الاسرة الممتدة فى المكان أولا والاقتصاد ثانيا • فأصبح اشراف الاجيال الاكبر ضعيفا ، وأصبحت عملية التنشئة الاجتماعية فى الاسرة النووية من اختصاص الاجيال الاصغر متمثلة فى الابوين الذى جعلا منها أكثر مرونة وأكثر استجابة للتغيرات • الذى أدى بدوره الى تغير فى أدوار الابناء فالتنشئة

الحديثة مع قليل من الحرية تؤدى الى اثبات الشخصية والذات الفردية فالتفاهم والنقاش الحر هو الذى يربط بين الآباء والابناء ، كما ان التعليم أتاح للفرد أن يحدد مهنته التى لن تكون كمهنة ابائه وراثية أما رعى أو صيد بزى وبحرى وتجارة بالاضافة الى أنه تكون لديهم فرصة أكبر للاختيار للزواج بحيث لن يكون الزواج قرابيا دائما يحدده العرف والتقاليد ٠

ومن آثار التنمية الاقتصادية والاجتماعية على الاسرة الآثار السلبية كالتفكك الاسرى ، فانتشار الاسرة النووية يرجع الى سيطرة النزعة الفردية التى انعكست على كثير من المظاهر كالملكية والقانون والافكار الاجتماعية العامة المتعلقة بسعادة الفرد ورضائه ، ولا نجد مثل هذا الاساس الواضح فى الحالات التى تتعقد فيها الحقوق والالتزامات كما هو الحال فى الاسرة الممتدة ٠ ففقدان الوظائف الاقتصادية زاد من معدلات الطلاق ٠ وقد لا يكون هذا واضحا فى المجتمع القطرى لانه مجتمع اسلامى يجد فى العقيدة الاسلامية الرابط الرئيسى الذى يحمى الاسرة من التفكك والانهيار فى معظم الحالات ولا توجد لدينا بيانات منشورة عن معدلات الطلاق فى المجتمع القطرى ٠

ومع ذلك كله فان التنمية الاجتماعية والاقتصادية أثرت على الاسرة وغيرت فى بعض المؤشرات مثل زيادة الحرية فى اختيار القرين وضعفت دور الكبار فى عقد صفقات الزواج وارتفاع سن الزوجان بالنسبة للفتيان والفتيات، وانخفاض معدل الزواج القرابى وتعدد الزوجات وانخفاض معدلات الخصوبة وزيادة معدلات الطلاق ٠

والخلاصة أن هذه المؤشرات اذا ربطناها بالسياق التاريخى للمجتمع القطرى وبالبناء الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لوجدنا أن التحديث ما هو الا طريق نحو التقدم ويستلزم تغيرات نوعية وكمية فى الفكر والسلوك، يتطلب نوعا فى التغيير الفكرى الاجتماعى والاقتصادى والنفسى بمبادرة الافراد أنفسهم الى جعل التغير ضرورة وغاية مع تحمل تبعات ومسئوليات تحقيق التغيير المنشود ويتم ذلك عند تطويع وسائل التنظيم والتغيير من تربية واعلام وغيرها وتكريسها لخدمة المجتمع ٠ وهنا نؤكد أن المجتمع القطرى هو جزء من المجتمع الخليجي الذى هو جزء من وطن أكبر هو الوطن العربى وعلى ذلك لا يمكن تجزئته عن الكل طالما أن هناك أسسا اجتماعية وتاريخية تؤدى الى التكامل فى الخليج العربى(١٦) ٠

المراجع والمصـادر

١ ـ عبد الباسط محمد حسن (الدكتور)
التنمية الاجتماعية ، مكتبة وهبة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص
ص ٩٢٦ ـ ٣٢٦ ٠

٢ ـ السيد محمد الحسيني وزملاؤه (الدكتور)
دراسات في التنمية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤
ص ٥٤ ٠

٣ ـ وزارة التربية والتعليم ورعاية الشباب
التقرير السنوى ٧٢/١٩٧٣ م ، دولة قطر ، ٣٧ ٠

٤ ـ وزارة التربية والتعليم ورعاية الشباب
تطور التعليم فى دولة قطر خلال عامى ٧٥/٧٦ ، ٧٦/٧٧
تقرير مقدم الى الدورة ٣٦ لمؤتمر التربية الدولى ، أغسطس
١٩٧٧ ، جنيف سويسرا ٠

٥ ـ Oil Industry in Qatar , 1976 , published by Ministry of Finance And Petroleum , State of Qatar .

٦ ـ Manpower Assessment and Planning - Qatar, Project Findings And Recommendations - United Nations Development Programme , International Labour Organization , Geneva , 1976 , pp . 10 - 11 .

٧ ـ محمد غانم الرميحى (الدكتور)
رأس المال البشرى طريق التنمية فى الخليج ، بحث منشور ـ
جامعة الكويت ١٩٧٥ ، منسوخ على الآلة الكاتبة ، ص ٢٥ ٠

C.A. Sinclair and V . S Briks , International Migration in The Middle East with specil Reference to the Four Arab Gulf States of Kwait, Bahrain, Qatar and the United Arab Emirates , The Third Lnternational Symposium - University of Basra, 1979 .

٩ـ Unesco Statistical Year book , 1971 , p . 830 .

١٠ـ المرجع السابق ص ٨٥٢ ٠

١١ـ محمود عوده (الدكتور)
أساليب الاتصال الجماهيرى والتغيير الاجتماعى ، دراسة ميدانية فى قرية مصرية ، دار المعارف مصر ، ١٩٧١ ، صص ٤٥٩ ـ ٤٦٧ ٠

١٢ـ تقييم التطور الصناعى فى الدول العربية ، دراسة أولية ، مؤتمر التنمية الصناعية الرابع للدول العربية ، بغداد ، الجمهورية العراقية، من ١٢ ـ ١٩ ديسمبر ١٩٧٦ ص ١٤ ٠

١٣ـ المرجع السابق ، ص ١٥ ٠

١٤ـ جهينة سلطان العيسى ،
الالتقاء الحضارى وأثره فى تغير بناء الاسرة القطرية ، رسالة ماجستير ـ غير منشورة ـ كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، يوليو ١٩٧٥ ، ص ٣٢٤ ٠

١٥ـ المرجع السابق ، ص ٣٤٨ ٠

١٦ـ محمد غانم الرميحى (الدكتور)
الأسس التاريخية والاجتماعية للتكامل الاقتصادى فىالخليج العربى ، مجلة الفكر العربى ، العدد الثالث ، ١٥ أغسطس ـ ١٥ سبتمبر ١٩٧٨ ـ السنة الاولى ، صص ١١٩ ـ ٢١٠ ٠

البحر الأحمر
طريقا للدعوة الإسلامية

د. عبد الشافي غنيم
أستاذ ورئيس قسم التاريخ والمكتبات

لم يكن البحر الأحمر فى أى عصر من عصور التاريخ ، يحول بين الشعوب الآسيوية المتاخمة للساحل الشرقى منه ، وبين الشعوب الافريقية المتاخمة لساحله الغربى ، من الاتصال والاختلاط والاندماج ، بل والتأثير الانثربولوجي والعقيدى والتجارى ، ولذلك كان التفاعل واضحا على مر العصور فى كلا الجانبين • وقصة البحر الأحمر ، بين هاتين المنطقتين ، تجعل منه ـ على عكس ما يتصور الكثيرون ـ وسيلة اتصال سهلة وميسرة ، منذ عرف الانسان كيف يتنقل على سطح الماء ، ويصنع القوارب والمراكب والسفن • وأبرز ظاهرة تاريخية فى ذلك الاتصال ، غلبة تأثير الشعوب الآسيوية ـ وبوجه أدق ـ شعوب شبه الجزيرة العربية على الشعوب الافريقية ـ وبصفة خاصة ـ بلاد الصومال ، والحبشة ، والسودان ، ومصر ، فى التركيبات الجنسية ، والرسلات السماوية ، والتأثيرات التجارية والاقتصادية •

ولقد أجمع مؤرخو العرب ، وعدد غير قليل من المؤرخين والمستشرقين وعلماء الانثربولوجيا ، أن الموطن الاول للساميين هو بلاد العرب ، وعلى وجه أدق شرق وجنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، اعتمادا على أسس كتابية ، واركيولوجية ، وتاريخية ، وفيلولوجية ، وأن التأثير الحامي والسامي انتقل من شبه الجزيرة ، عبر بوغاز باب المندب ، الى القارة الافريقية ، وذلك ماتؤكده

الانسيكلوبديا البريطانية بقولها(١) : « ان التقارب فى المميزات الجنسية بين اليمنيين ، والاحباش أمر طبيعى ، لان الاحباش ليسوا الا خليطا من العناصر اليمنية بالاجناس الاخرى ، ولم تكن الحبشة بلدا منفصلا ، ولكن كان سكانها من مهاجرى العرب ، وذلك يفسر لنا السبب فى أن المؤرخين الاقدمين ، لم ينظروا الى اليمن والحبشة على أنهما قطرين منفصلين ، ولكن قسمين لقطر واحد أطلقوا عليه « اثيوبيا »(٢) « Ethiopia »

والحقيقة التاريخية التى يجمع عليها كثير من المؤرخين ، وفى مقدمتهم دى غوية (De Goege) وونكلر (Winchler) ونولدكه (Noldeche) وصمويل لانج (Samuel Laing) وروجر (Rogers) أن قسما كبيرا من الساميين عبر البحر الأحمر ، في طريقه الى الحبشة ، والصومال ، وشمال السودان ، ومصر ، وشمالى افريقية ، وان ذلك الوجود السلالى القديم ، كان احد العوامل الاساسية فى نشر الاسلام بعد ذلك فى ربوع هذه البلاد •

أما عن العلاقات التجارية ، وتأثيرها عبر البحر بين الجانبين الشرقى والغربى ، ان صح هذا التعبير ـ فيتضح لنا ذلك من الدور الكبير ، الذى كان يلعبه هذا البحر فى التجارة العالمية ، فى التاريخين القديم والوسيط ، ومازال يلعبه فى التاريخ الحديث والمعاصر ، بل لعل طريق الشرق الاقصى عبر الخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، كان أبرز هذه الطرق ، ويكفى أن نذكر العلاقات التجارية التى كانت تربط بين موانى سيراف وقيس والبصرة والابله ، وهرمز وموانى معدر وعدن وعدوليس• وجدة وينبع والقلزم والسويس والطور وعيذاب وابلة وبولاق وغيرها ، لتوضح الى أى حد كان الاتصال متاحا بين شرقى البحر وغربه •

أما عن الرسالات السماوية فمن الواضح أن البحر الأحمر كان واحدا من بين القناطر التى عبرتها هذه العقائد الروحية العالمية •

---

(١) **Encyclopaedia Britt.**, VOI . XXIV . p.618 .

(٢) لفظ اثيوبيا اسم قديم جاء ذكره فى كثير من الكتابات الاغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة ومعناها الاغريقى (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض المراجع القديمة وفى مقدمتها العهد القديم على ملك النوبة وامتد اطلاقها على سكان القارة الافريقية جنوب الصحراء وأعالى النيل •

ويذكر المؤرخان الرندورف (Vellendorff)(٣) وترمنجهـــــام (Trimingham)(٤) انه على الرغم من أن هناك بعض المقاطع المتناثرة في العهد القديم (Old Testament) تشير الى أن اليهود الذين استقروا في مصر واصل بعضهم مسيرته الى بلاد كوش والنوبة سنة ٥٨١ ق٠م الا أن الارجح أن بعض هؤلاء الذين تسربوا الى هذه البلاد والى بلاد الحبشة كان قليلا، لان الوثائق التاريخية المتعددة عن دخول الدين اليهودى ، الى جزيرة العرب قبل الميلاد ، واستقرارهم فى خيبر ويثرب ووادى القرى وفدك ، وغيرها ، هاجر كثير منهم مع بقية المهاجرين العرب قبل الميلاد الى الحبشة عبر البحر الأحمر ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات ولكنهم انضموا الى مواكب المهاجرين كأفراد ، ثم كونوا بعد وصولهم جالية مستقلة ، وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها ، بصورة مستقلة ، وقد أدى ذلك الى اعتناق بعض الاجناس للديانة اليهودية ، وفى نفس الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، بحثا عن الذهب ، وقد عزز ذلك استقرار الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة ٠

ولا بأس هنا من أن نتعرض لاحدى القصص الخرافية التى كان يروجها ملوك الاحباش لتثبيت عروشهم وترسيخ قداستهم ، فى أذهان مواطنيهم ، ونحن نتعرض لها هنا ، بسبب ارتباطها بعملية الاتصـــــال القديمة ، بين شعوب المنطقتين عبر البحر الأحمر ، ولذلك سنجتزىء منها ما يختص بهذا الجانب ، مستبعدين الجانب الآخر،لانه يتعارض مع أبسط القواعد الجغرافية، ويتنافى مع بعض الآيات القرآنية ٠ « يتداول الاحباش بتوجيه من ملوكهم قصة جمعها كتاب بعنوان وادى الملوك »(٥) وهو أحد كتبهم المقدسة أنـــــه نتيجة للاتصال الذى تم بين الملكة بلقيس مكلة سبأ(٢) وسليمان فى بيت المقدس ، أن أنجبا ولدا يدعى « منليك » الذى عين بعد ذلك كأول ملك لاسرة ملوك الاحباش ، وأنه سرق وهو فى طريقه الى الحبشة « تابوت العهد » من أبيه ، وحفظه فى عاصمته اكســـوم ، التى أطلق عليهـــا « أرض صـــهيون

---

(٣) The Ethiopians, p.50.

(٤) Islam in Ethiopia , p.19 .

(٥) Uiiendorff, The Ethiopians, pp . 143-144 .

الجديدة »(٦) •

أما عن دخول المسيحية الى الحبشة، فيتعرض لها ترمنجهام ، Trimingham بشيء من التفصيل قائلا : بدأت المسيحية تتسرب الى شرقي افريقيا ، وخاصة الحبشة ، على يد تجار المدن الشرقية للبحر المتوسط ، وفي مقدمتها مدينة صور ، وتذكر الروايات المسيحية ، أن الاحباش أسروا ركاب احدى سفن مدينة صور في احدى الموانى الحبشية على البحر الآحمر ، وكان من بينهم اثنان من القساوسة ، احدهما فرومنتيوس Fromentius ، والثـــاني اوديسيوس Odisius ، وأعجب ازانا Azana ملك الحبشة بالرجلين ، فقربهما اليه ، واستطاع هذان القسيسان أن يقنعا الملك الحبشي باعتناق المسيحية ، وسمح لهما بالدعوة لها ، فتعاونا مع التجار اليونانيين المقيمين هناك ، على بناء الكنائس ، واقامة الشعائر المســـيحية ، واخذوا يمهدون لانتشار ونمو المسيحية هناك ، ولم تمض فترة ، حتى كانت المسيحية هي الديانة الرسمية في الحبشة والبلاد المحيطة بها ، مما جعل كنسية الاسكندرية تعين المطارنة هناك لرئاسة الكنيسة الحبشية •

وفي عام ٥٢٤ م ، طلبت الامبراطورية البيزنطية ، من الاحباش ، حماية المسيحيين الذين يعيشون في جنوب الجزيرة العربية ، من ظلم الملك الحميرى اليهودى ذى نواس ، وصدع امبراطور الحبشة ايلا اصبحة Ela Asbeha بالامر ، وأرسل جيوشه بقيادة أرياط لغزو اليمن ، وانتهت الحرب بانتصار الاحباش ، وهزيمة ذى نواس وعين أبرهة ملكا على اليمن ، وقد سجلت أيام هذه الحقبة من تاريخ العلاقات بين الحبشة على سد مأرب(٧) •

الاسلام يعبر البحر الأحمر الى افريقيا :

لقد كانت الدعوة الاسلامية ، عبر البحر الأحمر الى افريقية ، من منابعها

---

(٦) يذكرون خطأ ان سبأ فى اقليم ارتريا وذلك يخالف الواقع الجغرافى والتاريخى وما ورد فى القرآن الكريم •

(٧) Trimingham, **Islam In Ethiopia**, pp . 38 - 39 .

الأصلية فى مكة ، أقصر طريقا وايسر منالا منها الى كثير من بلدان شبه الجزيرة العربية ، ومنها يثرب ، مدينة الهجرة ، فعندما اشتد الايذاء على السابقين الى الاسلام من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أذن لهم فى الهجرة الى الحبشة ، قائلا : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فأن بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه(٨) فكانت أول هجرة فى الاسلام سنة ٦١٥ م (السنة الخامسة بعد الدعوة)(٩) .

ويذكر النويرى(١٠) فى تعليل اختيار الرسول للحبشة دون غيرها من البلاد الكتابية أو الوثنية ، وفى تبرير وصفه لملك الحبشة انه ملك لا يظلم عنده أحد ، رواية عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، ان نجاشى الحبشة « أصحمه » كان أبوه ملكا على الحبشة ، وهو فتى صغير ، فنازعه عمه الملك ، واستولى عليه من أخيه ، وتشرد الصبى أصحمه حتى بيع الى رجل عربى من بنى ضمرة ، فمكث ببلاد العرب مدة تعرف فيها على عاداتهم ، ولهجاتهم ، ثم عاد الى الحبشة واستعاد ملك أبيه ومن هنا كان سر التعاطف ، بينه وبين العرب بوجه عام .

ومهما يكن من أمر ، فقد اثبت اختيار الرسول للحبشة ، أنه كان اختيارا سليما لان معظم المدن والقبائل العربية ، كانت حتى ذلك الوقت تقف موقف المكابر المعاند ، من الدعوة الاسلامية ، بالاضافة الى احتمال مجاملتها لقريش كبرى القبائل فى شبه الجزيرة العربية ، كما أن ايفادهم الى الحيرة أو الشام ، محفوف بالخطر ، لانها كانت أسواقا يتردد عليها العرب ، بين حين وآخر ، أما التفكير فى ارسالهم الى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب المعتنقين للديانات اليهودية والمسيحية فقد استبعد لشدة عدائهم للاسلام ، والخوف من منافسته لعقائدهم ، كما جاء فى قوله تعالى « ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل »(١١) .

---

(٨) ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٩) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢ .
(١٠) نهاية الارب فى فنون الادب جـ ٦ ص ٢٥٢ .
(١١) سورة آل عمران آية ٢٥ .

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن(١٢) ، أن الحبشة كانت أقرب البلاد المسيحية التي يحكمها ملك مسيحي الى الجزيرة العربية ، والسفر اليها أهون أمرا وأسلم عاقبة ، اذ لايزيد عن كونه عبورا للبحر الأحمر ، وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية ، شمالا وجنوبا ، من خلال القبائل العربية المعادية .

وليس من شك في أن أعداء الدعوة ، لم يخطر ببالهم أبدا ، أن يضحى السابقون الى الاسلام بوطنهم ، ومهد حياتهم ، وأن يذهبوا الى هذا البلد البعيد عن مواطنهم الاولى .

ويذكر أبو محمد عبدالملك بن هشام(١٣) عن زياد بن عبدالله البكائي عن محمد بن اسحق المطلبي ، أن عددا كبيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم ، ذهبوا في سفينتين تجاريتين ، لقاء نصف دينار عن كل واحد منهم ، ورست السفينتان عند مكان على الشاطيء اسمه « معدر » جنوبي ميناء « عدوليس » ، الميناء الاريتري القديم ، ومن هناك اتجهوا نحو « اكسوم » « الحبشة » ، وكان مجموع المهاجرين من المسلمين ، ـ سوى ابنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها بعد ذلك ـ ثلاثة وثمانين رجلا ، ويذكر ابن هشام عددا كبيرا من الاسر العربية المهاجرة في مقدمتهم من بني أمية عثمان بن عفان ابن ابي العاص ، وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو(١٤) ، ومن بني أسد الزبير ابن العوام بن خويلد ، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم ، ومن بني زهرة ، عبد الرحمن بن عوف ، ومن بني مخزوم ، أبو سلمة بن عبد الاسد وامرأته أم سلمة بنت أبي ابن المغيرة ، ومن بني جمح ، عثمان بن مظعون ، ومن بني عدى عامر بن ربيعة ، ومن بني هذيل ، عبدالله بن مسعود ، ومن بني بهراء ، المقداد بن الاسود ، ومن بني جمح ، شرحبيل بن

---

(١٢) تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٨٧ .

(١٣) سيرة النبي جـ ١ ص من ٣٤٣ ـ ٣٥٧ .

(١٤) رسول قريش الى محمد صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية بعد ذلك .

حسنة ، ومن بني الحرث ، أبو عبيدة بن الجراح ،وغيرهم كثيرون من مختلف القبائل • انما قصدنا بسرد بعض الاسماء والقبائل ، لنبين الى أى حد جمعت هذه الهجرة ، من القبائل العربية ، ومن الرجلات الذين لمعت أسماؤهم فى التاريخ الاسلامى ، منهم من اعتلى منصب الخلافة الصحابية كعثمان بن عفان، ومن رشح لها كعبد الرحمن بن عوف ، احد الستة الذين قدمهم عمر بن الخطاب قبل وفاته ومن كبار كتاب الوحى ، الذين تزعموا تدوين القرآن الكريم ، كعبد الله بن مسعود ، ومن كبار قادة الفتوحات الاسلامية ، كالمقداد بن الاسود ، وشرحبيل ابن حسنة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، القائد العام لفتوحات الشام والزبير بن العوام •

وليس من شك فى أن هذه الموجة الاولى ، فى فجر الدعوة الاسلامية ـ سواء منها ما عاد الى الوطن الام فى صحبة رسول الله ، ومن بقى منهم على هذه الارض ـ الجديدة الوفيرة الخير والمعطيات ـ قد بشروا بالديانة الاسلامية بين أهالى هذه البلاد ، خاصة بعد ذلك الحوار الذى دار أمام الجميع ، فى حضرة النجاشى « أصمحة »(١٥) بين رسل قريش عبدالله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص(١٦) ، وبين جعفر بن أبى طالب أحد قادة المهاجرين ، وفى حضور بطارقة الكنسية الحبشية ، وأراد عمرو بن العاص ، وهو المعروف بذكائه وكيده ، أن يشكك الملك ورجال الكنيسة فى موقف الاسلام من المسيح عليه السلام ، وتصور عمرو أنه بذلك سوف يسوق المهاجرين أمامه ثانية الى مكة ، ولكن جعفر بن أبى طالب، قال لهم « انما نقول فى عيسى عليه السلام ما يقوله نبينا عليه الصلاة والسلام فى ذلك ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول »(١٧) ، ثم قرأ جعفر شيئا مما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، حتى بعث الله رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء

---

(١٥) ابن هشام : جـ ١ ص ٣٠٢ •

(١٦) ابن هشام : جـ ١ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ •

(١٧) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٨ •

الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا(١٨) الخ ٠

ولسنا هنا بصدد الروايات المختلفة ، التى تتحدث عن أبعاد هـــذه الهجرة وأهدافها ، أهي هجرة أم اثنتان أم ثلاثا أم أربعا ، وأى هذه الهجرات هى التى حملت خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى(١٩) انما الذى يهمنا فى هذا المقام ، ونحن نتحدث عن « البحر الاحمر ، طريقا للدعوة الاسلامية » ، انها حقيقة تاريخية ، وانها كانت أول بداية اسلامية على طريق الدعوة ، اما عن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ، الذى يعرض عليه فيه اعتناق الاسلام ، وهو أول دعوة اسلامية صريحة من امام الدعوة الى ملك الحبشة عبر البحر الاحمر(٢٠) ٠ لقد جاء فى ذلك الخطاب الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم مع عمرو بن أمية الضمرى ٠ « من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة ، انى أحمد اليك الله الملـــك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملته من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ، وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وانى ادعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدى » ٠

ويذكر البعض أن السبب فى اختيار عمرو بن امية الضمرى ، لحمل كتاب الرسول الى النجاشى دون رجال من أمثال عثمان بن عفان وجعفر بن أبى طالب وأبى عبيده بن الجراح ، أن بنى ضمره هم الذين استضافوا أصحمه ، فى هجرته وفق القصة التى سبق أن تناولناها بالحديث ، ومهما يكن من أمر فالذى يمكن أن نستنتجه من ذلك كله :

---

(١٨) للاستزادة من هذا الموضوع يمكن الرجوع الى د٠ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ٠ د ٠ عبد السلام هارون : تهذيب السيرة ٠

(١٩) تذكر بعض المراجع انه كان هناك اتصالان كتابيان بين الرسول والملك اولهما مع اصحمة والثانى مع ابنه ارمحة ٠

(٢٠) Budge, AHistory of Ethiopia, p.198 .

اولا : أن هذه الهجرة الاولى الى الحبشة ، لم تكن مجرد استجابة لظروف محلية ، تعرض فيها المسلمون للاضطهاد والايذاء ، وانما كانت الى جانب ذلك حركة دعوة الى الاسلام فى هذه البلاد الوثيقة الصلة ببلاد العرب منذ أقدم العصور •

ثانيا : ان اختيار هذه البلاد ، غربى البحر الاحمر ، فى هذا الوقت من فجر الدعوة الاسلامية ، انما يدل على أنها ربما كانت من أقرب البلاد طريقا الى مهبط الدعوة الاسلامية ، وأن البحر الاحمر ربما كان أسهل على المسافر من قطع الطرق الصحراوية القاحلة المعرضة للاخطار •

ثالثا : أن توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم الى المهاجرين الاوائل من أصحابه وكتابه ، الى أى من (أصحمه أو أرمحه) انما يدل على توقعات مرضية ومطمئنة من جانب النجاشى ، والا لما غامر الرسول بهجرة هذا النفر الكبير من صحابته فى رفقة أزواجهم وأبنائهم •

رابعا : انه ربما يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارسل الى النجاشى كتابين ، أحدهما فى عهد « أصمحة » مع جعفر بن أبى طالب ، والثانى فى عهد « أرمحة » مع عمرو بن أمية الضمرى ، وفى ذلك محاولة لحصر الخلاف بين المؤرخين حول هذا الخطاب ، من جانب الرسول (حامل الخطاب) والمرسل اليه ، وهو الملك حيث أن بعض المصادر ترد ، حامل الخطاب الى جعفر والمحول اليه الى اصمحة ، وأخرى ترد حامل الرسالة الى الضمرى ، والمحمولة اليه الى والده أرمحة •

خامسا : أن فكرة الدعوة الى نشر الاسلام ، بدأت من فجر البعثةالنبوية، وكان محمد صلى الله عليه وسلم ، أول مبشر بها ، وداعية اليها ، داخلوخارج شبه الجزيرة العربية • وكان المسلمون الاولون والمتأخرون ، يعتبرون نشر الدعوة واعلام الناس بها ، ركنا من أركان العقيدة ، لا يختص بها واحد ، دون آخر ، ولعل ذلك هو سر انتشار الدعوة فى مختلف انحاء الارض ، وذلك ماسوف نتعرض له بشىء من التفصيل فى نهاية هذا البحث الموجز •

تطور انتشار الدعوة الاسلامية عبر البحر الأحمر :

لقد كانت هذه الهجرة المبكرة ، عبر البحر الاحمر الى أفريقية الشرقية ، بداية لانتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، وربما كان هذا البحر المعبرالسلمى الكبير ، الذى عبرت منه الدعوة ، دون ماحاجة الى الجيوش والاساطيل كما حدث فى عمليات الفتح الاسلامى الواسعة ، التى أتاحت للمسلمين فرص الاعلام عن الدين الجديد ·

والعرب بطبعهم ، ميالون الى الهجرة ، حيث يكون الاستقرار ، سواء كان داخل الجزيرة العربية ، أو خارجها ، ميالون الى لم الشمل ، واستقطاب الاهل والجيرة والعشيرة ، فما يكادون يستقرون فى مكان ، يكفل لهم الحياة الهانئة ، ومطالب المعيشة المستقرة ، حتى يبعثون فى طلب فروعهم ، وأبناء مجتمعهم ، ولم شمل قبائلهم ، ولعل فى هذه الأبيات الشعرية التى أنشدها عبدالله بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد أحد المهاجرين الذين استقروا فى الحبشة ما يوضح لنا هذه المعانى :

ياراكبا بلغا عنى مغلغلة(٢١)   من كان يرجو بلاغ اللـــه والدين
كل امرىء من عبادالله مضطهد   ببطن مكة مقهور ومفتـــون(٢٢)
انا وجدنا بلاد الله واســعة   تنجى من الذل والمخزاة والهــون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزى فى الممـــات وعيـــب غـير مأمــون

وهنا قد يثور تساؤل ، عن الأسباب التى جعلت المسلمين يغضـــون أبصارهم عن غزو الساحل الشرقى لافريقية ، فى فورة الفتوحات الاسلامية ، كما فعلوا بالنسبة للعراق والشام ، ومصر وشمالى أفريقية ، ولعلنا نجد الاجابة على هذا التساؤل فيما يلى :

اولا : على الرغم من العلاقات التجارية التقليدية بين الجانبين ، الا أن

---

(٢١) الرسالة ترسل من بلد الى بلد ·
(٢٢) المغلوب على أمره ·

معرفة المسلمين بشرق أفريقية قبل ظهور الاسلام ، لم يكن يتعدى المناطق الساحلية ، بالاضافة الى أن استخدام السفن والأساطيل الحربية ، لم يظهر بشكله المؤثر الا بعد قيام المسلمين بفتوحاتهم الأخرى ٠

ثانيا : يذكر صاحب السيرة الحلبية(٢٣) ان علاقات المسلمين بالنجاشي، في فجر الاسلام ، كان لها أثر في تجنب الصدام العسكرى بين الجانبين ، حتى أنه يروى ان النبى صلى الله عليه وسلم نصح بترك الاحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان ، وقال « اتركوا الاحباش ماتركوكم » ، ونحن نعلم أن أول محاولة لغزو الشام كانت استجابة من أبى بكر الصديق ، لرغبة من الرسول فى انفاذ أسامة بن زيد ٠

ثالثا : انتشار القراصنة الأفارقة فى البحر الأحمر ، فى هذه العصور مما كان يهدد أية محاولة فى هذا السبيل ٠

ولذلك فانه لما اشتدت أعمال القرصنة فى عهد عمر بن الخطاب ، وأخذت تهدد تجارة العرب فى البحر الاحمر ، أوفد حملة بحرية لتأديبهم ، واستمر نشاط القرصنة هناك الى درجة اضطرت المسلمين فى عام ٨٣هـ ، الى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات ، بأن جردت حملة بحرية ، فى عهد الخليفة الأموى ، عبد الملك بن مروان ، احتلت مجموع جزر « دهلك » المجاورة لمدينة مصوع مما أتاح للمسلمين بعد ذلك فرص السيطرة ، على باقى المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى ، وعلى الانتشـــار التدريجى للاسلام فى الشرق الافريقى(٢٤) ٠

ومهما يكن من أمر ، فانه الى جانب الهجرات المستمرة لبعض القبائل العربية ، عبر البحر الأحمر لشرق أفريقية ، التى أخذت تنضم تدريجيا الى فروعها التى سبقتها الى هذه البلاد ، فان الظروف السياسية ، التى مرت بالدولة الاسلامية ، والصراعات الحزبية والطائفية ، جعلت من البحر الاحمر ،

---

(٢٣) الجزء الثالث ص ٢٩٤ ٠

(٢٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ص ٦٠ ٠

معبرا للمهاجرين والفارين والمخاطرين الى شرق أفريقية ، وخاصة بعد الفتنة الكبرى ، وعقب الصراع بين على ومعاوية ، والخلافات والنزاعات القبلية بين القيسية والكلبية ، ومصارع كبار العلويين ، وفى مقدمتهم الحسين بن على ، وزيد بن على زين العابدين ، وولده يحيى ، الى غير ذلك من الاحداث السياسية، التى فتحت أعين أصحاب هذه المذاهب والطوائف على البحر الأحمر ، والحياة فى مناطق ارتريا والصومال والحبشة وشمال السودان ، حيث لا توجد الولايات والامارات التابعة للأمويين ، أو العباسيين ، الذين كانوا لا يتركون أعداؤهم يستقرون فى أية دولة ، أو امارة ، تخضع لحكمهم وكان للعلويين وعلى الاخص الزيديين نصيب كبير فى هذا المجال الآمن الفسيح ، حيث الشعوب الافريقية ، أقرب الى الفطرة ، وأيسر فى الاقتناع بالمذاهب والآراء المختلفة ، وتطور الامر ــ كما سنرى ــ الى تكوين امارات ، وممالك ، وسلطنات اسلامية فى هذه البلاد ، وضعت من الجذور الاسلامية مازال باقيا وممتدا الى الآن .

اذا أضفنا الى هذه الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التى ساعدت على نشر الاسلام فى أفريقية الشرقية ، عنصر النشاط التجارى العربى ، الذى كان سابقا حتى على ظهور الاسلام ، أدركنا الى أى حد لعب التجار المسلمون الذين عبروا البحر الأحمر ، دورا فى نشر الاسلام ، نتيجة احتكاكهم بالعناصر المختلفة من المسيحيين والوثنيين ، وتجولهم فى المناطق المختلفة ، سعيا وراء التجارة ، ومصادر الرزق ، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الاسلام ، الذى انتشر على أيديهم اينما تغلغلوا فى أفريقية ، وكان مايتصفون به من حسن المعاملة والصدق ، أثر كبير فى كسب الاحترام والثقة ، وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام انتشارا منقطع النظير(٢٥) وليس من شك فى أنه كان هناك من العوامل ما ساعد المسلمين ، على نشر دعوتهم فى أفريقية ، نخص بالذكر منها ما يلى :

أولا : ان ظهور الاسلام ، كان مواكبا لقمة الخلافات فى داخل الكنيسة المسيحية ، وخاصة بين الكنيستين الشرقية والغربية ، حول طبيعة السيد

---

(٢٥) فتحى غيث الاسلام والحبشة عبر التاريخ ص ٦٩ .

المسيح ، والجدل حول المينوفيزية والايقونية وقد ترك ذلك أثره على المسيحيين فى مختلف أنحاء العالم ، وتحول المسيحيون لزعزعة ايمانهم نتيجة للجدل المستمر والمجمعات المسكونية المتعاقبة ويرى بعض فلاسفة الفكر ، أن ظهور الاسلام فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى ، كان ضرورة اقتضتها الارادة الالهية ، لمجابهة هذه الخلافات ، ووجد الناس فى تسامحه وبساطته ، ملجأ من هذه المجادلات ، التى لا تنتهى ولا تعرف اللين والتسامح •

ثانيا : ان الدعوة الى الاسلام ، كانت على بساطتها جهدا ذاتيا شخصيا، لا يستند الى مؤسسات تبشيرية تمدها بالقوة والمال كما هو معهود فى السياسات التبشيرية الكنسية ، واذا كانت العصور الاخيرة ، قد شاهدت بعض الجامعات الاسلامية ، التى أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الاسلامية وتثبيتها ، الا أنها لم تبلغ فى تأثيرها ما وصل اليه هؤلاء الأشخاص الاوائل والذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجارى أو الدينى •

ثالثا : اضطراب الاحوال الداخلية آنذاك ، فى شرقى أفريقية ، وكثرة الحروب بين ملك اكسوم وجيرانه ، بل واتباعه من حكام المناطق ، بالاضافة الى ضعف سلطان الكنيسة هناك ، والخلاف المستمر بين السلطتين الزمنية والدينية ، وخلو منصب المطرانية فى كثير من الأوقات ، بسبب الظروف التى كانت تمر بها كنيسة بيزنطة فى ذلك الوقت ، مما ساعد على تغلغل الاسلام وتسلله الى قلوب الافراد والجماعات •

رابعا : أن الاسلام كان يواجه فى شرق أفريقية هيكلين ضعيفين ، ما بين المسيحية والوثنية ، والأولى كما سبق أن ذكرنا كانت تمر بفترة التمزق ، من تاريخها ، بينما كانت الوثنية لا تلبث أن تتداعى أمام قوة الديانة الجديدة وجاذبيتها وبساطتها وشمولها على كل ما يحيط بحاجة الانسان ، ولذلك كانت الاستجابة لاركانه وتعاليمه مشجعة للمسلمين على المضى فى طريقهم(٢٦) •

ويذكر السيد توماس آرنولد(٢٧) أن أحد الكتب العربية التى تعرضت

---

(٢٦) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن) ص ٨٨ ، ٨٩

(٢٧) الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين) ص ٢٨٦ — ٢٨٧ •

لانتشار الاسلام فى شرق أفريقية ، كتاب وجده البرتغاليون فى مدينة كلوا(٢٨) ، Kiloa حين اجتاحها دون فرنسيسكو دالميدا ، Don Francisco d'Almeida سنة ١٥٠٥م(٢٩) يتحدث ذلك المصدر عن « ان جماعة من العرب ، تم نفيهم الى افريقية ، بسبب تعاليمهم الخارجة على الدين ، وكان هؤلاء يتبعون شخصا يدعى زيدا من سلالة النبى وقد اطلق على هذه المجموعة المنفية من المسلمين «اموزيديج»(٣٠) ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ويظهر أن هذه الجماعة ، عاشت فى خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج ، فى بسط مواطنها على طول الساحل ، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطىء الغربى للخليج العربى من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين ، وجاء هؤلاء فى سفن ثلاث بزعامة سبعة اخوة هاربين من اضطهاد ملك «لاساه»(٣١) وهى مدينة قريبة من موطن قبيلتهم وأول مدينة قام المسلمون ببنائها هى « مجدكسو »(٣٢) التى ارتفعت فيمابعد الى تلك القوة التى جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ، ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم « الاموزيديج » ، من حزب يختلف عن حزب النازحين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة ، والآخرون من أهل السنة ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكـــام مقديشيو ، وارتدوا الى الداخل ، حيث اندمجوا فى السكان الاصليين ، وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم » ٠

هذا النص ، يؤكد ماذهبنا اليه من تأثر وانتشار الاسلام فى شرقى أفريقية عبر البحر الأحمر ، بالوحدات السياسية التى حدثت فى الدولة الاسلامية ، ذلك أن مالقيه زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنه ، على يد يوسف بن عمر أمير الـــكوفة فى عهد الخليفـــة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) (٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) وكيف

---

(٢٨) تقع على جزيرة جنوبى زنجبار ٠

(٢٩) الم يذكر توماس آرنولد اسم هذا المصدر العربى ٠

(٣٠) لعله يقصد أمة زيد بن على العابدين بن الحسين ٠

(٣١) لعله يقصد « الحساء » ٠

(٣٢) لعله يقصد مقديشيو عاصمة الصومال ٠

تم مصرعه ، والتنكيل بجثته ، قد أدى هرب اتباعه من الزيديين ، الى جنوب وجنوب غربى وشرق شبه الجزيرة العربية ولكن عيون الخليفة الأموى ، وكان من أشد الامويين تنكيلا بالعلويين(٣٣) جعلت هؤلاء الزيدين يخشون على أنفسهم من دعوة الامويين فعبروا البحر الأحمر واتجهوا نحو الاقليم المعروف بالصومال حاليا فى شرقى أفريقية ، وأسسوا مدينة مقديشيو ، واختلطوا بالافارقة ، وأسهموا بدور كبير فى نشر الدين الاسلامى بوجه عام ، وآراء الزيدية العلوية بشكل خاص .

ثم توالت بعد ذلـــك أفواج المسلمين ، عبر البحر الأحمر الى شرقى أفريقية ، ولم يقتصر الأمر على الشيعة الزيدية ، وكان فوج الحسا من أهل السنة ، الذين فروا هاربين من اضطهاد أمير الاحساء ، ووصلوا الى الصومال ، قد وصلوا فى أثر الزيدية وعاشوا بالقرب منهم ، وبعد ذلك وصل فوج آخر ، يتزعمه أحد أبناء سلاطين شيراز ، ويدعى حسن ، من أم حبشية الأصل ، أبحروا من جزيرة هرمز ، بزوجاتهم وأولادهم ، متجاوزين عن الاقاليم التى سكنها من قبلهم من المسلمين ، واتجهوا جنوبا صوب ساحل زنجبار ، وكانوا قد تسامعوا بوجود مناجم الذهب هناك ، وأسسوا مدينة « كلوا » وعاشوا فى شبه امارة مستقلة عن اخوانهم من الشيعة والسنة فى الصومال(٣٤) .

ولم يمض وقت طويل ، حتى ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى ، لافريقية من خليج عدن ، حتى مدار الجدى ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج ، وتوجد قصة نقلها توماس آرنولد نقلا عن المستشرق الالمـــانى دى باروز De Barros والمستشرق الانجليزى كلود جورج Claude George (٣٥) تقول القصة « ان سفينة تجارية عربية أقصتها الرياح ، عن طريق مسارها

---

(٣٣) تم فى عهده ايضا مصرع يحيى بن زيد فى خراسان ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) وصلبه واحراقه وذر رماده (انظر كتاب فرق الشيعة لابى الحسن النوبختى ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٣٤) الدعوة الى الاسلام ص ٢٨٧ .

(٣٥) Islam and Missions, pp . 73 ? 74 .

١٩٢٢ ، وأرسلتها الى بلاد الزنج ، ولما كان البحارة العرب يتصورون من بين الزنج بعض أكلة لحوم البشر ، فقد توقعوا الموت المحقق هناك ، غير أنه حدث مالم يكونوا يتوقعونه ، حيث تلقاهم ملك الزنج ، وأحسن وفادتهم ، وأتاح لهم فرصة بيع تجارتهم فى بلاده غير أن التجار العرب ردوا عليه كرمه بخيانة ، فأوثقوه مع حاشيته أثناء توديعه لهم يوم سفرهم ، وحملوهم الى عمان رقيقا ، وبعد سنوات قليلة ، جنحت بهم سفينتهم الى نفس الشاطىء، وعرفهم الاهالى وأسروهم ، وسيقوا أسرى الى الملك ، وكم كانت دهشتهم حين وجدوا نفس الملك الذى سبق لهم أن أخذوه أسيرا الى بلادهم ، غير أن الملك لم يعاملهم بمثل ماعاملوه به ، وسمح لهم بترويج بضاعتهم ولكنه رفض هديتهم ، وقص عليهم كيف أنه هرب من مولاه الذى التحق بخدمته فى عمان ، وكيف اعتنق الاسلام ، وعاد الى شعبه ، ينشر بينهم أركان هذا الدين ، من صلاة وصيام وحج وحلال وحرام ، وأعلن لهم أنه عفا عنهم لأنهم كانوا السبب فى اعتناقه لدين الاسلام ، وأنه يرحب بكل مسلم يهاجر الى بلاده ٠

ومهما يكن من أمر فان الاسلام اخذ ينتشر على السواحل الشرقية لافريقية من عمان وشرقى الجزيرة العربية ، ويذكر المستشرق « جوزيف طومسون »(٣٦) أنه على الرغم من الاتصال التجارى والاجتماعى والبشرى بين شعب نصف متحضر فى مسقط ، وبين شعوب السواحل الشرقية الافريقية ، لعدة قرون متوالية ، الا ان ذلك لم يترك فى الاخوين أثرا للصفات الراقية التى كان يتصف بها جيرانهم ولم تنبت بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين ٠

ومن الحالات الجديرة بالذكر أن عددا كبيرا من تجار العرب ، عبروا البحر الأحمر فى طريقهم الى أوغندة ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، واستطاعوا أن يقنعوهم باعتناق الاسلام ، حتى اسلم عدد كبير من الاوغنديين فى عهد ملكهم موتزا Mutesa ، واقنعوهم بتحريم الاسلام لتجارة الرقيق ، غير أن المحاولات التبشيرية المسيحية ، التى حدثت فى هذه

---

(٣٦) Mohammedanism In Central Africa, p . 877 .

البلاد ، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أدت الى صراع كبير بين العقيدتين ، واستطاعت الارساليات المسيحية الكنيسية المدعمة بالمال والرجال ان ترد كثيرا من اسلمين الى النصرانية(٣٧) ٠

وهنا يجب أن نذكر حقيقة هامة ، هى أن المسيحية وحدها باسلوبها التبشيرى المنظم ، لم تكن العائق الوحيد أمام استمرار انتشار الاسلام ، فى افريقية ، ولكن بعض تجار الرقيق المســــلمين ، لم يكن من مصلحتهم الاستمرار فى نشر الدعوة الاسلامية ، لوجود التناقض الواضح بين العقيدة ، العظيمة ، السمحة وبين تجارة الرقيق ٠

غير أنه الى جانب بعض العوامل السلبية التى جابهت نشر العقيدة الاسلامية من السواحل الشرقية ، الى داخل القارة ، الا أنه كانت هناك عوامل ايجابية ، اسهمت فى نشر الاسلام ، ليس فقط فى وسط القارة ، وانما الى كثير من شعوب افريقية الاستوائية ، والغربية والجنوبية وتتلخص هذه العوامل فيما يلى :

أولا : ان البحر الأحمر لم يكن المعبر الوحيد للعقيدة الاسلامية فى افريقية ، ولكن هناك الصلات المباشرة بين شرقى الجزيرة العربية ، وعلى الأخص عمان ومسقط ، وبين الساحل الشرقى الجنوبى لافريقية ، بالاضافة الى المعبر الاساسى من منطقة الهلال الخصيب ، الى مصر وشمالى افريقية ، متوازيا مع حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى ٠

ثانيا : على الرغم من التنافس الواضح بين حركة التبشير المسيحية فى افريقية ، وبين حركة الدعوة الاسلامية التلقائية الذاتية ، الا أن ارتباط حركة الاسترقاق الكبرى بالاستعمار الاجنبى المسيحى ، رجحت كفة ميزان اعتناق العقيدة الاسلامية على غيرها من المسيحية والوثنية ٠

ثالثا : عمق الوجودين السامى والحامى فى القارة ـ وهما كما اثبتت الحقائق العلمية فرعان للأصول المنبتية فى شرق وجنوب غرب شبه الجزيرة

---

(٣٧) Roscoe, The Baganda, p.229 .

العربية ـ جعل العقيدة الاسلامية أكثر تقبلا من غيرها ، بالاضافة الى بساطة الاسلام ، واتجاه أركانه مباشرة الى عقل وفكر وعاطفة الانسان الافريقى •

رابعا : انشاء السكك الحديدية والطرق البرية فى عمق القارة ، من شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، ساعد بطريق غير مباشر على حرية الحركة بالنسبة للدعوة الاسلامية ، خصوصا على يد التجار العرب ، الذين كانوا لايفرقون بين واجباتهم العقيدية وواجباتهم التجارية •

خامسا : لم يكن أمام المستعمر الاجنبى للقارة ، مفرا الا استخدام المسلمين المتعلمين والمثقفين فى مختلف مرافق ومؤسسات هذه المستعمرات ، وفى ذلك يقول المستشرق الالمانى بكر Becker (٣٨) انه لم يكن أمام حكومة افريقية الشرقية الألمانية الا اسناد آلاف الوظائف الى موظفين من المسلمين كما كان معلمو مدارس الدولة ، من المسلمين مما أدى الى دخول مدن وقرى بأكملها فى الاسلام •

ويضيف هذا المستشرق الألمانى ، قوله : انه قد لوحظ ان المعلمين المسلمين ، من السواحلية فى مدارس المستعمرة الألمـــانية ، كانوا يقومون بنشاط واضح وناجح فى نشر الدعوة الاسلامية بين أهالى بندى Bondei وديجو Digo فى افريقية الشرقية الألمانية ، وان هذا النشاط أصبح يسترعى النظر فى مستهل القرن العشرين ، وقد سايرت حركة التوسع فى نشر الدعوة الاسلامية ، انشاء السكك الحديدية ، والطرق التجاريـــة الكبيرة ، فانتشرت فى خط مستقيم عبر افريقية الشمالية الألمانية ، حتى حدودها الغربية ، على بحيرة تنجانيقا ، وانتشرت نحو الشمال من اوسبرا Usambara الى مقاطعة كلمنجارو ، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا ، وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار والجنود وموظفى الحكومة المسلمين •

وكان الوثنيون فى افريقية يعتبرون اعتناق الاسلام مظهرا من مظاهر

---

(٣٨) Islam in Deutch-Ostafrica, p.10 .

الحضارة ، ودليلا على الترقى ، بل ان المستعمرين رغم كراهيتهم للاسلام الا أن مصالحهم الاستعمارية كانت تقتضى هذا التغيير ، ويقال ان الازدراء الذى كان ينظر به المسيحيون الى الوثنيين كـــان عـاملا حـاسما فى تحولهم الى الاسلام(٣٩) .

ويذكر السير توماس آرنولد(٤٠) ، ان نشر الاسلام بين الجبال ، كان أقل نشاطا منه فى السهول والوديان ، ويذكر سنشى Antonio Cecchi الذى زار مملكة رلمو Ralmo فى شرقى افريقية قصة اســـــلام أباباغيبو Abba Baghibo والد أمير هذه المملكة ، على أيدى ملسمين ظلوا لسنوات عديدة ينشرون الدعوة الاسلامية فى زى التجار ، وقد حذا حذوه أمراء الممالك المجاورة ، ورجال حاشيتهم ، حتى اعتنقت معظم قبائل الجلا الاسلام ، وكان أهلها ينتظرون بفارغ الصبر ، مواسم وصول التجار المسلمين، الى بلادهم ، ليس لمجرد التبادل التجارى ، وانمــــا للاستزادة من تعاليم الاسلام ، ولما شعرت الكنيسة ، بخطورة الوضع فى ، هذه القبائل ، وسرعة انتشار الاسلام بين قبائلها أرسلت اليهم بعثة تبشيرية منظمة يقودهـــــا الكاردينال ماساجا Cardinal Massaja ولكن المحاولـة باءت بالفشـــل ، لدرجة أن القلة القليلة التى ظلت على وثنيتها آثرت عدم الاعتراف بالمسيح وبالله معا(٤١) .

ومما يدل على سرعة انتشار الاسلام بين شعوب افريقية الشرقية عبر البحر الاحمر ، ما يذكره ابن حوقل الجغرافى الرحالة العربى المشهور ، عن أن أهالى زيلع كانوا يدينون بالمسيحية ، فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى(٤٢) ، ولما زار أبو الفدا(٤٣) نفس المنطقة بعده وجدهم جميعـــــا

---

(٣٩) Klamroth, Der Islam In Deutchotafrica,pp . 21 - 25 .

(٤٠) الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٩٢ .

(٤١) الدعوة الى الاسلام ص ٢٩٣ نقلا عن
Massaja, Da Zella Alle Frontiere dei Caffa, VOI.II,160 .

(٤٢) ابن حوقل ص ٤١ .

(٤٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

مسلمين • ويؤكد أبو الفدا ، الدور الكبير الذى قام به التجار المسلمون عبر البحر الأحمر ، فى نشر العقيدة ، واستمرارية هذا النشر بدوافع ذاتية ، نابعة من عمق الايمان عند هؤلاء •

ويقول المستشرق جيوم(٤٤) انه فى القرن الخامس عشر ، هـــاجر من حضرموت جماعة من العرب المسلمين ، من أربعة وأربعين ، للدعوة الى الاسلام عبر البحر الأحمر الى شرقى افريقية ، وكان يؤم هذه الجماعة الشيخ ابراهيم أبو زرباى ، الذى أخذ طريقه الى مدينة هرر حوالى سنة ١٤٣٠ ، وتمكن بمعاونة اخوانه ، تحويل عدد كبير من الافارقة الى الاسلام ، ولا يزال قبره الى الآن ، موضع تبجيل واكرام فى هرر ، وهناك بالقرب من مدينة بربرة جبل الأولياء الذى لا يزال يخلد ذكرى هؤلاء الأولياء الصالحين ، الذين يقال انهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة مقدسة ، قبل أن ينتشروا فى طول البلاد وعرضها لتحويل الناس الى الاسلام ، وقد ساد الاسلام شيئا فشيئا فى جميع أنحاء افريقية الشمالية الشرقية » •

ولكى نستكمل الحديث عن دور البحر الأحمر ، كطريق لنشر الدعوة الاسلامية فى افريقية ، يبقى أن نشير الى هذه الحقيقة ، وهى أن الدين الاسلامى شق طريقة الى أقصى جنوب القارة فى مستعمرة الكاب ، وفى ذلك يذكر تايل Theal (٤٥) ان مسلمى الكاب هم من سلالة أهالى الملايو الذين جاءوا الى هذه البقعة اما فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر وكانوا يتكلمون لغة محرفة من لغة البربر فى اطار اللغة العربية ، وبعض كلمات انجليزية من لغة الملايو ، وكان هناك كتاب صغير عجيب مؤلف بهذه اللهجة ، ومكتوب بحروف عربية ، وقد نشره وزير المعارف التركية فى القسطنطينية ســـنة ١٨٧٧ ليستعمل ككتيب صغير لتعليم قواعد الدين الاسلامى ، ولعل من أطرف ما يذكره هذا المستشرق عن هؤلاء المسلمين ، كـانوا خليطـــا من العرب

---

(٤٤) Documents sur l'Histoire, La Geograhie et Ie commerce de l' Afrigue Orientale, Recueilles, p . 399 .

(٤٥) History and Ethnoqraphy of Africa South of zambesi , VOI . II , p . 263 .

المسلمين ، والملاويين الذين أسلموا على يد التجار المسلمين الدائمي التجوال في جنوب شرقي آسـيا ، بل وبعض الهولنديين المستعمرين الذين أقنعهم المسلمون باعتناق الاسلام ، وارتبط الجميع بفكرة الدعوة له في جنوبي افريقية .

وفي سنة ١٨١٩ لفت كوبورك ، الاذهان الى نمو الاسلام في بعض مذكرات ممتعة عن مستعمرة الكاب ، قال فيها « يقال ان الاسلام يتقدم بين العبيد والسود الاحرار من أهالي الكاب ، ونعني بذلك أن الذين تحولوا من الوثنية الى الاسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددا من الذين تحولوا من الوثنية الى المسيحية ، وهذا على الرغم من الجهود المضنية المنظمة التي تبذلها الارساليات التبشيرية الممولة من الكنيسـة المسيحية ، وكان الداعية المسلم يستطيع تحويل جموع أكبر من الافارقة الى الاسلام بمجهود أقل من مجهود المبشرين »(٤٦) .

وكعادة المسلمين حينما يستقرون في مكان ما ، تتوافد عليهم جموع الأهل والأقارب والتجار في حماسة منقطعة النظير ، ومايكاد يلتئم الشمل حتى يبدأ الجميع في بناء المساجد والمدارس التي لعبت دورا كبيرا في نشر الديانة الاسلامية ، ونمو المدارك التقائية بين الأفارقة(٤٧) .

وقد ركز المسلمون جهودا نشطة في الجزء الغربي من مستعمرة الكاب وانشأوا ما يشبه الجامعة الاسلامية في كلير مونت Claremont بجوار مدينة الكاب وجعلوا منها مركزا لنشر الدعوة الاسلامية وكان من بين نشاطاتهم في نشر الاسلام تبني الاطفال الشاردين أو المهملين ، وتنشئتهم على الديانة الاسلامية ، بالاضافة الى تدبير قوافل الحج في كل عام الى مكة المكرمـة ، وزيارة مدينة الرسول ، لترسيخ قواعد الدين الاسلامي ، في قلوب المسلمين الجدد ، ومازالت هذه عادة الشعوب التي اعتنقت الاسلام في كل مكان على

---

(٤٦) Colebrooke , The Life of Colebrooke , p.335 .

(٤٧) William Adams, The Modern Voyager and Traveller , VOI . I , p . 93 .

ظهر الأرض ، حتى أصبح حجاج بيت الله من هذه الشعوب العربية الاسلامية، ويمكن أن نعزو هذا النجاح الى العوامل التالية ·

أولا : ان عملية التبشير المسيحية المنظمة الممولة كانت ترتبط فى أذهان الأفارقة بالعملية الاستعمارية ، مما يؤدى الى نفور الكثيرين منها بالاضافة الى عملية التعميد التى لم يكن يتقبلها الأفارقة بسهولة ، اذا قورنت بسهولـــة وسماحة ويسر اعتناقهم للاسلام ، حيث لم تكن تحتاج الى أكثر من النطق بالشهادتين وأداء الاركان الاسلامية المفروضة ·

ثانيا : ان عملية التجانس فى الشكل والمظهر والملبس بالاضافة الى تجانس البيئة ، والابتعاد عن التعالى ، الذى يحرمه الاسلام ، كانت تقرب كثيرا بين قلوب الأفارقة ، وقلوب الدعاة المسلمين ، لدرجة أن عملية التبشير التى اتبعتها الكنيسة والاستعمار بعد ذلك ارتبطت بالقس والاجبار ، ومع ذلك لم يكتب لها النجاح · ان زيارة الأفارقة الى الاراضى المقدسة الاســـلامية ، كانت أشبه بعملية التأصيل التطبيقى ، للدعوة الاسلامية ، النظريـــــة ، بالاضافة الى التجانس الطبيعى ، والاقليمى والحياتى الذى لم يكن يفرق بين الميدانيين الا عبور البحر الأحمر ·

ولعل ذلك هو سر العمق الكفاحى الذى تخوضه كثير من الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار والعنصرية فى افريقية حيث انه يحمل فى طياته جذور الخلاف الفكرى والثقافى والعقيدى وهو ما نشاهده فى اريتريــــا والصومال وجنوب غرب القارة الافريقية ·

وعلى الرغم من بعد جزيرة مدغشقر عن الساحل الافريقى الشرقى بما يقرب من ٢٢٠ ميلا الا أن قبيلة انتيمورونا Antaimorona أكبر قبائلها قد تحولت الى الاسلام ويذكر المستشرق فريناد الفرنسى(٤٨) ان ذلك التحول الى الاسلام جاء مبكرا لدرجة أنه ينسبه الى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام شأنها فى ذلك شأن اريتريا والحبشة ·

---

(٤٨) Les Muse Imans a Madagascar, p.19 .

الممالك والامارات الاسلامية التى تكونت شرق أفريقية :

لم يقتصر نشاط المسلمين على مجرد نشر الدعوة الاسلامية فى مختلف مناطق افريقية الشرقية وانما نتيجة للنجاح الذى أحرزه التجار والدعاة المسلمون فى هذه البلاد وبسبب الهجرات العربية المتتالية عبر البحر الأحمر بمقدماتها وعمليات الزواج والمصاهرة التى تمت بين العرب المسلمين وشعوب هذه البلاد وخاصة قبائل البجة التى كانت تمتد من جنوب مصر (النوبة) وشمال السودان وتتاثر حول ساحل البحر الأحمر مكونة الحزام الارترى حول اكسوم (الحبشة) بدأت تتكون امارات وممالك اسلامية بعيدة كل البعد عن مظاهر التدخل السياسى للدولة الاسلامية من دمشق أو بغداد ٠

ومن أهم هذه الامارات الاسلامية مارة شوا الاسلامية وامارة أوفات وذوارد وأرابينى وهادية وشرخا وبالى ودارة بالاضافة الى بعض الامارات والسلطنات الاسلامية فى الحبشة والصومال وجنوبى افريقية ٠

ويلاحظ أننا هنا نركز على المراكز والانشطة الاسلامية التى اتخذت طريقها عبر البحر الأحمر دون التعرض لغيرها من الامارات والقوى الاسلامية سواء فى شمالى افريقية ، ومصر وغرب ووسط افريقية حيث أن هذه الافرازات والكيانات الاسلامية جاءت نتيجة معابر اسلامية أخرى وذلك لايعنى أنه كان هناك نوع من الانفصال البشرى بين هذه الكيانات وانما كان التنقل والهجرة مستمرين بين الامارات والولايات الاسلامية المختلفة خاصة وقد كانت قبائل البجة تمثل همزة وصل كبرى بين مسلمى الحبشة والسودان ومصر وجنوب افريقية ٠

امارة شوا الاسلامية :

بمرور الزمن ومنذ وفد المسلمون الأوائل الى الحبشة عبر البحر الأحمر واستمرارا لعملية التدفق العربى على المناطق الشرقية لافريقية سواء للاستقرار أو التجارة أو الدعوة للديانة الاسلامية وعلى مر القرون اندمج المسلمون فى القبائل الافريقية وتمكنوا عن طريق التفوق الثقافى والتجارى والتنظيمى والعقيدى أن ينشئوا ممالك وسلطنات جديدة بدأت صغيرة ثم

اخذت فى النمو والاتساع ٠

ويذكر مؤلف كتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ »(٤٩) ان تفصيلا واضحا لهذه الممالك والسطات الاسلامية جاء في وثيقة عربية هامة توصل اليها المستشرق الايطالى شيرولى Cerulli وقد أثبتت هذه الوثيقة عددا من الامارات الاسلامية على الهضاب الداخلية والسواحل الغربية للبحر الأحمر فى مقدمتها امارة شوا الاسلامية نسبة الى اقليم شوا المشهور فى هضبة الحبشة وان سلاطين هذه الامارة كانوا من بنى مخزوم التى ينتمى اليها القائد الاسلامي الكبير خالد بن الوليد وان نشأة هذه الدولة يعود الى سنة ٨٩٦ م أى بعد ثلاثة قرون وربع من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد هاجر المخزوميون في العصر الأموى واتغلغلوا داخل الهضبة الحبشية وأنشأوا لهم امارة اسلامية فى ذلك الاقليم وكان موقعها من أمنع المعاقل فوق مرتفعات الحبشة حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية ٠

ولا يوجد بهذه الوثيقة ما يميط اللثام عن كيفية نشأة هذه الامـــارة الاسلامية ولا تاريخ عهودها الاول ولكنها تفصل السنوات الاخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال تنخر فيها نتيجة التمزق والخلافات التى قامت بين مشايخها والاضطرابات والصراعات الداخلية واسماء الفرق المتصارعـــــة وزعمائها(٥٠) ٠

وبسبب بعد هذه الامارة عن عيون المؤرخين المركزين على أحداث الدولة الاسلامية فى المشرق والمغرب وبسبب عزلتها ومناعتها حتى فى داخل الهضبة الحبشية نفسها ظلت فى معزل عن العالم لان منطقتها خصبة معتدلة الجو توجد بها كل متطلبات الحياة واشتغل أهلها بالزراعة والرعى اللذين كانا يسدان كل احتياجاتهم ٠

امارة ايفات الاسلامية :

تذكرها بعض المصادر ايفاد Ifat والاخرى تذكرها أوقـــات

---

(٤٩) فتحى غيث : ص ٨٣ ومابعدها ٠

(٥٠) Trimingham, Islam In Ethiopia, p . 58 .

والبعض يسميها جبره وهي امارة عربية اسلامية ظهرت في الوقت الذى كانت تتهاوى فيه ، امارة شوا نتيجة الخلافات والصراعات بين مشايخها وكان رجال هذه الامارة يراقبون عن كثب ما يحدث داخل الامارة السابقة وما وصل اليه أهلها من ضعف وتحلل وانتهزت الفرصة وجردت على امارة شوا أربع حملات انتهت باستيلاء عرب ايفات على شوا وكانت عاصمة هذه الامارة مدينة زيلع وتكونت من الامارتين امارة كبيرة مليئة بالمساجد والمدارس كما كان لها جيش تكون من خمسة وعشرين ألف من الجنود نصفهم من الخيالة والنصف الآخر من الرحالة(٥١) وقد بلغ من قوة امارة ايفات أن أميرها كان ينقاد له معظم الامارات الأخرى ماعدا هادية وان كان الجميع يخضعون لامبراطور الحبشة حتى انه كما تقول بعض المصادر وفي مقدمتها صبح الاعشى ومسالك الابصار وكانوا لا يتولون امارتهم الا بعد موافقته ومشورته(٥٢) ٠

مملكة هادية الاسلامية :

وكانت تقع جنوب ايفات وعلى الرغم من ضيق مساحتها اذا ما قورنت بايفات الا أن صاحبها كان أكثر أمراء الامارات الاسلامية مالا ورجالا وكان جيش هادية أضعاف جيش ايفات حيث تذكر المصادر أنه كان يتكون من أربعين ألف من الفرسان وضعفهم من الخيالة ٠

وقد اطلق المؤرخون المسلمون على هذه الممالك الاســـلامية الطراز الاسلامى لانها كانت تشكل على شاطىء البحر الأحمر طرازا اسلامية تتوسطه مدينة زيلع الكبيرة التى كانت عامرة بالجوامع والمساجد وتقام بها خطب الجمع والجماعات ٠

---

(٥١) Ullendorff, The Ethiopians, p . 36 .

(٥٢) صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ ٠

مدن الخليج
تطورها ومشكلاتها المعاصرة

د. محمد رياض
أستاذ بقسم الجغرافية

(١) اطار العلاقات المكانية فى نشأة مدن الخليج ٠
(٢) مواقع المدن والتجمعات الحضرية على ساحل الخليج ٠
(٣) النمو العمرانى المعاصر ومشكلاته : المدينة الدولـــة ـ مشكلات النمو السريع ـ ضغوط التغير الحضارى والنمو العمرانى ٠
(٤) خطة المدينة الخليجية ومورفولوجيتها المعاصرة ٠

(١)

اطار العلاقات المكانية فى نشأة مدن الخليج

تختلف مدن الخليج الحديثة فى كثير من واقعها الاقتصادى والسكانى، وبدرجة أقل ، فى مركباتها الاجتماعية السياسية ، عما كانت عليه تنظيمات المدن التى كانت سائدة فى الماضى ، لكن شيئا واحدا لم يعتره كثير من التغيير : الواقع المكانى •

فى الماضى كانت المدن الخليجية فى اشكالها ووظائفها ومورفولوجيتها تعبيرا عن تلاؤم الناس وانسجامهم مع معطيات المحيط الطبيعى وتكنولوجية الانشطة الاقتصادية السائدة • وكانت تراكيب وبنية المجتمع فى مدن الساحل انعكاسا صادقا للتقسيم العام للناس فى اقليم الخليج وظهيره العربى الى ثلاث مجموعات متميزة : (أ) مدن وقرى الساحل (ب) بدو الظهير الداخلى (ج) سكان الواحات الداخلية •

وقد كان البدو يمثلون العنصر الدينامى الحركة فى المكان الشاسع بين عنصرين ثابتين يمثلهما السكن المستقر فى مدن وقرى الساحل من ناحية وقرى ومدن الواحات من الناحية الاخرى • كانت حركة البدو بين الارتحال المنتظم موسميا أو الهجرة الدائمة ، تمتد لتشمل كل الظهير من جبال عمان حتى سهول الجزيرة العراقية ، ومن نجد حتى الساحل • وترتب على هذا انتشار وتبعثر بطون القبائل وعشائرها فى أماكن متباعدة هى فى الغالب ليست مترابطة مكانيا • فقد كان لبعض القبائل عشائر مبعثرة فى مثل المسافة بين عمان والامارات وقطر ، أو فيما بين جنوب نجد وقطر أو فيما بين الكويت وقطر • مثال ذلك بنى هاجر والنعيم وبنى ياس وتميم والعتوب وبنى خالد •

وفي أحيان كثيرة يؤدى التباعد المكـاني الى انفصـــال البطون عن العشائر ، وبقائها بصفة دائمة وشبه دائمة في أماكنها المبعثرة وحيث قد يحدث اندماج أو انضواء داخل مجموعات أخرى • وفي حالات أخرى قد يؤدى جذب منطقة مزدهرة وفقر موطن سابق الى استقرار للبدو دائم أو شبه دائم •

وأيا كان السبب ، فان التدافع المكاني للبدو في كل منطقة الخليج قد ادى الى بلورة موقف تجاه كل الاقليم على انه وطن واحد يحدث فيه تهجين وتآلف أو تشاحن على مناطقه الحيوية ، وترتب على ذلك تكوين أسس تقارب عام يقلل من التراكيب الذاتية المؤسسة على الروابط الدموية الضيقة الافق •

وعلى هذا فان دينامية الحركة عند البدو ـ بصورة عامة ـ كانت تؤدى الى محاولة ايجاد ائتلاف مكاني على مستوى ظهير الخليج • ولهذا السبب لم تكن الفواصل حادة بين عالمي البادية والسكن المستقر على الساحل أو في واحات الداخل • بل كان هناك تداخل مستمر يرتكز أساسا على روابط اقتصادية بحكم علاقة المكان ، فوق روابط القرابـــة واالنسب • ويمكن ان نلخص أهم اشكال التفاعل بين المدن الساحلية والظهير الداخلي على انها كانت تشمل ثلاثة جوانب متداخلة ، هي : (أ) الجانب السكاني ، (ب) الجانب السياسي ، (ج) الجانب الاقتصادي •

وحيث ان سكان مدن الساحل لم ينشأوا من لاشيء ، فان اصولهم ترجع ـ لضرورة علاقات المكان ـ الى تجمعات النسكان في منطقة العالم العربي الحضاري عامة ، والى سكان شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ، وقد ادت علاقات البدو بالساحل الى تغذية مستمرة للمدن باعداد جديدة من الناس الذين ينتمون الى ذات التركيب الحضاري • وهو ما أدى الى استمرار الصيغة العربية وتقوية الوشائج مع داخل شبه الجزيرة • اذ أن سكان مدن الساحل ـ بحكم موقعهم على هامش شبه الجزيرة ـ معرضون لتأثيرات تحدث دائما في مناطق الحدود الحضارية لاى اقليم حضاري في العالم •

أما الجانب السياسي فكان يتخذ غالبا صورة تحالفات موقوته أو ذات استمرار نسبي بين ارباب المدن وبدو الظهير ، تأمينا لطرق التجارة ، وتأمينا لسلام وأمن المدن من جانب البر ، وكثيرا ما كانت تتغير الاوضاع السياسية في الساحل نتيجة استخدام قوة البدو التكتيكية من جانب مشيخة ضد

أخرى • واخيرا فان الجوانب الاقتصادية كانت تشتمل على نوعين من العلاقات المتكاملة موسميا • ففي موسم كان يمكن لبعض البدو العمل في اساطيل اللؤلؤ التي يملكها سكان المدن • وفي مواسم أخرى يقوم البدو بنقل فائض الانتاج الزراعي من الواحات الى مدن الساحل للاستهلاك أو التصدير ، وخاصة التمور ، وذلك في مقابل نقل السلع الحرفية والبضائع القادمة عبر بحار المحيط الهندي الى داخل شبه الجزيرة •

لكن هذه لم تكن كل علاقات السكان على ساحل الخليج • فهم بحكم المكان لهم علاقاتهم البحرية الواسعة عبر شاطيء الخليج وسواحل المحيط الهندي عامة والبحر العربي خاصة • وهم بحكم النشاط الاقتصادي لهم اهتمامات اساسية ببيئتهم الساحلية المباشرة • وترتب على هذين العاملين ان التجمعات العمرانية الخليجية اتخذت طابعا تميز بالتهجين الحضاري والسكاني في اطار التجمع الحضاري الاسلامي لشعوب كثيرة من السند وايران الى افريقيا وزنجبار • وبحكم القرب المكاني كانت العلاقة السكانية والاقتصادية شديدة الايجابية بين مدن ساحلي الخليج • ومع توسع العلاقة الى الشواطيء الافريقية والهندية جاءت مؤثرات أخرى حضارية وسكانية الى الخليج • هذه المؤثرات المختلفة التي استعربت تماما في المدن الخليجية ، اضافة الى ركيزة الاقتصاد البحري ، ادت الى نوع من المبالغة في القول بأن سكان مدن الساحل يولون وجوهم شطر البحر ويديرون ظهورهم للداخل • وبغض النظر عن المبالغة ، فانه من الحقائق التي لا تحتاج الى مناقشة ، ان توجيها بحريا تجاريا نشأ من زمن بعيد في منطقة الخليج • وان أقدار المدن كانت تقاس بقدر مساهمتها البحرية وجذبها للتجارة • ومن بين أمثلة كثيرة ازدهار تجارة مدينة دبي منذ أواخر القرن الماضي على حساب افول نجم التجارة في مدينة لنجة على الساحل الشرقي للخليج بسبب الحواجز الجمركية التي فرضتها السلطات الايرانية(١) ويظهر التوجيه البحري بوضوح من التركيز على عدد المراكب وانواعها كمقياس للقوة الاقتصادية لمدينة أو ازدهار عائلة أو عشيرة • وهو بذلك مقياس مساو لعدد الحيوان بالنسبة لعشائر الداخل وقبائله •

---

(١) لوريمر ، ج٠ ـ « دليل الخليج » القسم الجغرافي ـ الجزء الثاني ص ٥٨٣ ـ الطبعة الجديدة ـ الدوحة •

وتوضح القراءة التفصيلية لمصادر تاريخ الخليج اختلاف أهمية مدن الساحل الخليجي باختلاف ما تملكه كل من هذه المدن من انواع القوارب والسفن المخصصة اما للسماكة • واما للؤلؤ ، أو تلك المتخصصة في النقل التجارى على مستوى الخليج أو على مستوى اعالى البحار في اتجاه افريقيا والهند • ولا شك في ان ازدهار مدن معينة في الخليج كان يعتمد — من بين أشياء أخرى — على عدد ما تملكه من السفن الثقيلة الموظفة في نقل التجارة ، وذلك بالاضافة الى السفن المعدة للغوص على اللؤلؤ • ولم تكن شهرة البحرين مبنية على غير اساس، فقد كانت تملك١٣٠سفينة شحن وتجارة (بوم — بغلة — بقارة من بين انواع أخرى) ونحو ٨٥٠ سفينة لؤلؤ (بين سمبوك وبتيل وبقرة شوعى) فضلا عن ٧٠٠ من قوارب الصيد الخفيفة • وفى هذا الاسطول الكبير كان يعمل نحو ثمانية عشر ألف بحار(٢) •

(٢)

مواقع المدن والتجمعات الحضرية على ساحل الخليج

لاشك في ان الانسان حينما كان يختار مواقع لمستقراته السكنية ، مدنا كانت أم قرى ، انما كان يفعل ذلك مستجيبا لعدد من العوامل • بعض هذه العوامل مرتبط بعواطف الانتماء المكانى ، وهو مايمكن ان نعبر عنه بالعوامل النفسية والتاريخية • لكن غالبية العوامل تدور حول محور احتياجاته المادية البحته وعلى رأسها تأمين الغذاء والدفاع • وقد تتعارض العوامل الاقتصادية مع مقتضيات الدفاع • وعلى الانسان هنا ان يضع اختياره الامثل موضع التنفيذ • فمدينة مسقط — على سبيل المثال — تتميز بمواضع دفاعية ممتازة ، لكنها صعبة الاتصال بالداخل نتيجة التعقيدات التضاريسية العنيفة • ويفضلها بدون شك موضع مدينة مطرح على مبعدة يسيرة منها • لكن الافضلية العسكرية عقدت يسر النشاط الاقتصادى ، ومن ثم كان لابد للسلع من أن يعاد نقلها في سفن صغيرة من مطرح الى مسقط أو العكس ، حسب اتجاه السلعة(٣) •

---

(٢) المصدر السابق الجزء الاول ص ٣٠٧ •

(٣) المصدر السابق الجزء الرابع ص ١٤٨٨ •

على أى الحالات فان أنسب الاماكن لممارسة الانشطة الاقتصادية البحرية كانت أكثر وضوحا فى اختيار الانسان الخليجى لمواقع مدنه من الاماكن الدفاعية · وفى هذا المجال كانت هناك جاذبية شديدة للخلجان الواسعة أو الاخوار المتعمقة لاقامة المدن والقرى · وذلك لانها ملائمة للسماكة الشاطئية باشكالها المختلفة(٤) · أما السماكة المتخصصة فى انواع معينة مفضلة ، فلها قوارب الصيد المجهزة تجهيزا خاصا لكى تقوم برحلات طويلة نسبيا فى مواسم مختلفة ·

كذلك كان لمواقع المدن بالنسبة لمغاصات اللؤلؤ أهمية واضحة · ومن ثم كان لمدن الخليج على الشاطىء العربى أهمية أكبر من مدن الساحل الايرانى لتركز معظم المغاصات الغنية فى مناطق عديدة بين ساحل أبوظبى وقطر ، وبين قطر والبحرين حتى جنوب الكويت · ولكن بما ان سفن الغوص على اللؤلؤ كانت تعد لتبحر فى مواسم محددة ويجهز لها تجهيزا خاصا ، كما تنتقل اليها سفن التموين بين الحين والآخر حسب طول موسم الغوص ، فان الارتباط الوثيق بين مواقع المدن والمغاصات لم يكن فى مثل قوة الرابطة المكانية بين السماكة ـ الغذاء اليومى ـ وبين التجمعات الحضرية الساحلية ·

وايا كانت احتياجات الانسان الغذائية والدفاعية ، فانه كانت هناك مجموعة من الظروف الطبيعية التى وجهت الانسان الى اختيار مواقع معينة · وبالرغم من ان مجموعة العوامل الطبيعية متشابهة بصفة عامة فى الخليج ، من حيث شكل السطح السهلى والمناخ الجاف الحار ، الا أن التفصيلات الموضعية الدقيقة جعلت لعاملين من هذه العوامل الطبيعية أثرا واضحا فى اختيار افضل المواضع لاقامة المدن الساحلية · هذان العاملان هما : (أ) شكل الساحل بالارتباط بمورفولوجية النطاق الساحلى واتجاه الرياح السائدة ، (ب) مصادر مياه الشرب ·

•

وحيث ان معظم النطاق الساحلى الخليجى منخفض حديث التكوين ، وحيث ان غالبية هذا النطاق تقع تحت طائلة الرياح الجافة المحملة عادة

---

(٤) يستخدم الخليجيون انواعا كثيرة من الوسائل للسماكة الشاطئية نذكر منها الشباك والخيوط والجرجور (قرقور) وهى عبارة من شرائط معدنية فى صورة قبابية الشكل ، والحضرة (جمعها حضرات) وهى حواجز واسوار من البوص تثبت فى القاع القريب ، هذا فضلا عن القوارب الخفيفة بشباكها المختلفة ·

بالرمال والاتربة ، فان حدود البحر واليابس كانت ـ ومازالت ـ شديدة التداخل ، والفواصل بينهما ليست قاطعة الوضوح الا فى احوال قليلة . ويتخذ التداخل بين اليابس والماء اشكالا عدة ، وهى فى الوقت نفسه متراكمة مع بعضها فى الاغلب الاعم . فهناك الاخوار والسبخات فى جانب اليابس . وفى مواجهة اليابس توجد الحواجز الرملية فى صورة اشرطة جزرية طويلة لكيلو مترات ، أو فى صورة رواسب رملية طينية شريطية على غير عمق كبير من سطح البحر . وفوق هذا فان التكوينات المرجانية (حواجز أو سطوح) تساعد على تعقيد الموقف فى المنطقة الساحلية . وتساعد الرياح المحملة بالرمال والاتربة على تنمية الحواجز الرملية أو تقطيعها حسب قوة واستمرارية الرياح والامواج التى تسوقها أمامها . واخيرا فانه كان للمد والجزر أيضا أثر واضح بالنسبة لخط الساحل عامة ، ولنطاق رؤوس الاخوار وفتحاتها الخارجية بصفة خاصة .

وعلى هذه الخلفية المتداخلة اختار الانسان مواضع مدن تجمع بين الموقع الساحلى المحمى من البحر المفتوح ومن غارات الانسان القادم من الداخل . وفى الغالب كانت هذه المواضع اما السنة اليابس عند فتحات الاخوار ، أو أماكن محمية عند رؤوس الاخوار والخلجان . فالدخول الى الميناء أو الخروج منه يقتضى معرفة وثيقة باعماق المياه فى متاهات العقبات التى تكونها ضحولة المياه والممرات المتعددة بين العتبات الرملية والمرجانية . لهذا كانت معظم سفن الخليج من وحى الطبيعة الساحلية : خفيفة منبسطة القاع . وقد ساعدت هذه السفن الخفيفة السريعة على مقاومة السفن الحربية الاوروبية ، وعلى ظهور القرصنة والتهريب كعمل طارىء أو نشاط اضافى عند البعض فى الماضى والحاضر على التوالى . أما سفن الشحن والتجارة الثقيلة كالبوم والبقارة والبغلة (والتى يقال ان بها شبها تركيبيا بسفن الشراع الاوروبية التى ظهرت فى الخليج فى ق . ١٧) فغالبا ما كان ظهورها قاصرا على الموانى الجيدة المفتوحة كالكويت والمنامة ولنجة ودبى .

نظرة الى معظم مدن الخليج تؤكد هذا الموضع عند الاخوار والخلجان ، من الكويت حتى مسقط وان كانت الكويت والمنامة والدوحة والقطيف تقع على خلجان واسعة ، فان غالبية المدن الأخرى تقع على فتحات أو رؤوس اخوار ضيقة مثل دبى والشارقة ورأس الخيمة والخور . وبينما تقع أبوظبى على جزيرة تقع مسقط ومطرح على خلجان صغيرة .

أما مصادر مياه الشرب فقد كانت عاملا هامـــا فى تحديد موقع ملائم للعمران ، كما كانت كمية المياه عاملا محددا لحجم التجمع السكنى ـ وهو ما أدى الى اختلاف اقدار المدن فى أهميتها وحجمها • ويمكن ان نسوق أمثلة كثيرة على هذا • فالكمية المحدودة لمياه آبار « عذبة » فى شمال شرقى قطر ، والبعد النسبى ، كانا من اسباب صـــغر حجم العمران فى قريتى فويرط والغارية الساحليتين ، وثبات حجمهما ، بل وهجرة الناس عنهما (جزئيا فى الماضى وكليا فى الوقت الحاضر) عند ظهور زيادة ســـــكانية عن الميزان الايكولوجى ، أو ظهور عوامل جذب للسكان فى مناطق أخرى من قطر أو الخليج • وفى مطلع هذا القرن كان فى الدوحة وما حولها آبار « مشيرب » و « نعيجة » الوفيرة المياه مما سمح بنمو سكان الدوحة بينما كانت أبوظبى قرية صغيرة (ستة آلاف شخص يسكنون القليل من المبانى الحجرية والكثير من اكواخ الحصر) لأن أقرب مصدر للماء العذب آنذاك كان قرب دبى(٥) • وقد تأسست شهرة البحرين أو الكويت ونما نشاط كل منهما على وفرة واضحة فى المياه العذبة ، سواء كانت آبارا أو عيونا ساعدت على كثافة سكانية عالية وخاصة فى البحرين • ومما يقال فى هذا ان اسم البحرين منسوب الى مياه العيون التى تنفجر فى قاع البحر وتختلط بمياهه •

(٣)
النمو العمرانى المعاصر ومشكلاته

كل العوامل السابقة التى نشأت من خلالها وفى اطرها مدن الخليج فى الماضى لم يعد لها ذات الفعالية بالنسبة لمدن الخليج المعاصرة • فأسباب ودوافع النمو فى فترتنا المعاصرة ، مصحوبة بفعاليات التقنية العصرية ، قد قلصت أثر مجموعة العوامل الطبيعية والبشرية والاقتصادية سالفة الذكر الى مدى بعيد •

اولا : المدينة الدولة

لقد خرج الخليج من حالة تلاؤم أمثل مع معطيات ايكولوجية حيـــاة وصل اليها بعد تجارب طويلة لقرون كثيرة ، الى حالة من اعادة التكيف والتلاؤم

---

(٥) لوريمر ، ج : « دليل الخليج » القسم الجغرافى الجزء الثانى ص ٥٢٤ •

المرحلى مع معطيات جديدة ٠

اساس هذا التغير المعاصر سريع الايقاع هو الانقلاب الذى حدث فى جوهر الحياة الاقتصادية ٠ فمن اقتصاد اعالة معتمد على السماكة المحلية ، ومن تجارة محدودة السلع والقيمة تعتمد فى اساسها على الموجود من رصيد اللؤلؤ الطبيعى ، وعلى تبادل سلعى محدود بحجم الناس واعتياداتهم الغذائية واحتياجاتهم المادية ، ومن سوق مالية محدودة ، الى اقتصاد شديد الاعتماد على السوق الدولية ، قائم على تكنولوجية مستحدثة بالنسبة للمنطقة : صناعة البترول الاستخراجية ، (والى حد ما الصناعة التحويلية لبعض منتجات البترول) ، والى تغير هائل فى حجم السوق المالية الخليجية ، والى حجم سكانى متنام بنسب قل لها نظير عالمى على مستوى المكان والزمن ، والى تجارة استيراد متضاعفة القيمة والكم لاحتياجات غذائية ومنتجات مادية اصبحت - بحكم المناخ العام الاقتصادى والاجتماعى والمالى - سلعا استهلاكية بالضرورة(٦) ٠

لقد خرج الخليج عن اطار الماضى غير البعيد نتيجة لهذا التغير فى نوعية النشاط الاقتصادى ٠ فلم تعد خطوط السواحل ومورفولوجية المنطقة الساحلية عقبة أمام اختيار الانسان لمواقع مدنه ، ولم تعد كمية مياه الشرب سببا فى تحديد مواضع واحجام المدن ٠ وذلك بفضل امكانات العصر التى تساعد على شق الممرات الملاحية للسفن ذات الغاطس الكبير فى قاع البحر الضحل ، سواء كان رمليا أو صخريا أو مرجانيا ٠ وكذلك اقامة محطات تحلية ماء البحر بواسطة الطاقة المحلية الرخيصة ، ودق مضخات تحصل على الماء الباطنى من اعماق لم تصل اليها آبار الانسان السلفية ٠ واصبحت مواد

---

(٦) تزايدت قيمة واردات البحرين من ٤٥ مليون دولار عام ١٩٥٩ الى ٤٤٠ مليون دولار عام ١٩٧٤ بزيادة قدرها ٦٧٤٪ ، وفى قطر تزايدت الواردات من ٦٣ مليون دولار عام ١٩٦٩ الى ٤٠٢ مليون دولار عام ١٩٧٥ بزيادة تساوى ٦٣٨٪ ٠ وكانت الواردات الغذائية فى قطر عام ١٩٧٢ تبلغ قيمتها ٣٠ مليون دولار وتساوى ٦ر١٩٪ من مجموع قيمة الواردات فى تلك السنة وارتفعت قيمة الاغذية عام ١٩٧٥ الى ٥٨ مليون دولار وهى تساوى ٣ر٢٢٪ من قيمة واردات تلك السنة - أى أن هناك ميلا الى تضاعف القيمة الكلية للواردات ، وزيادة واضحة فى قيمة الواردات الغذائية بصفة خاصة ٠

وخامات البناء والتشييد فى متناول سوق الاستيراد · بل ان بعضها اقيمت لتوفيره صناعة محلية كالاسمنت · ورؤوس الاموال اصبحت متوافرة للقيام بعملها فى دعم الاستيراد السلعى أو ـ بدرجة أقل ـ فى الاستثمار الصناعى والتجارى ، أو المساهمة فى تنشيط اشكال مختلفة من النشـــاط الثلاثى والخدمات الانتاجية · وسوق العمالة متزايدة لانها مترتبة على هذه الفتوح فى مختلف اشكال التنمية الاقتصادية والاجتماعية ·

مرآة هذا الخروج العصرى تتضح اولا وقبل كل شىء فى الشكل الذى تتخذه مدن الخليج نموا وازدهارا · فالمدن تنمو الى احجـام متضاعفـــة ، مساحة وسكانا ، فى سنوات قليلة ، حتى انه يمكن القول أن دول الخليج اصبحت دول مدن ·أو لعله اصح ان نسميها « المدينة الدولة » : فهى مدينة تتحلق حولها الدولة وتدور فى فلكها ـ أيا كانت مساحة الدولة ·

ولاشك فى ان هناك ظواهر أخرى فى النمو الجديد لدول الخليج · لكن المدينة الاحادية التى تسيطر على الدولة المعاصرة هى اوضح ، وربمـــا أهم ، أشكال التغير واكثرها تركيزا وفاعلية · ويتضح ذلك من عدة قياسات للنمو الوظيفى للمدينة الاحادية فى (أ) مجالات الادارة والحياة السياسية و (ب) فى الخدمات والتجارة الداخلية وسوق المال والاعلام والحياة الثقافية والتعليمية و (ج) فى انها المحتكر الأساسى لأشكال النقل البحرى والبرى والجوى ·

وترتب على هذا ان المدينة الاحادية قد « سحبت البساط » من تحت اقدام بقية المدن أو نوياتها القديمة ، وجعلتها فى حالة اعتماد كلى عليها · والصورة النهائية الخطيرة ان المدينة الاحادية قد اعادت توزيع السكان فى دول الخليج بصورة جذرية ، هى فى الوقت نفسه غير صحية · فبدلا من التوزيع المتناسب ايكولوجيا للسكان على مدن وقرى وبادية الدولة ، حشدت فى المدينة الاحادية طاقات جذب ركزت السكان تركيزا مخلا داخل حدود المدينة · ولنأخذ الأمثلة التالية بشىء من التفصيل دليلا على هذا الاتجاه : (أ) ظاهرة المدن والقرى المهجورة ، (ب) النمو السكانى للمدن الاحادية ، (ج) النمو المساحى لهذه المدن ·

(أ) المدن والقرى المهجورة :

من دراسة الخرائط التفصيلية ، أو قراءة المصادر التاريخية والجغرافية من اواسط القرن الماضي حتى الثلاثينات من هذا القرن ، أو من متابعة التقديرات السكانية ـ على ندرتها ـ ومقارنتها بالتوقعات السكانية المستقبلة ـ على عموميتها ـ أو من التجول داخل دول الخليج بعيدا عن المدن الرئيسية ، تتضح لنا ـ وبوفرة ـ ظاهرة المدن والقرى المهجورة أو شبه المهجورة • وهذه الظاهرة تعيد للاذهان ظاهرة « مدن الاشباح » في امريكا واستراليا وبعض اجزاء جنوب افريقيا • وهذه كانت عبارة عن تجمعات عمرانية اعتمدت في حياتها على تعدين الذهب • فلمانضب الذهب ذهب الناس • وحقا لا تعود عملية هجر المراكز العمرانية كلها في دول الخليج الى جذب المدن الاحادية • فقد كانت في الماضي دوافع واسباب اقتصاديةواجتماعية وسياسية لهذه الظاهرة • لكنها في الماضي لم تأخذ الابعاد الشاملة التى انطوت عليها احتكارية المدن الاحادية المعاصرة ، سواء كان ذلك على مستوى الدولة ككل ، أو على المستوى الزمني القصير الذى استغرقته عملية الهجر الحالية •

وتسعى الحكومات الى ايقاف أو ابطاء نزيف السكان من الاقاليم صوب المدينة الاحادية • وعلى سبيل المثال اقامت حكومة قطر « مدنا » ومراكز عمرانية جديدة في مناطق مختلفة من الدولة ، وخاصة في الوسط والشمال كمدينتي الكعبان والشحانية ، بما في ذلك من مراكز خدمات تعليمية وصحية وبعض الانشطة الاقتصادية المحلية • وتفرق دول الخليج مشروعاتها الصناعية الحديثة على مراكز عمرانية جديدة بعيدا عن العاصمة • لكن هذه المساعي ـ كما هو الحال في معظم دول العالم الثالث ـ لاتعادل جاذبية المدن الكبيرة في تنوع قاعدتها الاقتصادية الواسعة والافاق المتعددة فيها للعمالة باشكالها من التكنوقراطية الى العمالة غير الماهرة ، ولا تعادل ما تنطوى عليه المدينة الكبيرة من أشكال حياة متعددة في النواحى المادية والاجتماعية والثقافية والترفيهية •

(ب) المعطيات السكانية في النمو المديني :

يوضح الجدول رقم ـ ١ ـ بعض المعطيات الرقمية لسكان دول الخليج ومدنه الاحادية • ويجب الأخذ بعين الاعتبار ان الكثير من الارقام الواردة

تقديرى وليس احصائى • وهناك فوق ذلك تضارب كبير فى الارقام ولهذا يجب ان تؤخذ على انها مؤشرات للشكل السكانى قديما وحديثا • ويمكن ان نستثنى من ذلك أرقام الكويت والبحرين حيث توجد سلسلة لا بأس بها من الاحصاءات والتقديرات ، آخرها ١٩٧١ فى البحرين و ١٩٧٥ فى الكويت (كلاهما احصاء سكانى) • وكان هناك احصاء واحد فى قطر عام ١٩٧٠ ولكن نتائجه غير مرضية باعتبار ان أول احصاء يتعرض لكثير من الاخطاء • وفى الامارات العربية المتحدة اجرى احصاء عام ١٩٧٥ ولكن نتائجه لم تعلن الى الآن • ولا يوجد سوى تقديرات سكانية فى سلطنة عمــان التى يبلغ التضارب فيها أشده بين المصادر المختلفة • ففى الوقت الذى تذكر مصادر ان تقدير السكان فى عمان يبلغ نحو ثلاثة ارباع المليون ، يبلغ العدد مليونـــا ونصف المليون حسب المصادر العمانية وكذلك هناك فارقا ضخما بين تقدير السكان فى الامارات العربية المتحدة بين عام ١٩٦٨ و ١٩٧٠ • فقد كان العدد الاجمالى ١٨٠ الفا عام ١٩٦٨ ، واصبح ٦٥٥ الفا عــام ١٩٧٥ •• وهـــكذا تتضارب التقديرات بفوارق تتراوح بين ضعفين وثلاثة أضعاف وبطبيعة الحال فان هذه الفروق الضخمة أمر يعيق الدراسة الخاكمة بأى من برامج التنمية •

وبرغم ذلك فانه مما لاشك فيه ان النمو السكانى الخليجى يســير بمعدلات لم يسبق لها نظير فى العالم • ويشهد على ذلك النمو المتفجر للمدن وظهور أزمة السكن بوضوح فى الكويت وقطر والامارات العربية المتحدة • وفى هذه الدول الثلاث نجد اجماعا من المصادر المختلفة على ان نسبة النمو السكانى السنوية تتراوح بين ٨٪ و ١٠٪ وهى أعلى نسبة فى العالم • ولكن ذلك لا يبرر التناقضات الكبيرة فى احجام السكان • وعلى أى الحالات فقد اوردنا فى هذا الجدول الارقام التقديرية التى تحظى بالتاييد الرسمى أو ما يشبه ذلك حتى يفصل فى الامر باقامة احصاءات رسمية متعددة فيما بعد •

ونظرا لهذه العقبات فان القياسات الكمية الدقيقة غير ممكنة • ومن ثم فانه كان من المستحسن الحصول على مؤشرات النمو العددى بقياس مقدار تضاعفها بين آخر رقم لدينا وأول تقدير عرفه الخليج فى نحو نهاية القرن الماضى ومطلع القرن الحالى،وهى التقديرات الاجتهادية التى أوردها ج• لوريمر فى كتابه « دليل الخليج » • وكانت طبعته الانجليزية الاولى قد ظهرت عام ١٩٠٨ فى كلكتا • وقد اعتمدنا الترجمة العربية الجديدة الصادرة العــام الماضى (١٩٧٨) عن مكتب الترجمة فى ديوان أمير دولة قطر •

جـــدول ـ ١ ـ
تقدير النمو السكاني للدول الخليج ومدنه الرئيسية

الدولة و المدينة	تقديرات او احصاءات سكانية (عدد السكان بالآف) حوالى ١٩٠٠(١)	الفترة بين ١٩٧٠ و ١٩٧٥	عدد مرات التضاعف السكانى خلال نحو ٥٠ عاما
دولة الكويت	٥٠	٩٩٠(٢)	٢٠
مدينة الكويت	٣٥	الكويت ٣٠٠ السالمية ٦٧ حولى ١٢٦ ٤٩٣(٣)(٤)	١٤
دولة البحرين	١٠٠	٢٦٠(٤)	٢ر٦
المنامـــــة	٢٥	٨٩ (٥)	٣ر٥
دولة قطـــر	٣٠	١٨٠(٦)	٦
الدوحــــة	١٢	١٤٤(٦)	١٢
دولة الامارات	٨٠	٦٥٦(٧)	٨ر٢
امارة أبو ظبى	١٥	٢٣٥(٧)	١٥ر٦
مدينة ابو ظبى	٦	(١٨٠)(٨)	(٣٠)
امــارة دبى	١٠ر٢	٢٠٦(٧)	٢٠ر٢
مدينة دبى	١٠	(١٨٥)(٨)	(١٨)

امارة الشارقة	٤٥	٨٨ (٧)	٢ر٣
امارة رأس الخيمة		٥٧ (٧)	
مدينة الشارقة	١٥	(٧٠)(٨)	(٦ر٤)
امارة الفجيرة		٢٦ (٧)	
امارة عجمان		٢١ (٧)	
٠١ أم القوين		١٧ (٧)	
سلطنة عمان	٥٠٠	١٥٠٠(٢)	٣
مسقط	١٠	٥٠ (٢)	٥

---

(١) تقديرات السكان نحو عام ١٩٠٠ من صفحات متعددة من الاجزاء الستة للقسم الجغرافي من كتاب لوريمر «دليل الخليج» .

(٢) صفحات متعددة من
Middle - East Annual Yearbook 1975-76, Econimist, London

(٣) صفحات متعددة من Information Please Almanac 1975, New York

(٤) صفحات متعددة من
Der Fischer Welt Almanach 1977, Fischer, Frankfurt

(٥) «دولة لبحرين» ص ١٥٧ ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٥

(٦) Qatar Planning Studies,"Natiinal Growth Forecst", W.L.Pereira Ass,. May 1977 .

(٧) Fenelon, K.G., "The United Arab Emirates" London 2ed. 1976 p. 132 .

(٨) حسب عدد سكان مدينتي ابو ظبي والشارقة تعسفيا على أساس ٨٠٪ من مجموع سكان كل امارة ، بينما حسب سكان مدينة دبي على أساس ٩٠٪ من مجموع سكان امارة دبي .

ونتبين من الجدول ان سكان الدول قد تضاعفت مرات أقل من تضاعف سكان المدن الرئيسية ، باستثناء الكويت • ولعل سبب الاستثناء ان محافظة حولى بما فيها من ضواح لا تعد ضمن مدينة الكويت مع انها جزء عضوى من المدينة • كما ان العمران المدينى يتقدم نحو الاحمدى والفحيحيل والشعيبة (مدن وموانى البترول والصناعة الحديثة) وكلها لا تبعد عن مركز المدينة باكثر من ٣٠ - ٤٠ كيلو مترا • والمتوقع ان يلتحم العمران تماما اذا استمرت الظروف الاقتصادية والسكانية مواتية • وعلى العموم فان السكن المدينى فى الكويت يبلغ نسبة قد تزيد عن ٩٥٪ من جملة السكان •

وفى دول الخليج الأخرى نجد نمطين ظاهرين : نمط البحرين وتشابهها عمان ونمط قطر وتتشابه معها الامارات العربية المتحدة فى مجموعها • وبالرغم من ان المدن الرئيسية فى النمطين قد نمت سكانيا بدرجة أعلى من النمو العام لسكان الدولة الا ان نمط البحرين وعمان يمثل درجة تضاعف قليلة فى مجموع سكان الدولة وسكان المدينة الرئيسية بالقياس الى النمط الثانى • فقد تضاعف سكان البحرين على مدى نحو ثلاثة ارباع قرن بمقدار مرتين ونصف وتضاعف سكان المنامة فى الوقت نفسه بمقدار ثلاث مرات ونصف • وكذلك كان نمو سكان عمان قليلا حيث تضاعف العدد الكلى نحو ثلاث مرات بينما زاد سكان مسـقط نحو خمس مرات • وفى مقابل ذلك تضاعف عدد سكان قطر ست مرات وسكان الدوحة اثنتى عشرة مرة ، وفى الامارات العربية المتحدة تضاعف عدد السكان الاجمالى نحوا من ثمانية مرات • وليست لدينا ارقام عن نمو سكان المدن الرئيسية فى الامارات • ولكن حيث ان مدن الامارات تحتوى على أكثر من ٨٠٪ من مجموع سكان كل امارة على حدة ، فالمتوقع ان يكون تضاعف سكان هذه المدن أكبر من نسبة تضاعف مدينة الدوحة • وبحساب اجتهادى يمكن ان يكون سكان مدينة ابوظبى فى حدود ١٨٠ ألفا ومثلهم فى دبى (بحساب ان المدينة تحتوى على ٩٠٪ من سكان امارة دبى) ونحو ٧٠ ألفا فى مدينة الشارقة • ويترتب على ذلك ان نسبة نمو مدينة ابوظبى تساوى نحو ٣٠ مرة ما كانت عليه فى مطلع القرن ودبى ١٨ مرة بينما نمت الشارقة نحو خمس مرات فقط •

والخلاصة ان نمط قطر والامارات العربية المتحدة يوضح ان المدينة الرئيسية تحظى بنسبة نمو هى ضعف النمو العام لسكان الدولة • وقد تلحق سلطنة عمان بهذا النمط قريبا • اما البحرين ، فهى بالنسبة لمساحتها كانت

قد استوعبت نموها السريع ربما منذ نحو قرن ، في عصر ازدهار تجارتها البحرية الواسعة ومصايد اللؤلؤ الطبيعي ، بحيث انها كانت أكثر مناطق الخليج سكانا في مطلع هذا القرن ، وكانت عاصمتها المزدوجة ـ المنامة والمحرق ـ أكبر مدن الخليج آنذاك (٤٥ الفا للمدينتين في مطلع القرن) • وبذلك لم يكن تسميتها لؤلؤة الخليج بدون سبب • وكذلك لم يكن اتخاذها مقرا لرئاسة المقيم البريطاني في الخليج بدون سند (فضلا عن موقعها الجزري الذي يبعدها ـ الى حدود ـ عن تعقيدات العلاقات المباشرة بين الساحل وداخل الجزيرة العربية) • ولقد تضاعف سكان المنامة نحو ثلاث مرات ونصف بينما زادت جملة سكان البحرين بمقدار مرتين ونصف خلال السنوات

جدول ـ ٢ ـ

نسبة سكان المدينة الأولى الى سكان الدولة

المدينة الرئيسية	النسبة المئوية لسكان المدينة الاولى الى سكان الدولة	النسبة المئوية للسكان الحضر في الدولة	النمو السكاني العام في السنة (٪)
الكويت وضواحيها	٤٩٫٨	+ ٩٥	٥٫٩(١)
المنامة / المحرق	٥٨٫٥	٧٨	٨٫٢(٢)
الدوحة ١٩٧٥	٨٠٫٠	+ ٩٠	٩٫٨(٣)أو٤٫١١(٤)
الدوحة ١٩٧٠	٧٥٫٠		
الدوحة ١٩٠٠	٤٠٫٠		

ملاحظـات :

(١) من Middle - East Annual Review 1975 - 76, Econimist, London, P.159

(٢) عن « دولة البحرين » منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٣٨ •

(٣) من Der Fischer Welt Almanach 1977, Frankfurt, p.215 .

(٤) يقول تقرير مؤسسة وليام بريرا ان السكان في قطر يتزايدون بنسبتين : الزيادة الطبيعية للقطريين ٤٫٣٪ سنويا ولغير القطريين ٣٫٢٪ سنويا • اما الهجرة السنوية الكبيرة الى قطر فكانت مسئولة عن رفع متوسط الزيادة السنوية في قطر الى ٤٫١١٪ (زيادة طبيعية + الهجرة) • راجع :

Oatar Planning Studies, "National Growth Forecasts" W.L.Pereira Ass. May 1977 .

السبعين الماضية نتيجة لازدهار البترول البحريني المحدود الكمية والقصير الأمد • وتماثل امارة الشارقة البحرين في كثير من ظروفها التاريخية والمعاصرة، ومن ثم فان نمو السكان قريب من نمط البحرين • لكن نمو مدينة الشارقة الآن قائم على قدم وساق داخل أطار الامارات العربية المتحدة من ناحية ، وضمن مضمون الكشوف البترولية الحديثة في الشارقة من ناحية أخرى •

ولمزيد من الايضاح يؤكد جدول ـ ٢ ـ (والارقام الاساسية مازالت في معظمها تقديرية) ان المدينة الرئيسية تستحوذ على نحو نصف السكان في كل من دولتي الكويت والبحرين ، واربعة اخماس السكان في دولة قطر • ولاشك ان الوضع بالنسبة لمدن الامارات العربية المتحدة مماثل لما هو عليه الوضع في قطر ، أو يزيد عليه •

وعلى اية حال فان النسبة المئوية لسكان الحضر في دول الخليج تعطينا مؤشرا آخرا على عملية التجميع السكاني في المدن ، سواء منها المدن الاحادية أم المدن المنشأة جديدا على أساس الصناعات البترولية الاستخراجيـــة أو التحويلية ، مثل أم سعيد ودخان في قطر أو العوالي في البحرين ، أو المدن الصغيرة المجمعة للخدمات مثل مدينة عيسى في البحرين •

وتعطينا مجموعة تقديرات سكان الدوحة وقطر منذ مطلع القرن نموذجا طيبا لمؤشرات عملية الاحتكـار المديني للســكان في دول الخليج • ففي تقديرات « لوريمر » كان سكان قطر حوالي ٣٠٠٠٠ر٣٠ شخص منهم ٢٧٠٠٠ر٢٧ شخص يسكنون المدن والقرى التالية : الدوحة ١٢ ألفا ، الوكرة ثمانيـــة آلاف ، ثم الآلاف السبعة الاخرى موزعة على الظعاين والذخيرة وابو الظلوف وفويرط وهدية وخور حسان والوسيل والرويس وخور شقيق (الخور الحالية) وسمسمة(٧) • ومعنى ذلك ان سكان مدينة الدوحة كانوا يشكلون ٤٠٪ من مجموع سكان الدولة ، وان سكان الوكرة ـ المدينة الثانية آنذاك ـ كانوا يعادلون ٦٦٪ من مجموع سكان الدوحة • وبعبارة أخرى كان هناك نوع من التوزيع العادل والمتناسب لسكان الحضر • أما اليوم فان جـــذب الدوحة وتسلطها المديني جعلها تستحوذ على ٨٠٪ من سكان الدولة ، وان

---

(٧) لوريمر ، ج • « دليل الخليج » القسم الجغرافي الجزء السادس ص ١٩٨٧ •

ثانى المدن بعدها ، الريان (فى حقيقتها ضاحية متصلة بالدوحة) يكون سكانها ١٤٪ من مجموع سكان الدوحة فقط ! • هذا هو مثال ، لا يحتاج لتعليق ، على تنامى سيطرة المدن الاحادية على اقدار الخليج السكانيـــة والعمرانية •

(ج) النمو المساحى للمدن :

من المقاييس الأخرى التى يمكن اتخاذها دليلا على النمو السريع لمدن الخليج ، النمو المساحى لتلك المدن • مرة أخرى نرجع الى مدينة الدوحة كمثال لهذا النمو المساحى الكبير • فقد نمت الدوحة عن ثمان نويات عمرانية صغيرة

جدول ـ ٣ ـ
النمو المساحى لمدينة الدوحة (★)

الفترة الزمنية	المساحة المبنية كم٢	المتوسط السنوى لزيادة المساحة المبنية كم٢	المساحة المبنية ٪ الى سنة الاساس
قبل ١٩٥٠	١ر٢٣	ــــــ	١٠٠
١٩٥٠ ـ ١٩٥٦	٤ر٤١	٠ر٥٣	٣٥٨
١٩٥٦ ـ ١٩٦٣	٨ر١٤	٠ر٥٣	٦٦١
١٩٦٣ ـ ١٩٦٦	٩ر١٢	٠ر٣٢	٧٤١
١٩٦٦ ـ ١٩٧١	١١ر٩٦	٠ر٥٧	٩٧٢
١٩٧١ ـ ١٩٧٣	١٢ر٤٦	٠ر٢٥	١٠١٣

(★) هذا الجدول منشأ من قياس مساحى لخريطة رقم ٦٠ التى تبين مراحل النمـــو العمرانى للدوحة من اطلس رسالة الماجستير للسيد/محمد حسن الجابر المدرس المساعد بجامعة قطر ، وهى رسالة غير منشورة باسم « الجغرافيا البشرية لقطر » •

متقاربة امتدت على ساحل خليج الدوحة ، هى من الشرق الى الغرب(٨) آل بن على (الهتمى والخليفات القديم) السلطة (جمع سليطى) المرقاب الشرقى ، الدوحة ، الدويحة (الجسرة حاليا) قلعة العسكر ، البدع (يفصل بينها وبين قلعة العسكر المرقاب الغربى وهو يبدو غير ماهول آنذاك) واخيرا الرميلة • وقد كانت مساحة هذه النوى الثمانية ٢٣ر١ كيلو مترا مربعا • وفى الفترات التالية لعام ١٩٥٠ نمت مساحة الدوحة الى أكثر من عشرة اضعافها ، كما يتضح ذلك من جدول ـ ٣ ـ • ولاشك فى ان المساحة المبنية الحالية قد زادت كثيرا ـ ربما الى نحو عشرين كيلو مترا مربعا نتيجة العمران السريع الايقاع فى الدوحة فى الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨ • أما حدود بلدية الدوحة فتصل الى نحو ثلاثين كيلو مترا مربعا •

هذا وتتشابه مساحة مدينتى ابوظبى ودبى مع مدينة الدوحة • وبينما تصل مساحة المنطقة المبنية فى المنامة الى نحو عشرة كيلو مترات مربعة(٩) ، يقال ان مدينة الكويت بضواحيها المختلفة قد زادت عن ٥٠٠ كم٢ • هذه المساحة الكبيرة للكويت فى الاغلب تشمل حدود البلديات وليست المساحة المبنية فقط ـ اذ أن مساحة المدينة كانت سبعة كيلو مترات مربعة فقط فى أول الخمسينات(١٠) •

ثانيا : مشكلات النمو السريع فى مدن الخليج

ان النمو السكانى والمساحى لمدن الخليج قد ادى الى احداث تغيرات جذرية فى ضوابط العمران • فلم يعد للضوابط الطبيعية القديمة أثرها السالف ، وبدلا منها ظهرت مجموعة من العوامل البشرية تضبط النمو

---

(٨) محمد حسن الجابر « الجغرافيا البشرية لقطر » (رسالة ماجستير غير منشورة) القاهرة ١٩٧٧ انظر ايضا لوريمر المصدر السابق القسم الجغرافى الجزء الاول صفحات٦٢٧ ـ ٦٣٣ •

(٩) « ••• وتغطى مبانيها قرابة ٢٢٥٠ فدانا » ص ٣٢٢ من الفصل الذى كتبه محمد حلمى جعفر بعنوان افاق للعمران فى كتاب « دولة البحرين » منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٥ •

(١٠) يقول مسئول كويتى ان مساحة المدينة بلغت ٦٥٠كم٢ ـ اى انها تضاعفت مساحيا ٩٣ مرة فى ٢٥ عاما ـ مجلة العربى عدد ٢٠٤ نوفمبر ١٩٧٥ •

العمراني وتوجه نمو المدن اتجاهات معينة • وفيما يلي اشارات موجزة الى عدد من هذه العوامل البشرية •

١ ـ **الطرق الرئيسية وشكل النمو العمراني** : الملاحظ ان العمران يمتد مع محاور الطرق أو يمتد ليلتقي بطرق جديدة قادمة الى المدينة أو خارجة عنها • ويؤدى هذا الاتجاه الى استطالة العمران في شكل مد سكني على جانبي الطريق الجديد ، أو ليس بعيدا عنه • ان كل اشكال العمران ، خاص وعام ، سكني وتجارى ، مؤسسات أو هيئات حكومية تسعى لكي يكون لها واجهة على الطريق الرئيسي ، علما بأن ذلك يؤدى الى (أ) عدم صحية المباني المشرفة على هذه الطرق الرئيسية لتلوث الطريق بالغازات والضوضاء ، (ب) ان الامتدادات السكنية على طول الطرق الرئيسية تقلل فاعلية الطريق السريع في سيولة الحركة • وهي بذلك تتنافى مع الاستثمار العالى في بناء مثل هذه الطرق ، وتناهض الفكر من وراء انشائها • (ج) النتيجة النهائية ان العمران يمتد في شكل اشرطة تطيل خطوط العمران وتقلل من قيمة الاراضي التي تقع في ظل هذه الطرق ، مما قد يترتب عليه ظهور اشكال عمرانية غير مخططة لذوى الدخول المنخفضة (ظاهرة مدن الصفيح أو العشش) •

ان كثرة امتداد المباني على محاور الطرق الرئيسية يخضع ، من بين ما يخضع له من عوامل ، الى جاذبية سهولة الحركة وسيولتها • لكنه يواجه سلطات المدينة بشكل عمراني يصعب منه توزيع الخدمات البلدية بدرجة جيدة مع رفع تكاليف هذه الخدمات • فشبكات المياه والكهرباء والتليفون والصرف تمتد مسافات أطول مما ينبغي لتخدم عمارا نحيفا •

٢ ـ **اسعار الاراضي** : ان النمو المساحي السريع النحيف حول الطرق الرئيسية عادة ما يؤدى الى رفع قيمة الارض بصورة فجائية • ومن ثم تحدث مضاربات على اسعار الاراضي الممتدة على طول الطرق ، وربما يصيب ذلك الاراضي المجاورة بحكم التقليد المتبع في اسواق السلع • بل ان عدوى الاسعار المتزايدة تنتقل ـ تحسبا ـ الى أراضي بعيدة عن العمران العاجل أو حتى الآجل •

هذه المضاربات في حد ذاتها تصبح عائقا فعليا أمام النمو العمراني •

وذلك لان ارتفاع سعر الارض هو عبارة عن حقن اصطناعي لجزء من حلقة تكلفة العمران • وهذه تؤدى الى لولب متصاعد لاسعار أخرى : مواد البناء ، عطاءات المكاتب الهندسية وشركات المقاولات ، أجور العمال ، اسعار الاثاث الخ ... هذا كله فضلا عن زيادة القروض البنكية ورفع الفوائد فى سوق المال •

ويترتب على هذا اللولب الذى يعيد حقن نفسه ويستمر فى حركته التصاعدية معيدا تأثير ذاته على المسبب الاول — يترتب على ذلك ان ايجارات المبانى ترتفع الى حدود غير متصورة • والنتيجة النهائية هى اما خلو المبانى فترات طويلة يترتب عليها أثار ضارة بالمستثمرين فتبدأ حلقة كساد، واما قبول الايجارات العالية مؤديا بذلك الى زيادة تفشي التضخم • ولاشك فى أن الايجارات العالية قد تكون سببا فى بطء حركة التعمير • وبذلك يكون الانسان قد وضع عقبة من صنعه أمام توسعه ! •

٣ ـ الأبنية والاماكن العامة كعوائق فى اتجاهات النمو المدينى :

هناك أنواع من المبانى العامة واماكن المنفعة العامة التى تعوق نمو المدينة فى اتجاه معين • ولعل مبانى المطارات هى واحدا من أهم هذه العوائق ، ليس فقط نتيجة لرقعة المطار الكبيرة ، ولكن لمقتضيات أمن الطيران التى تحدد ارتفاع المبانى ، وللضوضاء الصادرة عند الممرات الجوية فوق المدينة أو عند ممرات الاقلاع والهبوط ، ولهذا تخطط بعض الدول ـ كقطر ـ لانشاء مطار جديد بعيدا عن الدوحة لأن المطار الدولى الحالى يمثل عائقا واضحا امام نمو المدينة فى الاتجاه الشرقى •

وتمثل أبنية الموانى البحرية ومخازنها الضخمة المساحة عائقا يقتطع جزءا من مجال نمو مدن الخليج الرئيسية ، وكلها مدن ذات مواقع بحرية • كما أن احياء الموانى عادة تطرد القطاعات السكنية نتيجة للحركة التى تكاد لا تهدأ • وهى عادة تحتضن ـ الى جانب الشركات العاملة فى البحر ـ مساكن العمالة الفقيرة بمشاكلها الصحية والاجتماعية الناجمة عن ازدحام الغرف بدرجة أعلا من بقية احياء المدينة • وتختلف اقدار مدن الخليج الرئيسية فى هذا المجال نتيجة لاختلاف أحجام الموانى • فميناء الكويت ودبى أكثر احساسا بمشاكل حى الميناء من الدوحة أو أبو ظبى •

ويحدد اقتراب حقل للبترول من مدينة ما اتجاه نموها ، وذلك بحكم المساحة الواسعة للحقل واراضي المنفعة الملحقة به · ولا تظهر هذه المشكلة في الخليج بوضوح كبير باستثناء الكويت التي تقترب من حافتها الجنوبية حدود حقل برقان ، مما أدى الى انحراف عمران مدينة الكويت صوب الساحل الشرقي · ويشترك مطار الكويت مع حقل برقان في تغير اتجاه العمران الكويتي صوب الشرق ·

٤ ـ **خدمات الماء والكهرباء** : ان التوسع العمراني المساحي والسكاني المفاجيء هو في حد ذاته عامل مناهض لمزيد من التوسع · فالى جانب ارتفاع أسعار الاراضي والايجارات ، فان الخدمات تصبح مكلفة وعسيرة · ولعل أهم أشكال الخدمات المؤثرة على العمران الخليجي هي الماء والكهرباء ·

ومشكلة مياه الشرب في الخليج قديمة · وهي اليوم تعود على مستوى كلي ونوعي أكبر مما كان في الماضي · لكنها ليست بدون حل · فالبرغم من أنه يمكن زيادة حجم المياه العذبة المستخلصة من البحر أو المضاف اليها مياه الآبار ، الا ان المشكلة الراهنة تكمن في ايصالها الى المنازل · فشبكة أنابيب المياه مازالت قاصرة وعاجزة عن الوفاء بما هو مطلوب منها · ويعود جانب من هذا العجز الى التوسع العمراني المستدق الممتد على جانبي الطرق الكبرى · وجزء آخر من هذا العجز يعود الى قصور الخطط عن ملاحقة النمو فضلا عن توقع النمو المفاجيء · ولهذا فان الانابيب الموجودة تحتاج الى استبدالها بأخرى أوسع قطرا ، وخطوط اضافية أطول · ولكن انشاء الشبكات الاضافية يتم ببطء ظاهر · وفي غياب مخططات شاملة لبعض مدن الخليج(١١) ستبقى مشكلة المياه لفترة · وستظل الطرق القديمة في تغذية المساكن بالمياه قائمة · وهي طرق تعتمد على تشغيل عدد كبير من سيارات

---

(١١) ليس معنى هذا الكلام عدم وجود مخططات · بل ان هذه ابسط المشكلات · والواقع أنه توجد مخططات شاملة لمدن الخليج قامت بها مكاتب خبرة دولية بتكليف من الدول · لكن المشكلة تكمن في عدم صلابة التوقعات الفعلية لاى معطيات رقمية ـ كالتنبؤ بعدد السكان، أو التغير الاجتماعي الذي يمكن أن يحدث أو لا يحدث · وهذا يغير من فاعلية استخدام مخططات المدن ، اما بطلبات اقل مما هو مرسوم ، او على نحو أكبر من التوقعات وبذلك تواجه المخططات باحتياجات أكبر مما عمل حسابه في تلك المخططات ·

الصهاريج واستخدام خزانات معدنية للمياه فى البيوت • وكلاهما ــ الصهريج والخزان ــ قلما ينظف بالطرق الصحية •

ومثل ذلك شبكة الكهرباء • بل هى اعقد • ويرجع ذلك الى ان استهلاك الكهرباء يكاد ان يكون فوق أى معدلات عالمية متقدمة بالنسبة للفرد بسبب كثرة أجهزة تكييف الهواء والمراوح والاضاءة المبالغ فيها ، فضلا عن وجود أجهزة كهربائية منزلية كثيرة • ان استخدام هذا الكم الكبير من الادوات الكهربائية يرجع الى عوامل عدة نذكر منها العاملين التاليين :

(أ) ارتفاع متوسط دخل الفرد فى الخليج جعل اسواقه هدفا لمزيد من المبتكرات الجديدة التى تخلق حاجات لم يكن لها مكان فى السوق من قبل• فالشركات تحقن السوق بكل جديد ، حتى لو كانت الاستفادة أقل مما يستثمر فى هذه الاجهزة من قيمة •

(ب) تغير مادة بناء البيوت من المواد الأنسب للبيئة الحارة الى المواد الشائعة التداول ، والتى يسهل حساباتها هندسيا : الحديد والاسمنت والزجاج • وهى كلها مواد تساعد على رفع درجة حرارة الغرف بدرجة لايمكن استخدامها بدون مكيفات الهواء بصفة مستمرة معظم شهور السنة • وقد كان استخدام المكيفات ضرورة لازمة فى غياب خطة التهوية الطبيعية التى كانت شائعة فى منطقة الخليج : نظام مساقط الهواء « البادجير » وغياب الشبابيك الخشبية ، من بين أشياء أخرى سلفية كانت أكثر تناسبا مع البيئة •

والخلاصة ان استخدام تكييف الهواء صناعيا هو مشكلة مثالية للدراسة • فتغير عنصر من عناصر البناء استوجب تعويضا عالى النفقة فى سعره وقيمة تشغيله • وليس معنى هذا رجوع للخلف ــ بالرغم من ان العودة الى الماضى لا يعنى بالضرورة خطوة للوراء • والواجب على المهندسين التقليل من استخدام نماذج معمارية تصلح لبيئات أخرى • فكل اقليم له مواصفاته التى يجب ان تراعى بدون ايجاد معوضات كثيرة التكلفة •

وقد لا يشكل الاستهلاك الكبير فى الكهرباء عبئا من حيث القيمة الآن ،

لكن الخطورة تكمن في الجهد الهائل على شبكات الكهرباء الحالية وما يؤدى اليه ذلك من انقطاع الشبكة أو حرائق غير متوقعة • وحينما تصل دول الخليج السريعة النمو الآن الى مرحلة قريبة من التوازن سيتضح التضارب بين احتياجات الناس وما يجب ان يدفعوه ثمنا لهذا الاستهلاك الكبير من التيار الكهربائي •

ثالثا : ضغوط التغير الحضارى والنمو العمرانى

« ان التثقيف (المقصود عملية التغير الحضارى) غير نمط الاسرة القطرية من النمط الممتد الى الشكل النووى ••• » ، « ••• نتيجة للتثقيف ضعف دور الاجيال الاكبر في تربية النشىء ، وذلك لاستقلال الاسرة النووية فى المسكن نتيجة لاستقلالها الاقتصادى ••• »(١٢) مثل هذه التقريرات تؤكد ان التغير الحضارى فى واحد من اثاره التشكيلة فى البنية الاجتماعية الاقتصادية الخليجية يؤدى الى اتجاه جديد تأخذ بمقتضاه الاسرة النووية طريقا للظهور كمؤسسة اجتماعية اقتصادية فى الوقت الذى بدأت فيه « العائلة » أو « الاسرة الممتدة » فى الضعف والتفكك •

والذى يهمنا هو ان هذا الاتجاه يشكل عاملا ـ من عوامل كثيرة ـ فى زيادة الطلب على سوق البناء فى مدن الخليج • فقد كان النمط السكنى السائد الى الفترة المعاصرة هو البيت الكبير الذى يحتوى على العائلة : الجد والابناء وزوجاتهم والاولاد والاحفاد •

ولهذا لم يكن النمو المساحى للمدن كبيرا • بل كان يتسم ببطء شديد أو جمود • وذلك قطعا مرتبط باشكال الحياة الاقتصادية السلفية ، ومن ثم كان البيت الكبير وحدة اقتصادية واحدة قدر ما كان الوحدة الاجتماعية الأولى• صحيح كان هناك عمران جديد باستمرار ، لكنه غالبا متفرق وبديل لبيوت قديمة تهدمت أو تكاد ، بالاضافة الى النمو الطبيعى للسكان • وكان هذا

---

(١٢) جهينة سلطان العيسى « الالتقاء الحضارى واثره فى تغير البناء الاجتماعى للاسرة فى قطر » مقال فى « من ثمار الفكر » منشورات جامعة قطر ١٩٧٦ ص ٢٠٥٠/٢٠٦ •

النمو السكاني محدودا • وقياسا على ما كان عليه الحال فى معظم دول العالم فى مثل مرحلة الخليج ـ يمكن ان نقدره بنحو ١٪ زيادة سنوية سكانية على أحسن الفروض •وكانت هذه النسبة فى واقع الامر تقل عن ذلك أيضا لكثرة الحركة والهجرة من مكان الى آخر فى منطقة الخليج كلها •

أما الآن فان ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية للسكان الى نحو ٣٪ ـ ٥ر٣٪ سنويا قد اصبح مسئولا عن مضاعفة الاحتياج الى وحدات سكنيـــة جديدة مرتين أو أكثر خلال العقد الاخير • ولا يجب أن ننسى ان الهجرة الى دول الخليج من الضخامة بحيث ترفع نسبة النمو السنوى العام للسكان الى ما بين ٨٪ و ١٠٪ ـ وهو ما يرفع الحاجة الى المساكن اضعافا أخرى •

والذى نريد التركيز عليه هو ان ضغوط العوامل الاجتماعية : أو ـ زيادة الاسر النووية ، والعوامل الديموجرافية ـ ، زيادة النمو السنوى للسكان نتيجة تحسن الاحوال الصحية والهجرة الخارجية ، وقد ولدت ظاهرة النمو المساحى للمدن بدرجة يمكن أن توصف بانها « انفجارية » • وقد مر بنا ان الكويت والدوحة قد تضاعفت مساحة كل منهما خلال ربع قرن أكثر من خمسين مرة و ١٥ مرة على التوالى •

وتحتوى أشكال السكن فى الخليج على نمطين أساسيين هما (أ) البيوت المنفصلة أو الفيلات و (ب) شقق العمارات • وبطبيعة الحال فان نمط الفيلات هو المسئول الاكبر عن التوسع المساحى الكبير • وفيه الكثير من الهدر بالنسبة للمساحات المستغلة • بينما نمط العمارات أشد اقتصادا فى الارض وأكثر ملائمة للتضخم السكانى ، وأكثر وفرا فى خطوط الخدمات: شبكات الطرق والمياه والصرف والكهرباء • ويمكن ان تلبى العمارات المتطلبات الصحية لو أحسن تخطيط المناطق العمرانية ، ووسعت المساحات بين العمائر وتوافرت أماكن انتظار السيارات(١٣) • وفى مقابل هذا فان احياء الفيلات أكثر هدوءا لقلة كثافة السكن ، وربما اصح لوجود بعض الاشجار والنباتات،

---

(١٣) التركيز على السيارات من بين اشكال الخدمات ضرورة ملحة فى دول الخليج حيث الاعتماد الكلى فى التنقل على السيارة الخاصة • ومن ثم كان عدد السيارات عال بالنسبة لمجموع السكان • ولابد من حساب أماكن انتظار السيارات فى اى مخططات كى لا تشغل أماكن حيوية من الطريق ولا تقف بذلك عقبة امام سيولة الحركة •

وهى منقيات الهواء من بعض ما يشوبه من التلوث • وفى المجموع تحتوى مدن العالم على النمطين معا لاختلاف بالضرورة بين الدخول والامزجة الخاصة ومجموعة ما يشب عليه الناس من اعتيادات وقيم تنعكس فى صورة النمط السكنى المفضل •

وحيث ان الارض حول مدن الخليج شاسعة ، ونادرا ما تشوبها عوائق جغرافية (باستثناء أبو ظبى المحدودة بموقعها الجزرى وسط السبخات والاخوار ، ومسقط التى تحدها التضاريس المفاجئة) ، فان التوسع المساحى لمدن الخليج ـ نظريا ـ يمكن أن يمتد الى ما لا حدود • ولكنه عمليا محدود بما سبق ذكره من عقبات من صنع الانسان كالمغالاة فى أسعار الارض ، والتكلفة العالية فى تنفيذ تجهيزات البناء التحتى : شبكة الطرق والمياه الخ •• ومن ثم فان نمط العمائر ذو التخطيط الجيد يبدو أكثر توافقا مع المعطيات الخليجية فى السنوات القليلية القادمة • فالنمو السكانى الذى كان يجمع طاقاته قد انطلق الآن فى طريق يصعب الحد منه لاسباب متنوعة • من بين هذه الاسباب الاعمال والانشطة الاقتصادية الجديدة التى تستثمر فيها أموالا كبيرة من أجل ايجاد توازن مستقبلى بين مصادر الدخل القومى • أو ايجاد بدائل كى لا يظل البترول على احتكاره ، أو تحسبا وتخطيطا لوقت نقصان انتاجه أو نقصان احتياجه فى سوق الطاقة العالمية • هذه البدائل فى مجالات الانتاج والتجارة والخدمات مازالت فى احتياج الى جذب العمالة من الخارج ، ولو لفترة يمكن ان تمتد الى أواخر الثمانينات(١٤) • ومثل

---

(١٤) على اساس توقعات نمو سكانية متوسطة ترى مؤسسة وليام بيريرا أن عدد سكان قطر كان ينمو بنسبة عامة ٨ر٤٪ مكونة من نمو القطريين الطبيعى بمقدار ٤ر٣٪ ونمو غير القطريين بنسبة ٤ر١١٪ ، وذلك عن الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، وان نسبة النمو ستنخفض فى الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٥ الى نسبة نمو عامة ١ر٣٪ مكونة من نمو القطريين بمقدار ٤ر٣٪ (نسبة نمو ثابتة مقترحة للقطريين خلال ٢٥ عاما) وغير القطريين بنسبة نحو ٣٪ (انخفاض كبير فى نسبة النمو خلال الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٥) • ومع ذلك فان سكان قطر المتوقعين سيكونون قد زادوا بمقدار أربع مرات ونصف خلال فترة الدراسة ويتشكلون فى ١٩٩٥ من نحو ١١٢ الفا من القطريين و ٣٠٨ الفا من غير القطريين • راجع W.L.Pereira Associates, "National Growth Forecasts" Qatar Planning Studies, may 1977 .

ذلك أثر التزايد الطبيعي للسكان • فالحاجة اذن متزايـــدة الى وحدات سكنية جديدة •

واذا كنا أميل الى نمط العمارات فانه فى مواجهة ذلك قضية تستلزم بالضرورة فترة زمنية طويلة قد تتعدى حياة جيل بأكمله • تلك هى قضية القالب الحضارى • فأهل الخليج قد نشأوا لاجيال متعاقبة فى ظل نمط البيت الكبير المنفصل • ومع بداية تفكك الاسرة الممتدة ، فان الاسرة النووية تبنى بيتها الجديد على مثل قيم التنشئة • فمن الصعب ان يتخلى الانسان بسرعة عن كثير من الاعتيادات ، فما بالنا باعتياد البيت المستقل • ومهما كانت المرغبات لسكن الشقق فان التغيير لا يأتى فجأة •

وعلى هذا ستظل اغلب مدن الخليج مزدوجة النمط السكنى : البيوت المنفصلة التى تمتد برحابة على مســـاحات كبيرة • وهى فى عمومها تحظى بتفضيل ابناء الخليج ، بينما يمكن للعمل المهاجر أو للمقيم غير الخليجى أن ينسجم بصورة أكثر مع سكن العمارات ــ كل حسب اعتياده السابق • واغلب التوقع أن هذه الازدواجية سوف تقل لصالح العمـــارات باضطراد التكيف على حياة المدن بمقتضياتها وطابعها الذى يميل أكثر وأكثر الى التوفير فى المساحة وتكثيف الخدمات •

(٤)

خطة المدينة الخليجية ومورفولوجيتها المعاصرة

تتميز مدن الخليج الرئيسية ، كما هى العادة فى المدن المتولدة عن المدن القديمة ، بوجود منطقتين عمرانيتين مختلفتى الخطة : الأولى هو نواة المدينة أو المدينة القديمة ، والثانية هى الامتدادات الحديثة أو المدينة الجديدة • وفى الغالب الاعم تشمل الأخيرة أكثر من تسعة اعشار المدينة من ناحية المساحة الكلية المعاصرة للمدن الخليجية •

المدينة القديمة :

كما هو الحال فى كل النويات القديمة فان الشوارع تمتد على غير خطة معينة • وهى عادة طرق وحارات متباينة الاتساع ، لكن الضيق هو

الصفة الغالبة • ومع ذلك نجد اتساعا طارئا ثم يعود الشارع للضيق • ويرجع ذلك الى حقيقة مقررة هى ان الشوارع والحارات والأزقة لم تسبق بناء البيوت ، بل هى ظاهرة تالية للبناء • ومن ثم فانها تتعرض للضيق أو الاتساع حسب امتداد المبانى أو تراجعها فيما يعتبره الناس ملكا لهم أو لعشائرهم وعائلاتهم من اراض داخل الأحياء التى تسمى باسم العائلة أو العشيرة المسيطرة عدديا أو تاريخيا • أما الشوارعالرئيسية فكانت فى الواقع عبارة عن ممرات أو طرق اختراق بين حى وآخر ، وهى بذلك نطاقات غير مملوكة لعائلات معينة ، ومن ثم تتسع وتضيق حيث يتراجع عمران حى أو يبرز خارج الكتلة الرئيسية للحى •

ونظرا لهذه الظروف فان الشوارع الرئيسية وحارات الأحياء وازقتها لم تكن خاضعة لاى تخطيط ، بل هى تتخذ مسارات مختلفة ، تستقيم أو تلتوى فى شتى الاتجاهات ، مما يعطى فى النهاية صورة شبيه ب «التواهة»•

وبرغم ذلك كان هناك بعض ضوابط تتكرر فى مدن الخليج وتعطى لهذه المدن نمطا متشابها فى هيكل الخطة الرئيسية • وأهم هذه الضوابط مايلى :

١ ـ بما ان غالبية هذه المدن تعيش على أساس اقتصاديات البحر فان « الفرضة » (الميناء) كان واحدا من أهم الظواهر الوظيفية لمدن الخليج • وبذلك كان للفرضة دورا فى تنميط خطة المدينة القديمة • فغالبية طرق الاختراق القادمة من الأحياء المختلفة تلتقى فى منطقة الفرضة •

٢ ـ وبما ان التجارة كانت جزءا مكملا لنشاطات السكان ، فان السوق كان يماثل الفرضة كقطب آخر فى حركة التقاء الطرق القادمة من الفرضة والأحياء •

٣ ـ كانت دروب السفر التى تخرج من المدينة الى داخلية البلاد عاملا من عوامل ضبط اتجاهات بعض الطرق الرئيسية فى المدينة ، خاصة تلك المتجهة الى السوق والفرضة •

وعلى هذا النحو يمكننا ان نتصور منطقة مركزية (الفرضة والسوق)

تنبعث منها الطرق الى الأحياء والى خارج المدينة • ولاتزال النواة القديمة موجودة كجزء صغير المساحة يميز مورفولوجية مدن الخليج الرئيسية • أما المدن الصغيرة كرأس الخيمة وأم القوين والخور فهى فى معظمها عبارة عن النوى القديمة مضافا اليها القليل من الامتدادات العمرانية الحديثة وبعض التحسينات الداخلية •

مورفولوجيا لاشك فى ان ضيق الطرق والظلال التى تلقيها المبانى والاسوار بالاضافة الى أرضية الشارع الترابية أو الرملية ، هى واحدة من نتائج التكيف البشرى مع البيئة الحارة ذات الاشعاع الشمسى العالى • ويكمل الصورة خامة الابنية (حجر أو طوب واخشاب وجدائل نباتية الخ ••) والأسقف الخشبية التى تميز بعض الطرق ، خاصة دروب السوق • وكلها مواد أكثر ملائمة لعزل الحرارة وتسمح بمرور تيارات هوائية دون العنف الذى تتسم به الشوارع العريضة المستقيمة الحالية ، ولا تعكس الحرارة الشمسية كما تفعل ارضيات الطرق الاسفلتية الحديثة ، أو الأبنية المصنوعة من الاسمنت والحديد والزجاج •

وقد دخلت تغيرات كثيرة على النويات المدينية القديمة • فبعض المبانى أو الأحياء ازيلت لتحل محلها طرق حديثة لايجاد محاور صالحة لوسائل النقل الحديث داخل النوى • ولكن بعض الحارات الضيقة ، بما فيها من مبان ومحال قديمة تستخدم الآن مخازنا أو سوقا للتجارة السلفية السياحية • وربما كانت محال صياغة الذهب التقليدية هى واحدا من أهم مؤشرات وجود النواة والسوق القديمة • وعلى هذا المقياس فان السوق القديمة فى الديرة (القسم الشرقى من مدينة دبى) هى أكثر اسواق الخليج التى حافظت على طابعها القديم دون تعديلات كثيرة (هذا الى جانب ان مجموعة من الظروف جعلت دبى سوقا للذهب له شهرته الاقليمية الواسعة) •

وللأسف فان المخططات الحديثة للمدن لا تأخذ فى الاعتبار كثيرا من القيم المعمارية التاريخية والجمالية والسياحية المتوافرة فى النويات القديمة • وبناء على ذلك فان شق طرق حديثة لاغراض المنفعة العملية يؤدى الى ازالة الكثير من المظاهر القديمة للنوى ، ما لم يقضى عليها كلية • ولاشك فى ان ذلك مرتبط بعملية التجديد المدينى داخل قلوب المدن • والحقيقة ان الموازنة

صعبة بين مجموعة قيم وبين فوائد نفعية غير منكرة • ولكل مدرسة فكر فى تخطيط المدن • وربما كان الأوفق الحلول الوسطى بالابقاء على نماذج من المعمار والخطة المعمارية القديمة ، بل وتجديد بعض معالمها – ابقاء على الروابط التاريخية • وحسنا فعلت حكومة قطر – على سبيل المثال – بتحويل وتجديد بعض المبانى الجميلة الى متحف قطر الوطنى ومعرض التنمية •

خلاصة القول ان الابقاء – بصورة أو أخرى حسب مقتضيات جمع من الامور – على النويات القديمة ، وتحسينها ، هو الفيصل بين ملل التكرار لنمط المدينة العصرية الذى نجده فى كل مكان ، وبين شخصية كل مدينة على حدة •

خطة المدينة الخليجية الحديثة :

اتخذت المدينة المعاصرة فى الخليج واحدا من الخطتين الشائعتين فى العالم :

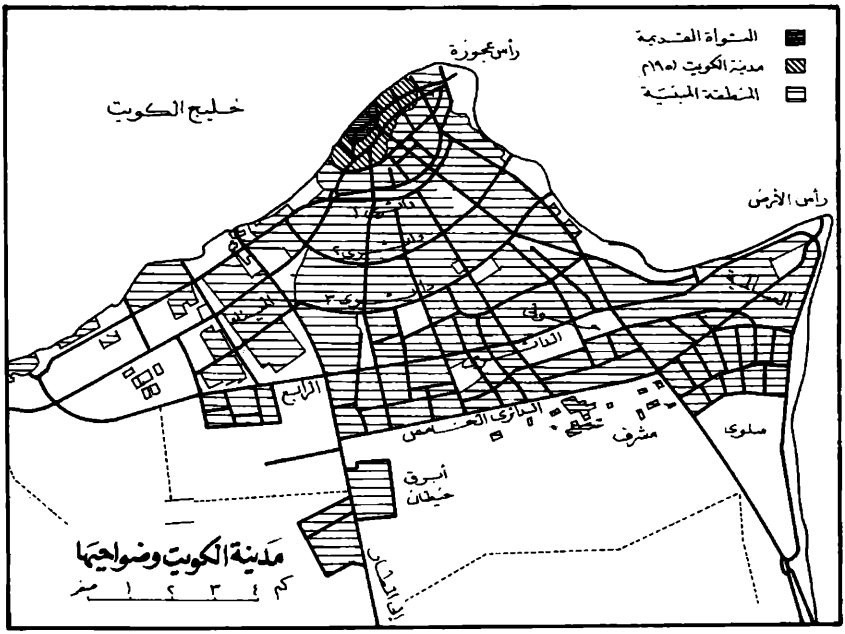
(أ) الخطة الحلقية الاشعاعية ، التى تقوم على أساس حلقات أو انصاف حلقات تتباعد عن المركز فى اتجاه أطراف المدينة ، تخترقها وتقطعها بزوايا غير قائمة ، طرق اشعاعية نابعة عن المركز فى صورة انصاف اقطار الدائرة • وفى العادة تمثل كل حلقة مرحلة من مراحل النمو المدينى ، مما يؤدى الى امكان اضافة حلقة جديدة بصفة مستمرة حتى تبلغ المدينة مرحلة شبه متوازنة فى نموها مع مقتضيات ظروفها الاقتصادية والسكانية •

(ب) الخطة الشبكية • وهى التى تقوم على اساس شكل مستطيل أو متوازى الاضلاع تخترقه مجموعة من الطرق الطولية المتوازية ، تقطعها بزاويا قائمة مجموعة أخرى من الطرق العرضية المتوازية • وتسمح هذه الخطة باستمرار نمو المدينة – نظريا – الى ما لا نهاية دون المساس بجوهر الخطة • بينما الخطة الحلقية غالبا ما تضع من ذاتها قيودا لا تتعداها كصورة مثالية لخطة الحلقة ، وبعد ذلك تتشكل الخطة العمرانية من انماط أخرى غير الحلقية •

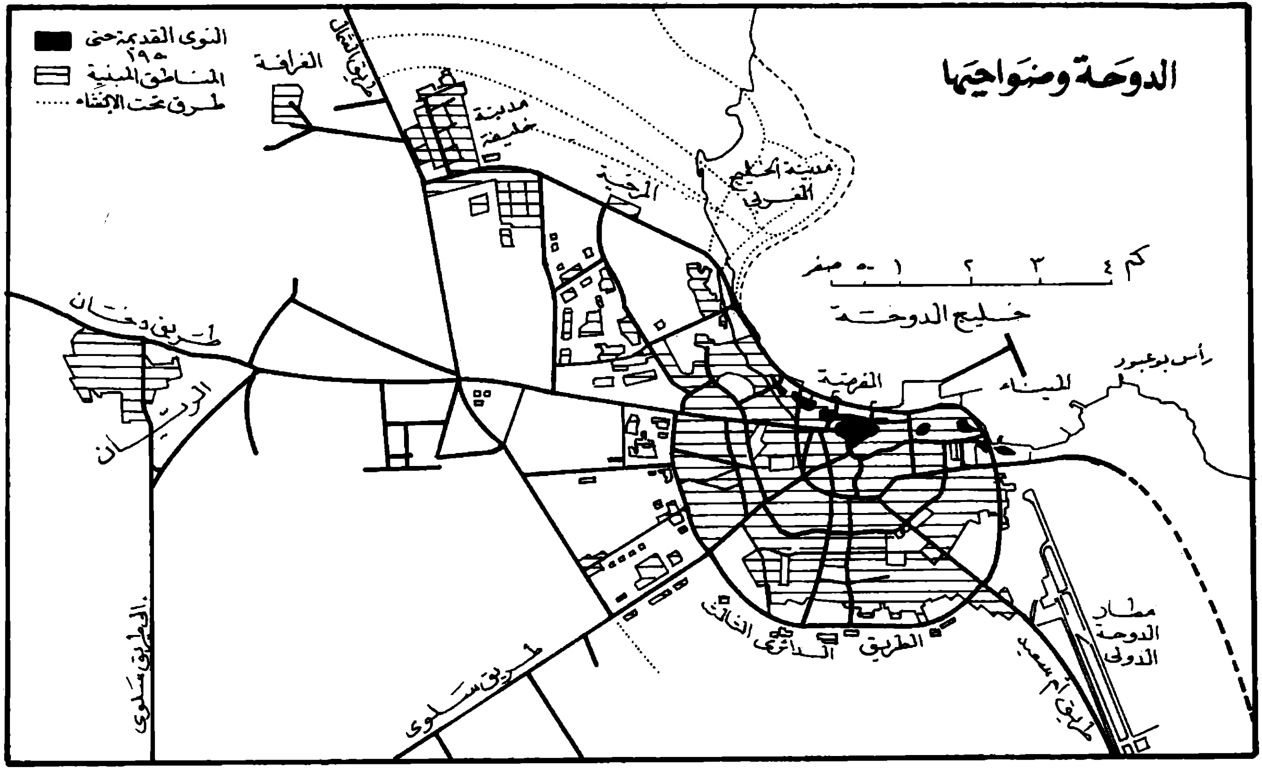
وبما ان لكل مدينة رئيسية فى الخليج مجموعة من الملزمات الطبيعة

والبشرية التى توجه ـ أو تساعد على توجيه ـ النمو المدينى ، فقد اتخذت خطط انماء المدن هذا النظام أو ذاك الذى يلائمها ، مع التعديل ، أو الازدواج اذا لزم الامر • ولعل أهم عوامل الالزام هو خط الساحل وشكل المساحة الارضية التى يمكن ان تمتد عليها رقعة المدينة •

وفي مدن الخليج تتضح الخطة الحلقية فى المخطط العمرانى لكل من مدينتى الكويت والدوحة ، وبصورة معدلة فى مدينة دبى • بينما المثال الواضح لخطة الشبكة هو مخطط مدينتى أبو ظبى والشارقة • وتميل المنامة الى خطة الشبكة ، لكنها معدلة كثيرا لظروف وحجم النويات القديمة والقرى التى نمت حولها المدينة الحالية •



الخطة الحلقية ـ مدينة الكويت



الخطة الحلقية ـ مدينة الدوحة

وتوضح خريطة مدينة الكويت المرفقة كيف كانت النواة القديمة وحتى عام ١٩٥١ تمتد على جزء صغير من ساحل خليج الكويت محمى بواسطة رأس عجوزة عن مياه الخليج المفتوحة(١٥) • وقد نمت المدينة بعد ذلك تدريجيا على نفس الساحل ، وفى اتجاه الغرب • وتوضح الخريطة كيف ان شكل الساحل شرق وغرب رأس عجوزة قد ساعد على اتخاذ خطة الحلقة كنمط متوافق للنمو العمرانى • وقد وصل النظام الحلقى الى حده الأمثل عند الحلقة الثالثة (الطريق الدائرى الثالث) وبعد ذلك تغيرت خطة المدينة الى نمط قريب من خطة الشبكة فيما بين الحلقات الثالثة والرابعة ، والرابعة والخامسة ، بما فى ذلك حولى والسالمية فى الجنوب ، والمنطقة الغربية ابتداء من حى الميناء • وفى الحقيقة تمثل الطرق الدائرة الرابعة والخامسة ومشروع السادسة ، خطوطا مستقيمة من الشرق للغرب وتشكل قاعدة المثلث العمرانى الكبير لمدينة الكويت • ويقف مطار الكويت وحقل بترول برقان عائقا أمام نمو المدينة جنوب الطريق السادس ، ومن ثم فان المدينة ــ كما اسلفنا ، وكما هو مخطط لها ــ ستمتد كشريط طولى بحذاء الساحل الشرقى فى نظام شبكى ابتداء من جنوب السالمية ، وحتى تلحق بالاحمدى والفحاحيل فى وسط جنوب دولة الكويت •

أما مدينة الدوحة فتمثل النظام الحلقى بصورة أكمل من تلك فى مدينة الكويت • وذلك راجع الى اختلاف علاقة المدينة وخط الساحل • فالكويت تحتل بروزا مثلث الشكل داخل البحر ، بينما الدوحة تحتل بطن الخليج المسمى باسمها والذى يمتد فى صورة قوس محدب تاركا للمدينة كل ظهيرها تمتد فيه دون حدود طبيعية تعوقه • ويتأكد احكام النظام الحلقى من نظرة واحدة الى مخطط الكتلة الرئيسية لعمران الدوحة •

وترتكز حلقات الدوحة على كورنيشها الضخم الموازى للبحر والممتد من قرب رأس أبو عبود فى الشرق الى الخليج الغربى فى شمال الكتلة الرئيسية للمدينة • ومن الكورنيش تبدأ الحلقة الأولى (الطريق الدائرى الأول) عند

---

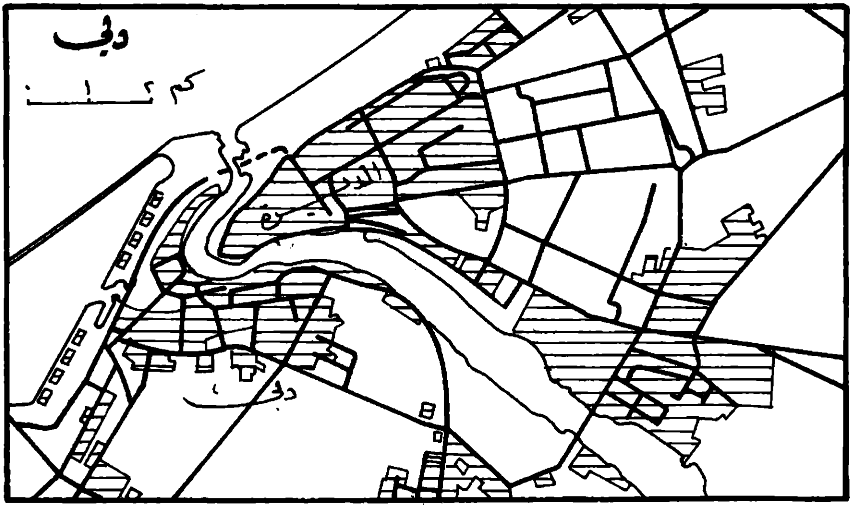
(١٥) حدود نواة مدينة الكويت تقريبية ومأخوذة عن صورة جوية منشورة فى مجلة العربى ص ٩٢ عدد ٢٠٤ نوفمبر ١٩٧٥ •

منطقة الميناء الحديث للدوحة (حى المرقاب الشرقى) • وتحيط الحلقة الأولى بمعظم الأحياء القديمة والفرضة القديمة والحى التجارى والمالى والادارى الحديث ، وتنتهى الحلقة على الكورنيش فى منطقـــة البدع ـ غربى قصر الدوحة بقليل • وتحيط الحلقة الثالثة الآن بمعظم مدينة الدوحة ، وتشكل مع الجزء الاكبر من الكورنيش حلقة كاملة • وليس من المتوقع أن تمتد حلقة خارجية أخرى خارج هذا الطريق الدائرى الثالث ، وذلك لوجود ابنية مطار الدوحة شرقى الدوار الثالث مباشرة • ولهذا فان الجزء الذى تم من الطريق الدائرى الرابع هو فى واقع الأمر طريق سريع يبدأ من طريق الشمال ويتقاطع، على التوالى ، مع طريق الغرب (الى منطقة بترول دخان) وطريق سلوى (المتجهة الى السعودية والامارات) وســـوف يمتد ليلتحق بطريق الجنوب المتجه الى الوكرة ثم منطقة أم سعيد الصناعية ومرفأ البترول •

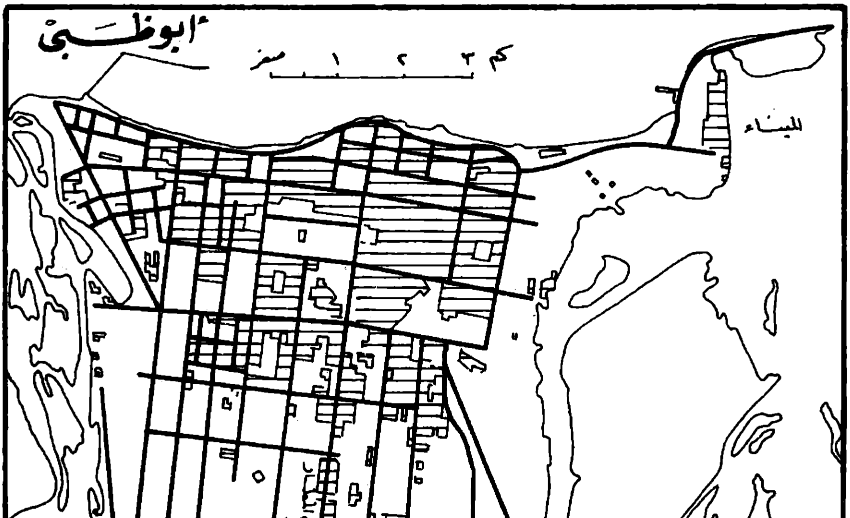
واذا كان الشكل الحلقى واضح فى معظم الدوحة ، الا انه ليس كذلك بالنسبة للامتداد العمرانى فى الأحياء الشمالية الغربية حيث تسود انماط قريبة فى عمومياتها من النظام الشبكى ، خاصة فى مدينة خليفة وفريق بن عمران • ولكن هناك عودة الى مخطط طرق الاقواس والمنحنيات مع المحـــاور الاشعاعية فى مشروع امتداد مدينة الخليج الغربى ـ وهى منطقة مكتسبة بردم الجزء الضحل الغربى من خليج الدوحة •

وتمثل مدينة دبى شكلا حلقيا معدلا استجابة الى وجود الخور الطويل الضيق الذى يشطر المدينة الى قسميها ـ الديرة فى الشرق ودبى فى الغرب • ونتيجة للشكل الملتوى الذى يأخذه مسار خور دبى ، فقد اصبحت خطـــة الديرة فى مجموعها أكثر شبها بالنظام المروحى ينبعث من قاعدة محدودة الاتساع ، ثم تأخذ المدينة فى الانتشار فى الاتجاهات الشرقية والجنوبيـــة الشرقية • أما القسم المسمى دبى فيتخذ نمطا قريبا من الشبكة ، لكنها تنثنى لتوازى مسار الخور • وبواسطة الجسر الذى اقيم على الخور فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة ، والنفق الذى يسير تحت فم الخور ، يكاد ان يكون الشكل الحلقى ، بصورة معدلة ـ هو خطة مجمع دبى المدينى بصورة اجمالية •

أما الخطة الشبكية فتظهر بصورة مثالية فى مخطط مدينة أبو ظبى •



الخطة المروحية ـ مدينة دبى



الخطة الشبكية ـ مدينة ابو ظبى

ويقع معظم المدينة فيالقسم الشمالى من جزيرة أبوظبى ، وهو القسم العريض من هذه الجزيرة التى تتخذ شكل الكمثرى ، رأسها فى الجنوب (وقد اقيم عليه جسر يربط الجزيرة بساحل الدولة) وقاعدتها فى الشمال فى مواجهة مياه الخليج المفتوحة • وقد استفادت المدينة من العرض النسبى للجزيرة فى قسمها الشمالى بنظام شبكي جيد يعتمد على طريق المطار كمحور للطريق الطولية ، يخترق المدينة من الكورنيش الى الجسر الذى يربط الجزيرة ببقية الدولة • وكان طريق المنهل (الذى يمر بقصر المنهل) وطريق زايد ، هما المحوران الأساسيين للشوراع العرضية • ويوضح مخطط أبو ظبى المرفق كيف ان ضيق الجزيرة فى الجنوب قد ادى الى احداث تعديل فى خطـــة الشبكة • فبعض الشوارع بدأت تتحرف موازية بذلك ساحل الجزيرةالغربى• ونظرا لحداثة أبو ظبى كمدينة كبيرة فانها تتشابه مع مدن المنشآت الصناعية فى الخليج ، فى انها تكاد أن تخلو من نواة سكنية قديمة مميزة الطابع(١٦)•

وقد اتبعت الشارقة فى مخططها العمرانى الجديد خطة الشبكة أيضا ، لكنها تختلف عن أبو ظبى فى ان نواة المدينة القديمة مازالت باقية • وقد كانت مدينة الشارقة قديما مدينة مزدهرة ، ومن ثم كانت نواتها كبيرة • أما مدينة المنامة فان مخططها وان كان أميل للشبكة ، الا انه اتسم بالعشوائية فى أحيان كثيرة لوجود عدد من العقبات نذكر منها كبر مساحة المنامة القديمة والتداخل مع قرى قديمة كانت قائمة فى شبه الجزيرة الصغير الذى تحتله المنامة الآن(١٧) •

جوانب من مورفولوجية المدينة الحديثة :

ان غالبية الشكل العمرانى الحديث لمدن الخليج قد بدأ منذ نحو ربع قرن ، وتبلور واتخذ طابعه المميز الحالى خلال السبعينات • وفى ظل الازدهار الاقتصادى السريع المعاصر ، فان هذه المدن قد نمت فى ظل عصر السيارة

---

(١٦) يقال ان بقايا مدينة ابو ظبى القديمة قد ازيلت مع التعويضات اللازمة ، لتسمح بتنفيذ خطة المدينة الجديدة دون عوائق •

(١٧) راجع محمد حلمى جعفر ص ٢٢٢ وما بعدها فى مقاله المضمن فى كتاب « دولة البحرين » منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٥ •

كوسيلة احتكارية لنقل الاشخاص والسلع · ومن ثم فان أهم مـــا يميز مورفولوجية مدن الخليج تلك الطرق والشرايين الطويلة التى توفر سيولة الحركة وسرعتها · وبالفعل فان فى هذه المدن فى مجموعها ـ بالمقارنة بكثير من مدن العالم المماثلة لها فى الحجم والمساحة ـ شبكة طويلة من الطرق المزدوجة السريعة ، وشبكة أطول من الطرق ذات الاتجاهين المرصوفـــة رصفا جيدا · وقد كان ذلك ممكنا بتوافر رأس المال الاستثمارى مع الطبوجرافيا المنبسطة والخالية من العقد التضاريسية ·

وفى هذا المجال يمكن ان نعقد مقارنة لسيولة الحركة بين مخططى الشبكة والحلقة · ففى نظام الشبكة يتعرض المحـــور الرئيسى الطولى أو العرضى (بمعنى أطول الطرق الطولية والعرضية وأكثرها تقاطعا مع غالبية الشوارع الاخرى) الى ضغط شديد لانه المدخل والمخرج للشوارع الأخرى المتقاطعـــة معه · وليس من هذا مهرب · وهو أمر شديد الوضوح مثلا فى شارع المطار أو شارع زايد فى مدينة أبو ظبى · بينما فى الخطة الحلقية يمكن استخدام حلقات متعددة أكثر سيولة والدخول مع المحاور الاشعاعية للطرق المتجهة الى مركز المدينة . وفى مقابل ذلك تقل سيولة الحركة داخل الحلقة الأولى من النظام الحلقى لأن كل الطرق المشعة تلتقى فى المساحة المركزية ، وتتعرض لاختناقات الحركة ، بينما يوجد فى الخطة الشبكية اختيارات كثيرة للخروج من المنطقة المركزية ·

وفى معظم مدن الخليج نظام « الدوار » أو « الصينية » عند التقـــاء الطرق الرئيسية ، ذات الحركة الكثيفة ، للتقليل من الحوادث ، وتنظيم المرور بدون اشارات ضوئية · وفى الاحوال العادية تقوم هذه الدوارات بتسهيل الحركة وتقليل الحوادث ، لكنها فى ساعات الحركة الكثيفة غالبا ما تحتاج الى شرطة المرور تجنبا للاختناقات ·

وايا كانت تجهيزات الطرق من حيث الاطوال والاتساع ووسائل تنظيم المرور فان الاعتماد الكلى على السيارة قد أدى الى نمو سريع لاعداد السيارات الخاصة والعامة والشاحنات وغيرها · وهو ما يترتب عليه مشاكل كثيرة فى انسياب الحركة ، وكاجراء تسهيلى حولت كثيرا من شوارع المنطقـــة المركزية الى طرق اتجاه واحد · ولكن نقص أماكن انتظار السيارات ـ وهو

واحد من الموضوعات التى يجب ان تنظر اليها مخططات التجديد المدينى بعين الاعتبار ـ يؤدى الى اقتطاع مساحات من الطريق · وربما كان من الاوفق ، كواحد من الحلول المساعدة ، زيادة عدد سيارات النقل العامة ـ سيارات أجرة وباصات ـ كوسيلة لتقليل اعتماد الناس على سياراتهم الخاصة ، وبالتالى تخف الضغوط على شوارع المنطقة التجارية · لكن عدد سيارات الأجرة مجمد أو ينمو ببطء شديد ، فضلا عن ارتفاع رسم استخراج تراخيص سيارات الأجرة بطريقة تكاد أن تكون مانعة ·

ولا شك فى انه من المنطقى أن تكثر عدد حوادث الطريق مع كثرة اعداد السيارات · لكن الملاحظ أيضا ان النسبة المطلقة للحوادث ترتفع لتجاوزات كثيرة قد يكون بعض اسبابها كثرة الذين لم يحسنوا القيادة بعد ·

ولسنا بحاجة الى ان نتكلم كثيرا عن اسواق مدن الخليج · فهى زاخرة بالمحال والبضائع وتشكل مركزا لجذب المتسوقين من مناطق كثيرة تمتد من الهند الى مصر ، وذلك للوفرة ولعدم وجود ضرائب جمركية على السلع · وبالرغم من تركز الاسواق في المنطقة المركزية الا ان هناك اتجاهات جديدة يلخصها (أ) اتجاه الى مزيد من المخازن الكبيرة التى تجمع سلعا منوعة فى مساحات كبيرة ، ولهذا فان هذا النمط يجد متسعا له فى الاماكن الجديدة العمران خارج الكتلة الرئيسية للمنطقة المركزية · (ب) اتجاه الى ظهور الحوانيت الصغيرة المتخصصة (بوتيك) التى تبيع سلعا محدودة النوع والكم لكنها ذات نزعة الى ذوق رفيع وسعر غال · وهذه الحوانيت تجد لها متسعا داخل النواة القديمة حيث لا حاجة لها الى مساحة كبيرة ·

أما مراكز الترفية فمازالت محدودة فى معظم مدن الخليج · وهى غالبا مرتبطة بالفنادق الفاخرة المنتشرة فى هذه المدن · ولاتزال الاندية الاجتماعية محدودة · ويمكن أن نستثنى من ذلك الكويت التى تنتشر فيها اعدادا لا بأس بها من المقاهى والاندية والمطاعم ودور السينما · ولعل الانتقال الحضارى التدريجى يولد فيما بعد مثل هذه الظواهر القائمة الآن فى الكويت· وتقوم الصحف والمجلات التى تصدر فى كل مدينة خليجية بدور هام فى التثقيف العام · ولا يفوقها فى ذلك سوى البرامج التليفزيونية التى اصبحت احدى الوسائل الهامة فى الاحتكاك الحضارى الى جانب الحركة الكثيفة لأهل

الخليج فى اتجاه بلاد العالم العربى والاوروبى ٠

وفى الختام يمكن ان نلخص التمايز العمرانى القائم حاليا بين مدن الخليج بمقارنة خط الافق لكل مدينة ٠ فالكويت وأبو ظبى ، والى حد كبير الشارقة ، نماذج جيدة لسيطرة العمائر العالية على خط أفق المدينة ٠ بينما تتخلل العمارات المتناثرة مساحات كبيرة من الافق المنخفض ، الذى تكونــــه البيوت والفيلات ذات الطابق أو الاثنين فى مدينة الدوحة ٠ وتجمع مدينة دبى بين هذين النمطين بصورة متوافقة ٠

تميم

تحركها وسياستها في العراق والخليج العربي في العصر الجاهلي

د. يحيى الجبوري
أستاذ ووكيل كلية الإنسانيات

منازل تميم :

تعد تميم من كبريات القبائل التي سكنت الجزيرة العربية ، وكان لها دور خطير في حياة الجزيرة في الجاهلية والاسلام(١) . وأبرز مساكن تميم صحراء الدهناء ببادية البصرة ، والدهناء واد يحدده الهيثم بن عدي فيقول : « الوادي الذي في بلاد بني تميم ببادية البصرة في أرض (بني سعد) يسمونه الدهناء ، يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعج ، ثم في غطفان فيسمونه الرمة ، وهو بطن الرمة »(٢) .

ونزلت تميم اليمامة ، واليمامة كما يقول الهمداني «حجر»(٣) وهي مصرها ووسطها وموطن الامراء ، ثم «جو» و «الخضرمة» و «العرض» واد بها من أعلاها الى أسفلها وفيه قرى ، وتعتبر اليمامة أكبر مقاطعة نجدية اهتم

---

(١) استوطنت تميم في بلاد نجد ، ثم نزلت نحو اليمامة ، وسكنوا بين اليمامة وهجر ، وتوغل بنو سعد بن تميم نحو الجنوب فسكنوا رمل يبرين مجاورين عبد القيس في قطر ، ومضت طائفة منهم الى عمان (معجم ما استعجم ـ البكري ١/٩٠) . وقد جاورت تميم في اليمامة بني حنيفة وحاضرة اليمامة (الحجر) (البكري ١/٨٥ ومختصر كتاب البلدان ص ٢٨). وقد حدد الاخنس بن شهاب التغلبي الشاعر موطن تميم في قصيدة له بين قف ورملة في قوله : (أنظر المفضليات ٢/٣) .

وصارت تميم بين قف ورملة ... لها من جبال منتأى ومذاهب

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان (الدهناء) .

(٣) هي قرب مدينة الرياض الحالية .

بها الباحثون القدماء حتى قيل ان نجدا من «اليمامة»(٤) • ومن اليمامة حجر وجو والعرض ووبرة وبيسان وبرقة ضاحك وتوضح : وهى كثيب رمل أبيض من كثبان حمر بالدهناء قرب اليمامة ، وهى من قرى قرقرى وهى زروع ليس بها نخل ، والمقراة ، ووادى مران •

وقرقرى أربعة حصون : حصن لكندة وآخر لتميم وحصنان لثقيف(٥) • وكذلك الوشم موضع باليمامة يشتمل على أربع قرى وبين الوشم وقراه ، مسيرة ليلة ، وبينها وبين اليمامة ليلتان(٦) • وفى اللسان : الوشم بلد ذو نخل به قبائل من ربيعة ومضر دون اليمامة قريب منها يقال له وشم اليمامة(٧) • وفى الوشم (أثيفية) وهى بلدة ولد بها جرير ، قال ياقوت : « أثيفية تصغير أثفية القدر ، قرية لبنى كليب ابن يربوع بالوشم من أرض اليمامة وأكثرها لولد جرير ••• وبها كان جرير ، وبها له مال ، وبها منزل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير »(٨) •

ونجد تميما فى القرن السادس تحتل مناطق واسعة من بلاد نجد وجزءا من البحرين واليمامة(٩) ، وتنحدر منازلها نحو الجنوب الى صحارى الدهناء ، وتصعد الى الشمال الشرقى نحو الفرات • وقد جاورت من القبائل بنى أسد فى الشمال ، وباهلة وغطفان فى الجنوب الغربى وببطون من عبد القيس وبنى حنيفة فى الشاطىء الشرقى والجنوبى ، وبكر وتغلب فى الشمال(١٠) •

وكانت بلاد تميم ممرا لتجارة الفرس الآتية من الشمال نحو الجنوب الى هجر وبلدان الخليج العربى والبحر الهندى وبالعكس • وكانت الفرص

---

(٤) عمر رضا كحالة ـ جغرافية جزيرة العرب ص ٢١٤ •

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان (حرف القاف) •

(٦) المصدر السابق ١٢١/١ •

(٧) لسان العرب مادة (وشم) •

(٨) ياقوت (اثيفية) •

(٩) يبدو ان سكن تميم فى البحرين قديم جدا يرجع الى قرب ميلاد المسيح ، ففى رواية ان سابور ذا الاكتاف اتى البحرين وفيها قوم من تميم فاوقع بهم وامعن فى قتلهم • انظر الطبرى ٦٧/٣ ومروج الذهب ١٥٨/١ ـ ١٥٩ •

(١٠) دائرة المعارف الاسلامية (تميم) •

مواتية لقبائل تميم للسطو على هذه القوافل وسلبها ، فقد وافق ان بعث وهرز من اليمن الى كسرى عيرا انتهبها بنو يربوع الذين حرضهم صعصعة بن ناجية المجاشعي ، وقد عرفت هذه الحادثة بيوم المشقر(١١) ٠

وكانت تميم بمنجاة من عدوان الفرس أو انتقامهم على الاغارات وسلب لطائمهم لبعدهم عن أرض فارس ، فقد أراد كسرى الانتقام من تميم حين أغاروا على لطيمته وانتهبوها ، فقيل له : « ان بلادهم بلاد سوء ، انما هي مفاوز وماؤهم من الآبار »(١٢) ٠

ويبدو أن تميما سكنت تهامة في فترة متقدمة من العصر الجاهلي ووثبت على البيت فاجتمعت عليها العرب وأجلتها عن تهامة(١٣) ٠ يسوق المرزوقي رواية حول الحزن ودور تميم فيه ، يقول : « كانت قريش تنطلق من مكة الى (دومة الجندل) فاذا أخذوا طريق الحزن فما كانوا يحتاجون لحماية أية قبيلة حتى يرجعوا ، كان ذلك بسبب مضر ٠٠٠ وعندما يغادرون الحزن أو يذهبون الى الحزن يردون مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم ، ولذلك فما كانوا يقلقونهم »(١٤) ٠

واذا علمنا ان الطريق الموصل من مكة الى الحزن كان تحت سيطرة القبائل المضرية ، وان الحزن نفسه كان ملك تميم(١٥) ، استطعنا ان نعرف أن نفوذ تميم لا يقتصر على اليمامة وهجر وأواسط نجد بل يمتد شمالا حتى دومة الجندل ٠

وكان نفوذ تميم في سوق دومة الجندل يرجع الى حلفها مع كلب(قضاعة)، أما سوق المشقر فقد كان بامرة رجل من تميم(١٦) ، ولعل ذلك يعود الى صلة

---

(١١) الطبرى ١/٧٤٨ ، ٩٨٤ وابن الاثير ـ الكامل ١/٢٠٤ ، ٢٠٩ ٠
(١٢) الطبرى ١/٩٨٤ ، وابن الاثير ١/٢٠٩ ٠
(١٣) الاغاني ١٩/١٠ ط ساسى ٠
(١٤) الازمنة والامكنة ٢/١٦٢ وانظر مكة وتميم ـ كستر ترجمة يحيى الجبورى ص١٥ ٠
(١٥) انظر Von Oppenheim - Kaskel : Die Beduinen 111 , 164 .
من مكة وتميم الترجمة العربية ص ١٦ ٠
(١٦) ابن حبيب ـ المحبر ص ٢٦٥ ٠

تميم بالفرس وكانت المشقر قاعدة مهمة للحكم الفارسي • وقد استطاعت تميم أن تسيطر على هاتين السوقين ، سوق دومة الجندل وسوق المشقر وعلى الطريق المؤدية اليهما ، وقد أمنت بذلك الحماية للقوافل القرشية الآتية من مكة نحو هذين الطريقين(١٧) •

ومن هذا نستطيع أن نتعرف على مسرح تميم في الجاهلية ، هذا المسرح الشاسع الذى يشمل معظم نجد ومنطقة الحزن ضاربا الى دومة الجندل شمالا ومتجها نحو الشرق حيث بادية البصرة فمنطقة الدهناء فالمشقر جنوبا فمنطقة هجر متوغلة في رمل يبرين ملتقية في عمان ومجاورة لقبائل الأزد ، أما من الغرب فيتجهون من اليمامة نحو البطاح حيث بنو يربوع ومنازل مالك ابن نويرة (وكانت تميم وبنو أسد أقرب القبائل التى ارتدت الى المدينة ولذلك بدأ بهم المسلمون وتوجه اليهم خالد بن الوليد) (١٨) ويصل نفوذهم نحو مكة • لقد كانت اليمامة هي مركز تميم ولكن نفوذها وتحركاتها كانت تشمل منطقة وسط الجزيرة وشرقيها بخاصة(١٩) •

واذ جاء الاسلام وتأسست الكوفة والبصرة ، نجد تميما تنزل هاتين المدينتين ويكون لها شأن فيهما أى شأن • فأما الكوفة فيذكر ان تميم الكوفة أقل بقليل من تميم البصرة ، وأبرز أسرة نزلت الكوفة هي أسرة زرارة بن عدس ، ويعدون بيوتات العرب وذوى الشرف والنسب العريق الذين نزلوا الكوفة : آل زرارة بن عدس من تميم ، وآل ذى الجدين من ذهل بن شيبان ، وآل حذيفة بن بدر الفزاريين من قيس عيلان ، وآل الاشعث بن قيس من كندة(٢٠) •

كانت الكوفة في مبدأ أمرها معسكرا للجند ـ وكذلك البصرة ـ تحشد فيها الجيوش لتوجه لفتح الأقاليم الشرقية ، ولذلك فقد روعى في تقسيمها

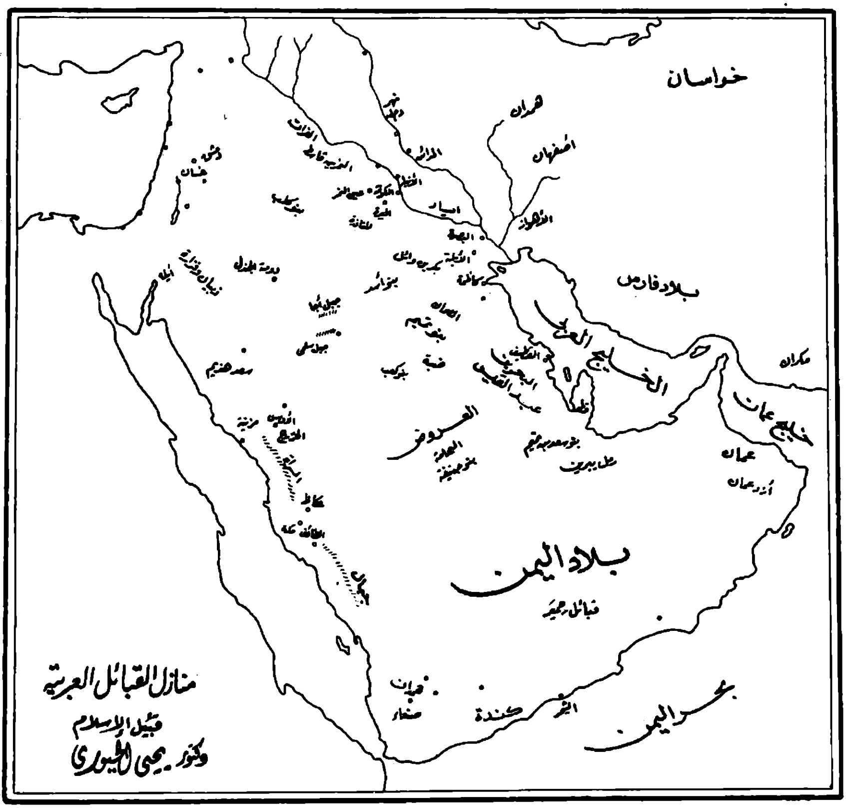
---

(١٧) انظر مادة : دومة الجندل في دائرة المعارف الاسلامية •

(١٨) النعمان عبد المتعال ـ شعر الفتوح الاسلامية ص ٤٤ •

(١٩) انظر مسرح تميم فى الخارطة •

(٢٠) ابن رشيق ـ العمدة ١٨٣/٢ وابو الفرج ـ الاغانى ١٠٥/١٧ وابن الفقيه ـ كتاب البلدان ص ١٧٣ •



خريطة منازل القبائل العربية قبيل الاسلام

الاعتبارات الحربية فقسم جند الكوفة أول الامر الى أعشار ، ويبدو ان نظام الاعشار كان قديما معروفا منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم(٢١) ، وتوزيع الجند الى أعشار حسب انتماءاتهم القبلية يسهل المهمة الحربية في سرعة الاستنفار وتوزيع الفيء والعطاء .

ولا نعلم عن أعشار الكوفة شيئا ، اذ سرعان ما كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب بتعديل نظام الاعشار ، فأقره عمر ، فاستأنس سعد بفريق من ذوي الرأي والمعرفة بالأنساب فحولوا أعشار الكوفة الى أسباع ، وكانت الاسباع على هذا النحو(٢٢) .

١ ـ كنانة وحلفاؤها من الاحابيش وغيرهم وجديلة (فهم وعدوان) .

٢ ـ قضاعة وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد .

٣ ـ مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم .

٤ ـ تميم والرباب وهوازن .

٥ ـ أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب .

٦ ـ اياد وعك وعبد القيس واهل هجر والحمراء .

ولم يذكر الطبري السبع السابع ، واجتهد ما سنيون انه لقبيلةطيء(٢٣) معتمدا على تصنيف القبائل في زمن علي بن أبي طالب في الكوفة(٢٤) .

ثم عدل هذا التصنيف قبيل وقعة الجمل ، فكانت تميم في سبع مع قريش وكنانة وأسد والرباب ومزينة(٢٥) . وحين ولي زياد الكوفة سنة خمسين من الهجرة جعل الكوفة أرباعا على هذا النحو(٢٦):

---

(٢١) الطبري ٣/٨ وانظر احسان النص ـ العصبية القبلية ص ٢١٩ .
(٢٢) الطبري ١٥١/٣ .
(٢٣) خطط الكوفة ص ١١ .
(٢٤) الاخبار الطوال ص ١٥٥ واحسان النص ص ٢٢٠ .
(٢٥) ماسينيون ص ١١ .
(٢٦) الطبري ١٥٢/٣ والعقد الفريد ٨/٥ وماسينيون ص ١٥ ـ ١٦ .

١ ـ تميم وهمدان ·

٢ ـ ربيعة وكندة ·

٣ ـ مذحج وأسد ·

٤ ـ أهل المدينة (قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة) ·

وقد وهم ماسينيون(٢٧) حين سمى الربع الرابع (أهل العالية) فأهل العالية خمس من أخماس البصرة ، وهو يقابل ربع أهل المدينة بالكوفة(٢٨) · ولا نعرف بالتفصيل الدوافع التى جعلت زيادا يعمل هذا التغيير ، ويبدو انه كان ينظر الى القبائل من حيث نسبها وسكنها فى الجاهلية ، فقد رد القبائل الى فروعها ، فالحق قبائل قضاعة ومهرة وحضرموت بكندة ، وألحق حمير بهمدان ، والأشعر وطىء بمذحج ، وقد لاحظ أن مجموعة من القبائل المضرية واليمنية كانت تسكن الحجاز فى الجاهلية مثل قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة ، فجعلها فى ربع أهل المدينة ولعل زيادا أراد أن يجمع بين القحطانية والعدنانية ليزيل العداء القبلى ويخفف من شأن العصبية ·

وقد جعل زياد على كل ربع رئيسا ، ولا يشترط فى هذا الرئيس أن يكون من القبيلة نفسها ، فقد جعل خالد بن عرفطة العذرى مولى بنى زهرة على ربع تميم وهمدان ، وجعل قيس بن الوليد بن عبد شمس على ربع ربيعة وكندة ، وأبا بردة بن أبى موسى الأشعرى على ربع مذحج وأسد ، وجعل زياد بن عمرو بن حريث المخزومى على ربع أهل المدينة(٢٩) ·

وقد نزل بجوار تميم أحلافهم من الديلم ، فقد كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون (جند شاهنشاه) فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم فى العطاء ، فاعطوا ما سألوا وحالفوا زهرة بن حوية السعدى من بنى تميم ، وأنزلهم سعد بحيث اختاروا

---

(٢٧) خطط الكوفة ص ١٦ ·

(٢٨) الطبرى ٥/٣٢٩ ·

(٢٩) الطبرى ٤/١٩٩ ·

وفرض لهم في ألف ألف ، وكان لهم نقيب يقال له ديلم ، فقيل حمراء ديلم(٣٠) وقيل ان هؤلاء الحمراء ســـألوا عن أمنع قبائل العرب ، فقيل لهم تميم ، فحالفوهم وصاروا في عدادهم(٣١) ٠

وهكذا فان استقرار القبائل في الكوفة قد تم وفق الأسس القبلية حيث نظر الى صلات النسب والأحلاف التي عقدت بين القبائل ، فاختطت القبائل منازلها في الأماكن المحددة لها ، واجتمع شمل أبناء القبيلة في وحدة سكنية فرضتها طبيعة الظروف الحربية العسكرية ، فعاشت الكوفة لذلك ومنذ أول تأسيسها حياة قبلية ٠

ويلاحظ في تأسيس الكوفة ان القبائل اليمنية كانت أكثر عددا من القبائل النزارية فيقدر المؤرخون(٣٢) تعداد القبائل اليمنية باثني عشر ألفا ، والقبائل النزارية بثمانية آلاف ، وقد لاحظ المؤرخون أيضـــا أن السيطرة والسيادة في الكوفة كانت للقبائل اليمنية المتحضرة مثل مذحج وهمـــدان وكندة(٣٣) وقد ضمت الكوفة عناصر يمنية وحجازية متحضرة الى جانب قبائل أعرابية شديدة البدواةمن رعاةالابل أهل الوبر وخاصةمن بني دارم التميميين وجيرانهم قبيلة طيء(٣٤) ٠

أما البصرة التي مصرت قبل موقعة القادسية في عام ١٤ هـ عـــلى الأرجح(٣٥) فقد كان لتميم فيها النصيب الأوفى ، جاءت جماعات من بني تميم مع عتبة بن غزوان وسويد بن قطبة الذهلي مع جموع من بكر بن وائل ، ثم صارت جموع تميم تتوافد على البصرة وتستقر فيها(٣٦) ٠ وكانت البصرة منطلقا الى الأهواز وفارس وميسان ، وكان لتميم السبق في فتح خراسان ، فقد أوكل الى سيد تميم الأحنف بن قيس بفتح خراسان وعقدت له الراية

---

(٣٠) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٧٩ ٠

(٣١) الطبري ١/٢٢٦١ ط ليدن ، يوهان فلك ـ العربية ص ١٧ ـ ١٨ وماسينيون ص ١١ ٠

(٣٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٧٦ ، ياقوت ـ معجم البلدان ٢٦٧/٧ ٠

(٣٣) ولهوزن ـ الدولة العربية ٠

(٣٤) ماسينيون ـ خطط الكوفة ص ١٢ ، ١٣ ٠

(٣٥) الطبري ٨٩/٣ وفتوح البلدان ٤٢٥/٢ ٠

(٣٦) ياقوت ـ معجم البلدان ٦٣٨/١ البلاذري ٤١٩/٢ ابن الفقيه ـ البلدان ص ١٨٨ ٠

وصار واليا على خراسان ، وكان لقرب منازل تميم من البصرة ان نزحت من اليمامة وهجر والبحرين الى البصرة واتخذتها موطنا ومستقرا ، وكان فى طليعة القبائل التى نزلت البصرة عند تمصيرها قبائل من تميم وربيعة والأزد ، وكان لغلبة هذه القبائل الثلاث وكثرتها العددية وقلة تنوع القبائل ان جعل البصرة تقسم الى أخماس ، بينما كثرة تنوع القبائل فى الكوفة دعاهم ان يقسموها الى أسباع ، أما أخماس البصرة فهى :

١ ـ تميم وضبة والرباب(٣٧) ٠
٢ ـ عبد القيس(٣٨) ٠
٣ ـ بكر بن وائل(٣٩) ٠
٤ ـ الأزد(٤٠) ٠
٥ ـ أهل العالية (وهم قريش وكنانة وقيس عيلان والأنصار وطوائف من قبائل أخرى)(٤١) ٠

وكان لقبيلة تميم(٤٢) المكانة الكبيرة والشأن الرفيع فى البصرة ، فهم مؤسسو البصرة الحقيقيون ، ويلاحظ شارل بلا(٤٣) ان الطبقة الفكرية والسياسية والدينية فى القرن الأول الهجرى هى فى غالبيتها من تميم ، وتميم هى التى أعطت البصرة طابعها السنى ٠

وكما حالف الديلم التميميين ونزلوا فى جوارهم فى الكوفة ، فقد

---

(٣٧) يقع خمس تميم فى الجنوب الغربى من البصرة حتى نهر الاساورة جنوبا وتمتد منازلهم الى المربد غربا وهناك جبانة بنى مازن من تميم ٠ الطبرى ٣١٢٢/١ ٠

(٣٨) فى شرقى البصرة عند نهر معقل ودار الرزق ٠

(٣٩) فى الشمال والشمال الغربى من البصرة ٠

(٤٠) فى الجنوب الغربى قرب وادى العقيق ٠

(٤١) نزلوا فى الجنوب الشرقى من البصرة ، ونزلت ثقيف قرب المسجد الجامع الى الجنوب أنظر الطبرى ٤٧٨/٤ ، ٥٥٩ ، ٣٣٠/٥ ، ونصر بن مزاحم ـ وقعة صفين ص ١٣١ ٠

(٤٢) الملاحظ ان القبائل المضرية تتمثل فى خمس تميم وخمس أهل العالية ، أما القبائل الربعية فتتمثل فى خمس بكر بن وائل وعبد القيس ، ويمثل القبائل اليمنية خمس الأزد ٠

(٤٣) الجاحظ ص ٥٣ ٠

انضم الأساورة الى تميم فى البصرة ، ذكروا ان سياه الاسوارى كان على مقدمة يزدجرد فلما رأى ظهور الاسلام وعز أهله أرسل الى ابى موسى يعرض عليه الدخول فى الاسلام وان يقاتل العجم المشركين ، وان وقع خلاف بين العرب لا يشتركون فيه ، وان ينزلوا حيث شاءوا ، وان يكونوا فى العطاء ● فكتب أبو موسى الى عمر فوافق على جميع ما سألوا ● فسألوا عن الأحياء أى الأحياء أقرب نسبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل بنو تميم ، فحالفوهم ، ثم خطت لهم خططهم فنزلوا ، وحفروا نهرهم الذى يعرف بنهر الأساورة(٤٤) ● وقال المدائنى : أراد شيرويه الأسوارى ان ينزل فى بكر بن وائل مع خالد بن المعتمر وبنى سدوس ، فأبى سياه ذلك ، فنزلوا فى بنى تميم ولم يكن الأزد بالبصرة ولا عبد شمس ، ثم انضم الى الأساورة السيابجة وكانوا قبل الاسلام بالسواحل وكذلك الزط وكانوا بالطفوف يتتبعون الكلأ ، فلما اجتمعت الأساورة والزط والسيابجة تنازعتهم بنو تميم فرغبوا فيهم فصارت الأساورة فى بنى سعد ، والزط والسيابجة فى بنى حنظلة(٤٥) ●

أما دور تميم فى البصرة فتقع فى الجنوب الغربى من المدينة ، وان حدود منطقتهم امتدت الى (الجبان) مقبرة البصريين ، ويقال ان مالك بن مسمع البكرى انقض من سكة المربد على بنى العدوية من تميم وحرق ديارهم(٤٦) ●

وكان جل سكان البصرة من تميم وهم قبائل ، منهم بنو سعد وبنو العنبر ومالك بن العنبر ومجاشع ونهشل والهجيم والفقيم والغدان ومازن والهجريون وبنو عسل وبنو العم وكان بنو العم فى الأهواز ثم انتقلوا الى البصرة أيام عمر بن الخطاب وارتبطوا بتميم ، ويرى بعضهم ان أصلهم كالمدفوع(٤٧) ● أما بنو سعد فتدخل فيهم عشيرة قليب ، وفى مالك بن العنبر يدخل عامر ، وفى عداد مجاشع شعيراء وعامر بن زيد ، وفى نهشل بهر بن ربيعة ورزام وكعب بن شقرة ، وفى الهجيم بنو العنبر بن عوف ، وفى الفقيم أبان بن دارم

---

(٤٤) البلاذرى ص ٣٦٦ ط رضوان ●
(٤٥) البلاذرى ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ ●
(٤٦) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٣١ ط بريل ١٩٠٨ ●
(٤٧) الاغانى ٢٥٧/٣ ط دار الكتب ●

الكردوسان(٤٨) ٠

وكذلك مدت تميم نفوذها في خراسان ، كـــانت البوادر الأولى لفتح خراسان في زمن عمر بن الخطاب ، وفي زمن عثمان بن عفان توغل المسلمون في خراسان وثبتوا أقدامهم وبخاصة ابان ولاية عبدالله بن عامر على البصرة، فقد عقد هذا ألوية الجيوش لرؤساء قبائل البصرة البارزين وفي طليعتهم الأحنف بن قيس وعبدالله بن خازم السلمي وقيس بن الهيثم السلمي(٤٩) ، وقد تم فتح أكثر خراسان على يد القبائل البصريـة وان شـــاركت القبائل الكوفية بجزء من هذه الفتوح ففتحت بلخ(٥٠) ٠ ولم يستوطن العرب في خراسان ابان هذه الفترة وانما كانوا يكتفون بالفتح ثم يعودون أدراجهم بعد ان يتركوا حامية منهم في تلك البلدان ، حتى اذا كان زمن زياد في البصرة عام ٤٥ هـ نجد القبائل تستوطن بلاد خراسان وتستقر فيها ، وكانت سياسة زياد في اضعاف المعارضين للحكم الأموي أن هجّر عام ٥١ هـ مع الربيع بن زياد خمسة وعشرين الفا بعيالهم من أهل البصرة ومثلهم من أهل الكوفـــة فأنزلهم دون النهر بخراسان(٥١) ، ويبدو ان مجموعات من قبائل البصرة كانت ترحل الى خراسان فصارت الغلبة لهذه القبائل هناك في حين كان عدد الكوفيين يقل بالتدريج ٠ وقد أدى فتح خراسان من قبل القبائل البصرية ان جعلت خراسان تابعة للبصرة ، وكان والي البصرة عبدالله بن عامر هو الذي يعين ولاتها زمن عثمان ، وفي العصر الأموي نجدها تلحق بأمير البصرة تارة ، أو تفرد بوال مستقل تارة أخرى ٠

ومن مراجعة النصوص التاريخية نجد ان الغلبة العددية في خراسان للقبائل المضرية ثم لربيعة ثم صار للأزد شأن في ولاية المهلب بن أبي صفرة عام ٧٨ هـ(٥٢) ، وفي ولاية قتيبة بن مسلم تظهر القبائل المضرية على مجموع

---

(٤٨) الحياة الادبية في البصرة ص ٧٨ ـ ٧٩ ٠

(٤٩) الطبري ٢٤٤/٣ وما بعدها والبلاذري ٤٩٩/٣ وما بعدها ٠

(٥٠) الطبري ٢٤٥/٣ ٠

(٥١) الطبري ٥٠٧/٣ و ١٠٧/٤ والبلاذري ٥٠٧/٣ ٠

(٥٢) النقائض ٣٦٥/١ ٠

القبائل هناك ، وأكثر هذه القبائل من تميم(٥٣) ، ويذكر الطبرى ثبتا باعداد المقاتلة وقبائلهم فى خراسان ابان فتنة قتيبة بن مسلم سنة٩٦ هـ يتضح منه ان تميما واحلافها كانت أكثر القبائل هناك وكذلك الأزد ، ومن الثبت نرى الأعداد التالية :

١ ـ تميم : عشرة آلاف ـ ٢ ـ الأزد : عشرة آلاف ـ ٣ ـ أهل العالية (قيس وغيرها) تسعة آلاف ـ ٤ ـ بكر وائل : سبعة آلاف ـ ٥ ـ أهل الكوفة : سبعة آلاف ـ ٦ ـ الموالى : سبعة آلاف ـ ٧ ـ عبد القيس : أربعة آلاف(٥٤) ٠

لقد توسعت تميم فى خراسان وحالفتها بعض القبائل التى تشاركها فى النسب مثل ضبة والرباب ومزينة ، وكان رئيس هذا الحلف فى زمن قتيبة بن مسلم ضرار بن حصين الضبى(٥٥) ٠

ومن خلال الأحداث والاضطرابات التى شهدتها خراسان نجد ان لتميم الدور البارز فى هذه الأحداث وفى شتى الأصقاع ، فهم يقاتلون عبدالله بن خازم الذى منعهم الاستقرار بهراة ، ويقتلون ابنه محمدا ، وحاربوه بمرو الشاهجان ومرو الروذ ونيسابور(٥٦) ثم قتله بحير بن ورقاء التميمى ، ومعنى هذا ان نشاط تميم كان يستغرق اقليم خراسان من نيسابور شرقا الى طخارستان مرورا بهراة ومرو الروذ حيث قصر الأحنف بن قيس التميمى(٥٧) ٠ ثم ان قتيبة قد فتح بخارى والصغد بسيوف تميم(٥٨) ٠

أما الحارث بن سريج التميمى فكان قد ثار واكتسح أكثر مدن خراسان

---

(٥٣) الطبرى ٢٧٦/٥ ٠

(٥٤) يبدو أن هذا الرقم الذى يذكره الطبرى عن تميم غير دقيق ، فقد كانت تميم أكبر من هذا العدد بكثير بدليل أن أبا عبيدة فى كتابه عن خراسان يذكر ان مقاتلة تميم كانوا اربعة وعشرين ألفا ٠ نقائض جرير والفرزدق ٣٦٨/١ ٠

(٥٥) الطبرى ٢٧٧/٥ ٠

(٥٦) الطبرى ٥٩٣/٧ وابن الاثير ٢٠٨/٤ ٠

(٥٧) راجع لسترانج ـ بلدان الخلافة الشرقية ، خارطة اقليم خراسان ٠

(٥٨) الطبرى ١٢٠١/٨ وابن الاثير ٥٤٢/٤ ٠

وكاد أن يستولى على مرو الشاهجان فى ولاية عاصم بن عبدالله الهلالى(٥٩) ، ومن الواضح ان قبيلة تميم كانت أكبر القبائل العربية فى خراسان طيلة الحكم الأموى وان قبيلة الأزد تأتى بالمرتبة الثانية(٦٠) ٠

كانت مرو الشاهجان حاضرة خراسان ، وكانت مركزا للادارة الحربية والمدنية ، ويبدو ان العرب قد اختلطوا بسكان البلدان المحليين وساكنوهم وخاصة فى زمن الكرمانى الذى سيطر عليها ، وتدل أخباره ، انه هدم دور المضرية(٦١) ، ومعنى هذا انه كان لتميم وغيرها من القبائل سكن فيها ٠ وقد استقر العرب بالقرى المحيطة بمرو الشاهجان وقد عرف بعض هذه القرى بنسبتها الى أسماء القبائل العربية ، فيذكر الطبرى ان هناك قرية لطىء يقال لها يونيه(٦٢) وأخرى لحرب بن عامر(٦٣) وقريةلكندة وقريةلبنى العنبر(٦٤) وقرية لخالد بن ابراهيم(٦٥) وقرى لخزاعة مثل بالين أو اللين وقرية سفيذنج وقرية فنين(٦٦) ٠

وكانت أرض تميم وبكر متداخلتين فى شرقى خراسان ، وتتنازع القبيلتان على بعض الأماكن ، كل منهما تدعى انها هى التى احتلتها قبل الأخرى ، وقد امتدت منافسة هاتين القبيلتين الى سجستان أيضا(٦٧) ٠ وكان الصراع بين القبائل على قرية بعينها فتشترك فيها أكثر من قبيلة مثل قرية (خلم) التى اشترك فيها الأزد وتميم وقيس(٦٨) ٠ ونزلت قبائل من تميم والأزد وبكر فى البروقان التى تبعد فرسخين عن بلخ أكبر مدن الاقليم

---

(٥٩) الطبرى ١٥٧٥/٩ ٠
(٦٠) نقائض جرير والفرزدق ٣٦٨/١ والطبرى ١٦٦٣/٩ ٠
(٦١) الطبرى ١٩٣٤/٩ ٠
(٦٢) الطبرى ١٠٢٦/٨ ٠
(٦٣) الطبرى ١٨٦٢/٩ ٠
(٦٤) الطبرى ١٥٧٩/٩ ٠
(٦٥) الطبرى ١٩٥٢/٩ ٠
(٦٦) الطبرى ١٩٥٢/٩ ، ١٩١٤ ٠
(٦٧) ولهوزن ـ تاريخ الدولة العربية ص ٣٩٥ ٠
(٦٨) ياقوت ـ معجم البلدان ٤٦٥/٢ ٠

الشرقى فى خراسان ، ثم كثرت القبائل هناك حتى حول أســـد بن عبدالله القسرى المقاتلة من البروقان الى بلخ وبنى لهم فيها دورا ونقل الدواوين اليها وعمرها بعد ان كانت خرابا(٦٩) ٠

ويتحدث اليعقوبى عن المدن التى سكنها العرب فى خراسان فيقول : « فى جميع مدن خراســـان قوم من العرب من مضر وربيعـة وسائر بطون اليمن »(٧٠) ، ومن هذه المدن نيسابور وطوس ومرو الشاهجـــان وهراة ويوشنج(٧١) ، وقد كان لتميم سكن فى هذه المدن وبخاصة فى مرو الشاهجان حيث جاوروا الأزد(٧٢) ٠

ولكثرة تميم وقوتها فى خراسان فقد أرادوا ان يحكموها ويتصرفوا فى شئونها ، وقد وعدهم بذلك عبد الملك بن مروان وتعهد لهم حين كانت خراسان فى حوزة عبدالله بن خازم السلمى ، ولذلك فقد كان زعماء تميم من مثل بكير بن وشاح وبحير بن ورقاء يتحرون زلات أمية بن عبدالله ويشاغبون عليه ويضجون بالشكوى من زيادة الخراج وسلطان الدهاقين وشدتهم فى الجباية(٧٣) ٠ وقد كانت القبائل تنقسم الى قسمين كبيرين متنافسين ، الأول يتكون من تميم وقيس ، والثانى من بكر ، وبعد سنة ثمان وسبعين كثر الأزد بخراسان وعظم نفوذهم بمجىء المهالبة وانحازوا الى بكر بسبب الحلف الذى كـــان يربط بين القبيلتين فى البصرة ، فصارت الأزد وبكر وعبد القيس فى جهة ، وتميم وقيس فى جهة أخرى تمثلان المعارضة(٧٤) ٠

هذه أهم المنازل التى نزلتها تميم فى جاهليتها واسلامها ، وهى منازل تمثل رقعة واسعة من أرض الجزيرة والأمصار الاسلامية المفتوحة ، ومنازل تميم هذه تمثل خط سيرهم وهجرتهم فى الفتوح التى كان لهم فيها البلاء الكبير ، وتمثل سعة الأرض التى شغلوها ضخامة قبائل تميم وقوتهم وكثرة نشاطهم ومشاركتهم فى الحياة القبلية والسياسية بقوة وحيوية ٠

---

(٦٩) الطبرى ١٤٩٠/٩ ٠
(٧٠) تاريخ اليعقوبى ص ٢٩٤ ط النجف ١٩٦٤ ٠
(٧١) المصدر السابق ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠ ٠
(٧٢) السابق ص ٢٧٩ ٠
(٧٣) الطبرى ١٠٢٩/٨ ٠
(٧٤) الشعر بخراسان ص ٧٣ ٠

سياستها الحربية :

رأينا ان تميما تشغل مساحة كبيرة في الجزيرة والخليج العربي وبلاد خراسان وقد كان سلطان تميم يمتد من بادية البصرة حتى الحجاز مرورا بنجد ، ومن تخوم الحيرة وبادية الشام حتى اليمامة ، وقد كانت تجاور الأزد في عمان ورمل يبرين وبني حنيفة في اليمامة ، وعبد القيس في البحرين والدهناء ، وبكر بن وائل في بادية البصرة ، والمناذرة اللخميين في الحيرة ، وبني أسد في جبل أجأ ، والغساسنة في دومة الجندل ، وبني عامر بن صعصعة في فيد وبلاد نجد ، وغطفان في تيماء • وهكذا فهي تجاور مجموعة كبيرة من القبائل العدنانية والقحطانية • وقد كان لتميم أيام وحروب مع هذه القبائل جميعا، فحياتها في الجاهلية سلسلة من المعارك والغزوات والانتصارات والهزائم ، فهي قبيلة كبيرة كثيرة البطون واسعة الفروع منتشرة في انحاء الجزيرة ، وقد كانت من القبائل القوية التي يحسب حسابها ويعرف خطرها ، وكانت قبيلة أعرابية بدوية لاتخضع للملوك ولا تنضوي تحت لواء قبيلة أخرى ، بل كانت تتمرد على السلطان وتخضع لسلطتها القبائل وتجعلهم في حماها وتحت لوائها •

وسنحاول ان نضيء حياتها وطبيعة علاقاتها بالفرس وحكام الحيرة وقبائل اليمن وربيعة وقيس ، وسنجد أن هذه الصلات والحروب كان لها آثارها في حياة القبيلة في العصر الاسلامي وبخاصة في زمن الأمويين في البصرة وخراسان وتحدد مواقفها السياسية على ضوء عصبياتها ونظرتها للقبائل المنافسة وموقفها من السلطة وبخاصة الأزد •

١ ـ الصراع ضد النفوذ الفارسي :

كانت بطون من تميم ترعى في تخوم الحيرة ، وكانت أرض تميم ممرا للقوافل التجارية التي تأتي من العراق وفارس قاصدة هجر والبلدان الواقعة على الخليج العربي ، وكان الفرس يدفعون لرؤساء تميم مبالغ نظير خفارة تجارتهم وحمايتها ما دامت في اراضيهم • وكثيرا ما كانت تميم تنتهب القوافل الفارسية وتسطو على أموالهم ، وكان من جملة ما انتهبوا قافلة وهرز التي بعثها من اليمن الى كسرى فسلبها بنو يربوع وبسببها كانت حادثة المشقر التي سنعود اليها • وكان ملوك الفرس يحاولون اخضاع القبائل العربية لسلطانهم باستمالتهم بالهبات والعطايا أو الاقطاعات حينا ، وبتحريض

القبائل واستغلال الخلافات القبلية حينا آخر ، وبالقوة والحرب فى حين ثالث • وقد تمكن الفرس من اخضاع بكر وتغلب لسلطانهم لأنهما كانتا نازلتين على تخوم الفرس ويرعون فى أرضهم ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون التوغل داخل الجزيرة ، ولذلك فان بطونا من تميم كانت تخضع للفرس بحكم منازلهم ، أما الفروع الأخرى فقد كانت متمردة على سلطان الأعاجم ، وكثيرا ما كانوا يغيرون على حامياتهم وينهبون أموالهم وابلهم وقد كان لسعة بلاد تميم وتوغلها فى رمال الجزيرة خير منجى لها من جند الأكاسرة واعوانهم المتمثلين بحكام الحيرة ، فقد أراد كسرى ان يوقع بتميم بعد أن نهبوا لطائمه فحذره أعوانه بان « بلادهم بلاد سوء ، انما هى مفاوز وماؤهم من الآبار »(١) •

وكان الفرس مضطرين الى اتباع سياسة المهادنة وكسب ولاء القبائل بالمنح والعطايا ولكن اذا أتيحت لهم الفرصة لضرب القبائل فلا يترددون فى ضربها واذلالها وتسيير الجيوش لكسر شوكتها أو ضرب القبائل بعضها ببعض وبخاصة تلك التى كانت بينها عصبية واحن وأحقاد •

وكانت بعض القبائل لا تدين للملوك ولا تذعن لطاعتهم ، وعرفت تلك القبائل بـ (اللقاح) وأهمها مضر ، وأهم قبائل مضر فى هذا هى تميم ، ويذكر ابن حبيب بان تميما كانت لقاحا لا تذعن لسلطان الحاكمين الا بعض بطون تميم ممن كانت مساكنهم متاخمة لأراضى الفرس فى اليمامة وما جاورها(٢) ، فمن سياسة الفرس فى اتقاء شر تميم بالمنح واجتذاب رؤسائهم وتقريبهم بالاقطاعات ، ان عمد كسرى الى حاجب بن زرارة فأعانه على الجهد والجدب ، ولكى يضمن عدم اغارة تميم على ممتلكاته رهن حاجب عنده قوسه ضمانا بالوفاء(٣) •

وكذلك قربوا زيدا العبادى وابنه عدى بن زيد العبادى ، وينقل أبو البقاء نصوصا صريحة عن هذه السياسة ، وهى ان أكاسرة الفرس كانوا يعطون امراء الحيرة بعض الأقطاعات مساعدة لهم فى حكمهم ، يقول أبو البقاء : « ••• وانما كانت الأكاسرة تقطعهم مواضع منه معينة مسماة ، تجعلها

---

(١) الطبرى ١/٩٨٤ ، وابن الاثير ١/٢٠٩ •

(٢) ابن حبيب ـ المحبر ص ٢٥٣ •

(٣) النقائض ١/٤٦٢ نقيضة رقم ٥٤ بيت ٨ •

أطعمة لهم ومعونة على عملهم ، وكانوا يجتبون خراجها فيأكلونه ويطعمون منه من شاءوا من أهلهم ومن كانوا يصانعونه ويستميلونه من الأعراب ، وربما أقطعوا أيضا قرى من جملة اقطاعهم »(٤) ، وفي الأغاني نص صريح حول وفادة قيس بن مسعود الى كسرى : « فسأله ان يجعل له أكلا وطعمة على ان يضمن له على بكر بن وائل ان لا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه ، فأقطعه الأبلة وما والاها »(٥) ، وقد تولى أمراء الحيرة تنفيذ هذه السياسة بحذق وجدارة ، فقد منح المناذرة تميما الردافة ، ومنح المنذر بن ماء السماء بردى محرق (أعز العرب وأكرمهم حسبا) لتميمي(٦) ، وقد منح النعمان بن المنذر سواد بن عدى التميمي أرضا صارت تسمى بعده (السوادية)(٧) ، ولكن ما كان يكتب لهذه السياسة النجاح دائما ، وذلك لروح التمرد التي جبلت عليها القبائل الأعرابية مثل تميم ، ولكثرة فروعها التي كان من الصعب السيطرة عليها ، وايغالها في الصحراء التي لا حد لها ،

وكان أبرز الصدامات التي وقعت بين تميم والفرس في يوم الصفقة أو حادثة المشقر ، وكان سبب يوم الصفقة(٨) ان كسرى انو شروان بعث الى وهرز عامله على اليمن قافلة تحمل نبعا ، وكانت قوافل كسرى ترسل بخفارة من المدائن الى النعمان في الحيرة ، ويرسلها النعمان مع خفراء من ربيعة حتى تصل الى هوذة بن على الحنفي باليمامة ، ثم يخرجها هذا من أرض بنى حنيفة حتى تدفع الى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها الى أن تبلغ اليمن وتسلم الى عمال كسرى ، فلما وصلت عير كسرى الى هوذة الحنفى طلب هوذة من الأساورة الذين يرافقون القافلة ان يعطوه الجعالة التي يعطونها لبنى تميم وهو يكفيهم أمرهم ويسير بهم حتى يبلغوا مأمنهم ، وخرج هوذة والأساورة

---

(٤) المناقب المزيدية مخطوط الورقة ١٤٥ أ ،

(٥) أبو الفرج ـ الاغانى ١٣٢/١٠ ،

(٦) النقائض ٧١٤/١ وابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٢١٤/٢ ،

(٧) ياقوت ـ معجم البلدان مادة (السوادية) و (السوارية) ،

(٨) سمى يوم الصفقة لان كسرى اصفق الباب على بنى تميم فى حصن المشقر ، ويسمى ايضا يوم المشقر ، وهو حصن بالبحرين ، الرواية ملخصا عن الاغانى ٣١٨/١٧ ـ ٣٢٢ ط الدار ، وانظر تفصيل هذا اليوم فى الطبرى ١٦٩/٢ ـ ١٧١ ط ابو الفضل ، وابن الاثير ٢٧٥/١ ، وفى العقد الفريد ٢٢٤/٥ هو يوم الكلاب الثانى ، وايام العرب ص ١ ـ ٥ ،

بالعير من هجر ، حتى اذا كانوا بنطاع وهو واد فى اليمامة ، بلغ بنى تميم ما صنع هوذة ، فساروا اليهم وأخـذوا مـا كـان معهم واقتسموه ، وقتلوا الأساورة وسلبوهم ، وأسروا هوذة الحنفى ، فاشترى نفسه بثلثمائة بعير ٠

وانطلق هوذة الى كسرى يخبره بما صنعت تميم بعيره وأساورتـــه ، وتدارس كسرى وهوذة الموقف ، ونصح هوذة كسرى بأن أرض تميم لاتطيقها الأساورة وتميم تمتنع بها ، والرأى أن تحبس عنهم الميرة ، فاذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معى جندا من أساورتك فأقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها ، فتصيبهم عند ذلك خيلك ٠ وعمل كسرى برأى هوذة ، ثم أرسل معه ألفا من الأساورة بقيادة رجل يقال له المكعبر(٩) ، فساروا حتى نزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث هوذة الى بنى حنيفة فأتوه فدنوا من حيطان المشقر ، ثم نودى : ان كسرى قد بلغه الذى أصابكم فى هذه السنة ، وقد أمر لكم بميرة فتعالوا فامتاروا ٠ فانصب عليهم الناس وكان أعظم من أتاهم بنو سعد من تميم ، فجعلوا اذا جاءوا الى باب المشقر أدخلوا رجلا رجلا ، حتى يذهب به الى المكعبر فتضرب عنقه ، وقد وضع سلاحه قبل ان يدخل ، فاذا مر رجل من تميم بينه وبين هوذة اخاء ، أو رجل يرجوه ، قال للمكعبر : هذا من قومى فيخليه له ، فنظر عبيد بن وهب(١٠) الى قومه يدخلون ولا يخرجون فقال : ويلكم ، أين عقولكم ، فوالله ما بعد السلب الا القتل ، وتناول سيفا وضرب سلسلة كانت على باب المشقر ، فقطعها وقطع يد رجل كان واقفا بجانبها ، فانفتح الباب ، فاذا الناس يقتلون ، فثارت بنو تميم ٠ فلما علم هوذة ان القوم قد نذروا به كلم المكعبر فى مائة من خيارهم فوهبهم له يوم الفصح ٠

ومن الأيام التى التحم فيها بنو تميم بأساورة الفرس وأعوانهم من

---

(٩) كان المكعبر عامل كسرى على البحرين ، واسمه بالفارسية (ازاذ فردز بن جشنس) وسمته العرب المكعبر لانه كان يقطع الايدى والارجل ٠ راجع الطبرى ٢/١٦٩ ٠

(١٠) ويقال خيبرى بن عبادة ، ولعبيد بن وهب قطعة يسجل فيها هذا اليوم فيقول :

الا هل أتى قومى على النأى أننى ... حميت ذمارى يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة ... تفـرج منها كل باب مضـــبر

القبائل العربية هو يوم الصليب ٠ كانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس ، فكانوا يقومونهم ويجهزونهم لغزو القبائل المعادية لحكام الفرس وصنائعهم حكام الحيرة ، وكانت القبائل البدوية وخاصة تميم تخوض معارك ضارية مع هؤلاء الأساورة والأعوان وتسلب اسلحتهم وأموالهم وترجع بالغنائم لائذة بالصحراء ٠ وقد ذكر البلاذرى حادثة من هذه الحوادث فقال : « وأغارت بكر بن وائل على بنى عمرو بن تميم يوم الصليب ، ومعهم ناس من الاساورة ، فهزمهم بنو عمر ، وقتل طريف رأس الاساورة فقال:(١١)

ولولا طرادى بالصليب لسوقت   نساء أناس بين درنا وبارق »

ومن الأيام التى اصطدمت فيها تميم بالفرس يوم ذى قار(١٢) ، وتتفق المصادر على ان بدايته كانت بسبب عدى بن زيد العبادى التميمى ، فقد حدث نزاع بين عدى بن زيد وعدى بن مرينا حول اختيار خلف للمنذر بن المنذر بن ماء السماء،ويؤول الحكم بآخرة الى النعمان بن المنذر،ويكون هذا نصرا لعدى بن زيد فالنعمان ربيبه ، فتثور ثائرة عدى بن مرينا ، وما يزال يكيد لعدى بن زيد ويسعى به عند النعمان حتى يغيره ويوغر صدره فينكل النعمان بعدى بن زيد ويسجنه ويقتله ، ويشب ابن عدى ، زيد بن عدى بن زيد العبادى وتكون له مكانة فى بلاط كسرى ، فيكيد للنعمان ويغير عليه كسرى ابرويز بن هرمز ، ويتنكر هذا للنعمان ، ويكون مصير النعمان الخوف ثم الهرب فيلوذ ببنى شيبان ويستودعهم ادراعه وسلاحه وأهله ، ويظفر كسرى بالنعمان ويزج به فى السجن حتى يموت ، ويقال انه ألقى به تحت أرجل الفيلة ، ويوعز كسرى الى عامله الجديد على الحيرة اياس بن قبيصة الطائى ان يسترد ودائع النعمان لدى بنى شيبان ، ولكن بنى شيبان يرفضون طلبه ويأبون اخفار ذمة النعمان ، وكان ذلك سببا فى ان يرسل كسرى جيشا كثيفا من المرازبة والعرب لقتال بنى شيبان ، ولكن الدائرة تدور على الأكاسرة وأعوانهم ويكتب النصر لبنى شيبان ، وكان هذا النصر اشعارا بتوحد الشعور العربى ضد مملكة الأكاسرة ، وقد شاركت تميم فيما يروى ابن عبد ربه(١٣)

---

(١١) البلاذرى ـ انساب الاشراف مخطوط الورقة ١٠٥ ب وانظر الحيرة ومكة ص ٤١ الترجمة العربية ٠

(١٢) الاغانى ٢٠١/٢ وما بعدها ترجمة عدى بن زيد ، والنقائض ٦٣٨/٢ ـ ٦٤٧ والعقد الفريد ٢٦٢/٥ ـ ٢٦٥ ٠

(١٣) العقد الفريد ٢٦٤/٥ ـ ٢٦٥ وانظر النقائض ٦٤٧/٢ ٠

في هذا اليوم فقد « كان في بكر أسرى من تميم قريبا من مائتي أسير أكثرهم من بني رياح بن يربوع ، فقالوا : خلوا عنا نقاتل معكم فانما نذب عن أنفسنا ، قالوا : فانا نخاف الا تناصحونا ، قالوا : فدعونا نعلم حتى تروا مكاننا وغناءنا فذلك قول جرير :

منا فوارس ذي بهدى وذي نجب والمعلمون صباحا يوم ذي قار »

وتحدد المصادر زمن هذا اليوم بعد وقعة بدر بأشهر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة(١٤) ، وقيل(١٥) : ان وقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وخبر أصحابه بها فقال : « اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا » .

٢ ـ تميم والمناذرة :

في تعيين صلات القبائل بمملكة الحيرة ، بيان لصلة هذه القبائل بالفرس أيضا لأن أمراء الحيرة ـ وكثيرا ما يسمونهم ملوكا ـ مـــا كانوا في حقيقتهم الا حكاما بالنيابة عن الأكاسرة ، ولم تكن القبائل العربية خاضعة لهم ، اللهم الا بعض القبائل الساكنة في الأراضي التي تحت سلطة امراء الحيرة ، فقد كانت هذه القبائل مضطرة للرضوخ ودفع الاتاوات نظير نزولهم في اراضيهم ، وكانت هذه القبائل مهددة بقوى الجيش الحيري ، وحين تغادر القبائل أراضي الحيرة تصبح في حل من طاعتهم ، وتصبح القبيلة ممتنعة ، ويحدد أبو البقاء معنى رضـــوخ القبائل واذعانها لأمراء الحيرة فيقول : « ما كان الاذعان يعني بالنسبة للقبائل أكثر من ان يمسكوا عن الاغارة على السواد وحدود ممتلكات المنـــاذرة »(١٦) . ويصنف أبو البقاء القبائل الى ثلاث مجموعات :

---

(١٤) الاغاني ٢٤/٧٦ ط دار الكتب .

(١٥) العقد الفريد ٥/٢٦٢ .

(١٦) أبو البقاء ـ المناقب المزيدية الورقة ٩٩ ب .

أ ـ القبائل المستقلة (اللقاح)(١٧) التي تغير على ممتلكات أمراء الحيرة وكانت تغزى من قبلهم ٠

ب ـ وقبائل عقدت أحلافا مع أمراء الحيرة وفق شروط مبينة ٠

ج ـ وقبائل ترعى في جوار الحيرة وكانت خاضعة لهم ٠ ولكن حتى هذه القبائل كانت موضع مصانعة من قبل أمراء الحيرة الذين يحاولون ان يكسبوا ودهم ٠ وكان أقرب الجيران الى الحيرة هم : ربيعة وتميم ، وكانت بعض عشائر تميم ترعى في جوار الحيرة(١٨) ٠

كانت العلائق بين تميم والحيرة متفاوتة بين المد والجزر ، فتميم ـ كما أسلفنا ـ من القبائل الأعرابية القوية المنتشرة في وسط وشرقي الجزيرة العربية ، وكانت أراضيها على طريق القوافل الحيرية ، وما كانت تسلم هذه القوافل من نهب تميم وقتل جند القوافل ، ولذلك فقد كانت هذه القوافل تدفع لتميم اتاوة نظير خفارتها ومرورها ، أي ضريبة المرور أو (رسم الترانسيت) ، ولذلك فان حكام الحيرة كانوا يصانعون زعماء تميم بالهبات والهدايا أو الاقطاعات ، والا فان المعارك الطاحنة سرعان ما تنشب بينهما ، وما دامت تميم متمنعة برمال الصحراء فما كان جنود الحيرة ينالون منها ٠ وكثيرا ما يميل حكام الحيرة الى مصانعة تميم واسترضائها ، وفي هذه الحالة كانوا يستفيدون من تميم ويستخدمونها في غزواتهم وحروبهم(١٩) ٠ أما صور هذه المصانعة والاسترضاء فمنها :

---

(١٧) أنظر اللسان (لقح) ، والجاحظ ـ فخر السودان على البيضان (رسائل الجاحظ) ص ٥٩ : (فاللقاح البلد الذى لا يؤدى الى الملوك الاربان ، والاربان هو الخراج وهو الاتاوة) وجاءت الكلمة (اريان) بالياء فى طبعة هارون ١٩٦٤ ، ١/١٨٧ ٠ وأنظر فى اللقاح نولدكه

Noldeke : Delectus p.42, 1.14 .

(١٨) الحيرة ومكة ص ٢٠ ترجمتنا ٠

(١٩) من ذلك استعانة المناذرة بتميم فى يوم السلان او قاع القرنتين على بنى عامر بن صعصعة ، فقد دعا النعمان بنى ضبة والرباب وتميما فاستجابوا له ، وقد دحرت جموع المناذرة وأعوانهم فى هذا اليوم ٠ أنظر ابن الاثير ١/٣٩١ ومعجم البلدان مادة (السلان) ٠ وكذلك اشتراك تميم مع المناذرة فى حربهم ضد الغساسنة فى يوم (مرج حليمة) راجع ابن الاثير ١/٢٤٦ ٠

١ ـ كان سفيان بن مجاشع بن دارم مقربا الى المنذر بن ماء السماء ، وهو الذى أشار على المنذر ان يخطب ابنة الحارث بن عمرو الكندى(٢٠) الذى بعث به تبع مع بكر بن وائل ملكا عليهم ، وقد ضيق على المنذر بن ماء السماء حتى ألجأه الى هيت وتكريت ، وتوسط سفيان بن مجاشع فخطب ابنة الحارث هندا للمنذر فزوجها اياه ، فولدت له ثلاثة ذكور بعضهم على رأس بعض : عمرا مضرط الحجارة ابن هند ، وقابوس بن هند ، والمنذر بن هند الأكبر ، فتهادنا ورجع المنذر الى الحيرة ، ولذلك يفخر الفرزدق بصنيع سفيان بن مجاشع فى قوله :(٢١)

منا الذى جمع الملوك وبينهم ... حرب يشب سعيرها بضرام

٢ ـ وكان الغلاق بن قيس بن عبدالله بن عمرو بن همام التميمى فى خدمة عمرو بن هند ، وكان عمرو بن هند قد بعث الى بنى تغلب وكانوا انحازوا عنه ، يدعوهم الى الرجوع الى طاعته والغزو معه ، فأبوا ، فأرسل اليهم حملة بقيادة الغلاق التميمى فأوقع بهم وذهب بأموالهم(٢٢) ٠ وكان فى هذه الحملة الحارث بن بيبة بن قرط بن سفيان بن مجاشع وحاجب بن زرارة ، وقد ذكر الشاعر دجاجة بن عبد القيس هذه الوقعة فى قصيدة له أولها :(٢٣)

تجرد غلاق الينا وحاجب ... وذو الكير يدعو يا لحنظلة اركبوا

وقد أشار الحارث بن حلزة الى هذه الوقعة بقوله :(٢٤)

ثم خيل من بعد ذاك مع ... الغلاق لا رأفة ولا ابقاء
ما أصابوا من تغلبى ... فمطلول عليه اذا تولى العفاء

---

(٢٠) لقد وهم الدكتور نعمان أمين طه (جرير حياته وشعره ص ٨٥) حين ظن ان الحارث الكندى هو الحارث الغسانى ، اذ لم تقم علائق زواج بين المناذرة والغساسنة ٠

(٢١) النقائض ٢٦٧/١ ٠

(٢٢) المعانى الكبير ١٠١٢/٢ ٠

(٢٣) أنظر القصيدة فى الاختيارين ـ الاخفش الاصغر ص ٦٨٧ ـ ٦٩٠ ٠

(٢٤) الانبارى ـ شرح المعلقات السبع ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧ ٠

وكان الغلاق هذا على هجائن النعمان بن المنذر(٢٥) ، وكان من بني حنظلة بن زيد مناة من تميم ، ويقول البكري(٢٦) : « استعمله النعمان بن المنذر على هجائن من يلي أرضه من العرب » · ويبدو ان الغلاق كان مكلفا بجباية الضرائب للنعمان بن المنذر ، وكان عقفان بن قيس بن عاصم بن عبيد اليربوعي قد أخفى هجائنه لئلا يعطي للغلاق شيئا ، فطلبها الغلاق فعمد عقفان بابله حتى أتى النعمان فأجاره ولم يأخذ منها شيئا(٢٧) ·

٣ ـ في يوم حليمة حين غزا الحارث الأعرج بن جبلة الغساني المنذر بن المنذر بن ماء السماء كان بعض من بني تميم مع المنذر ، وقد سقط اسرى في يد الحارث الغساني فكان من تميم مائة أسير ، وقد تشفع علقمة بن عبدة الفحل التميمي فيهم وفي أخيه شأس بن عبدة ، ومدح الحارث الغساني بقصيدة مشهورة أولها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

يقول في شأس :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب
فلا تحرمني نائلا عن جنابة فاني أمروء وسط القباب غريب

ثم أطلق له أخاه شأسا وخيره بين الحباء واسراء قومه ، فاختار اسراء قومه ، فأطلقهم له دون فداء(٢٨) ·

٤ ـ منح النعمان بن المنذر بردي محرق لعامر بن أحيمر السعدي ، قال أبو عبيدة : « كان المنذر بن ماء السماء أبرز سريره وقد اجتمعت عنده وفود العرب ، ثم دعا ببردي ابنه محرق (وهو عمرو بن هند) ، فقال : ليقم أعز العرب قبيلة وأكثرهم عددا فليأخذ هذين البردين ، فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة فأخذهما فاتزر بواحد وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر : بم أنت أعز

---

(٢٥) الاغاني ٤٦/١١ ط الدار ·
(٢٦) سمط اللآلي ٧٤٦/٢ ·
(٢٧) المصدر السابق والصفحة ·
(٢٨) أنظر يوم حليمة في مجمع الامثال ٢٧٢/٢ ـ ٢٧٣ وابن الاثير ٢٤٦/١ ورغبة الأمل ٣٣/١ ·

العرب وأكثرهم عددا ، فقال : أيها الملك ، العز والعدد من العرب فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنى ، فسكت الناس ، فقال المنذر عند ذلك : فهذه عشيرتك كـــما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وبدنك ، قال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وخال عشرة ٠٠ ثم وضع قدمه على الأرض فقال : من أزالها من الأرض فله مائة من الابل ، فلم يقم اليه أحد من الناس وذهب بالبردين ، فسمى ذا البردين »(٢٩) ٠ وفيه يقول الفرزدق مفتخرا :

فمـا ثم فى سعد ولا آل مالك ... غلام اذا ما سيل لم يتبهدل

لهم وهب النعمان بردى محرق ... بمجد معد والعديد المحصـل

٥ ــ وكان المناذرة يدخلون فيما بين تميم فيصـــلحون من أمرهم ، أو يتوسطون لفروع عند فروع أخرى ، وذلك ما حصل فى قصة أطفـــال ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلى الذين أخذهم لقيط بن زرارة رهائن مقابل أطفال كبيش ورشية ، وطلب بنو نهشل من الملك ان يتوسط لهم ، وقد كان ضمرة بن ضمرة أثيرا لدى المنذر والنعمان وجعله من حداثه وسماره ودفع اليه ابلا كانت له فكانت فى يده وهى هجائنه وهجائن النعمان ابنه بعده ، وهى من أكرم الابل(٣٠) ٠

٦ ــ ومن أبرز الامتيازات التى حصلت عليها تميم من لدن حكام الحيرة هى (الردافـــة) وكـــانت فى بنى يربـوع من تميم فهم أرداف المـــلوك (Chamberlains) وفى النقائض : « لم يكن أحد من العرب أكثر غارة على أهل مملكتهم من بنى يربوع ، فصالحوهم على ان جعلوا لهم الردافـــة وان يكفوا عن الغارة على أهل العراق »(٣١) ٠ ويقـــال ان الأرداف فى

---

(٢٩) النقائض ٧١٣ ــ ٧١٤ والعقد الفريد ١٩٤/٢ و ٣٣٠/٥ ، وبهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة وهم آل الزبرقان بن بدر ٠

(٣٠) المفضل بن سلمة ــ الفاخر ص ٥٣ ــ ٥٤ والميدانى ــ مجمع الامثال ١٣٦/١ ٠

(٣١) النقائض ص ٢٩٩ ٠

الجاهلية كانوا بمركز الوزراء في العصر الاسلامي(٣٢) ٠ وكـــان الردف يجلس عن يمين الملك فاذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس، واذا غزا الملك جلس الردف في مجلسه وخلفه الملك على الناس حتى يرجع من غزاته ، واذا أغارت كتيبة الملك أخذ الردف المرباع ، وكان للردف اتاوة يأخذها من جميع مملكة المنذر(٣٣) ، وقد حفل شعر جرير بالفخر بالردافة(٣٤) ٠

وأول من نال الردافة من بني يربوع هو عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع ، ثم عوف بن عتاب ، ثم يزيد بن عوف على عهد المنذر بن ماء السماء ، وأراد المنذر ان يجعل الردافة في بني دارم للحارث بن بيبـــة بن قرط بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، فأبى بنو يربوع ذلك عليه فحاربهم ، وكان من ذلك يوم طخفة ، وكان النصر لبني يربوع ، فلم تزل الردافة فيهم حتى قتل كسرى ابرويز النعمان الأصغر وهو النعمان بن المنذر بن المنذر بن النعمان بن امرىء القيس(٣٥) ٠

هذه جملة من الوسائل في تقريب أمراء الحيرة وتألفهم لزعماء تميم ، أما في الجانب الآخر فان مصالح الطرفين كثيرا ما تتضارب وتتمرد تميم على الطاعة وتخرج على سلطان المناذرة فتنهب قوافلهم وتشهر بوجوههم السيوف، ويتنمر حكام الحيرة حين تواتيهم الفرصة فينكلون بقبائل تميم ويعملون فيهم السيوف ، ومن صور هذا المنازعات والخلافات ما يأتي :

١ ـ كان عمرو بن هند قد أرسل وائل بن صريم الى بني تميم ليجبي

---

(٣٢) انظر في الردافة النقائض ص ٦٦ ، ٢٩٩ ، ٨٠٩ وانساب الاشراف مخطوط الورقة ٦٦٢ ب وفوات الوفيات ٢٧٦/٢ وجمهرة النسب ـ ابن الكلبي مخطوط الورقة ١١٤ ب ، وابن دريد ـ الاشتقاق ص ٣٥٢ وابن قتيبة ـ المعارف ص ٤٥ ، والطبراني ـ المعجم الصغير ص ٢٤٢ وفيه قول وائل بن حجر الحضرمي لمعاوية : (ما اضن عليك بهذه الناقة ولكن لست من أرداف الملوك واكره ان اعير بك) والسيرة النبوية ١٥٤/٤ ـ ١٥٥ ٠

(٣٣) النقائض ص ٢٩٩ ٠

(٣٤) انظر ديوان جرير تحقيق نعمان امين طه الصفحات : ٢٦١ ، ٩٠٨ ، ٩٦٨ ، ٩٥٧ ، ٨٠٩ ٠

(٣٥) النقائض ص ٢٩٨ ٠

الضرائب منهم ، فدفعت عشائر تميم الاتاوة الا بني أسيد من عمرو بن تميم، فقد أسرت وائل بن صريم اليشكري (من بكر بن وائل) وقذفت به في بئر ورموه بالحجارة وكانوا ينشدون عند قتله : «يا أيها المائح دلوى دونكا»(٣٦)، فبلغ خبره أخاه باعثا فعقد لواء وسار في بني غبر من يشكر ، وآلى ان يقتلهم على دم وائل حتى تمتلىء دلوه دما ، وقد وفى بنذره هذا فجاءت دلوه مملوءة دما من دماء بني أسيد ، وقد ذكر شعراء يشكر هذه الحادثة وعاشت المعركة طويلا في ذهن العشيرتين كما يتضح ذلك من لعناتهم : (تعست غبر ، تعست أسيد)(٣٧) •

٢ ـ وكان الامتناع عن دفع الاتاوة كثيرا ما يجر الى حروب وقتال ، ذكر المبرد(٣٨) في رواية عن أبي عبيدة ، ان تميما منعت النعمان بن المنذر الاتاوة فوجه اليهم أخاه الريان بن المنذر على رأس كتيبة الصنائع ، وهم جيش أكثره من بكر بن وائل ، فغزوا تميما وسبوا ذراريهم وساقوا نعمهم غنائم ، ويصف أبو المشمرج اليشكري هذه الوقعة بقوله :

لما رأوا رايـة النعمان مقبلـــة   قالوا الا ليت أدنى دارنا عـدن
ياليت أم تميم لم تـــكن عرفت   مرا وكانت كمن أودى به الزمن
ان تقتلونا فأعيار مجدعـــــة   أو تنعموا فقديما منكم المنن
منهم زهير وعتـــاب ومحتضر   وابنا لقيط وأودى في الوغى قطن

وجاء زعماء تميم الى النعمان يسالونه أن يطلق الأسرى ، فوافق وخير النساء بأن أية امرأة اختارت أباها ردت اليه ، وان اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلهن اختارت أباها الا ابنة لقيس بن عاصم فانها اختارت صاحبها

---

(٣٦) في رواية ان وائل بن صريم اتاهم وهم بطويلع فنزل بهم وجمع الشاء والنعم وامر باحصائه ، فبينما هو جالس على شفير بئر جلس اليه شيخ من بني أسيد ، فحدثه فغفل وائل فدفعه الشيخ في البئر فوقع فيها فرموه بالحجارة • التبريزي ـ شرح ديوان الحماسة ١١٢/٢ ـ ١١٣ ، البكري ـ السمط ٢٨٦ ، ٤٧٦ •

(٣٧) أنظر ابن عبد ربه ـ العقد ٣٥٤/٣ ، والمرزوقي ـ الازمنة والامكنة ١٥٦/٢ ، والفراء ـ معاني القرآن ٣٢٣/١ والتبريزي ـ شرح الحماسة ١١٢/٢ ـ ١١٣ والبكري ـ السمط ٢٨٦ ، ٤٧٦ ولسان العرب (ميح) والحيرة ومكة ص ٢٩ ـ ٣٠ ترجمتنا •

(٣٨) الكامل ٢٨٨/١ •

عمرو بن المشمرج ، فنذر قيس الا تولد له ابنة الا قتلها(٣٩) ٠

وكان النعمان قد نوه برغبته أن تدخل تميم فى طاعته فيصيبها من الفضل والخير ما أصاب قبائل قيس ويبين محاولات حكام الحيرة لكسب ولاء بعض فروع تميم وخاصة بنو سعد الذين يحاولون ان يتحرروا من تبعية الحيرة فقال من قصيدة :(٤٠)

ما كان ضر تميما لوتغمدها　　　من فضلنا ما عليه قيس عيلان

٣ ـ كان عصيمة بن خالد بن منقر قد أجار رجلا من عامر بن صعصعة ، وطلب النعمان تسليم هذا الرجل فرفض عصيمة ، وأوذنوا بحرب ، فاستنصر عصيمة قومه بصرخة الحرب (كوثر) ، وقاوم ملك الحيرة وقد وجه عصيمة الرمح الى عرف فرسه قائلا : « وراءك أيها الملك الضروط ، فلو شئت ان أضعه فى سوى هذا الموضع لوضعته » (٤١) ٠ وفى الرواية دليل على استهانة تميم بملوك الحيرة من ناحية وتدهور منزلة المناذرة فى نفوس القبائل وضعفهم من ناحية ثانية ٠

وهناك حادثه أخرى من هذا الضرب ، فقد هوجم بنو عمرو بن تميم بجيش الملك النعمان ، فاستطاعوا ان يردوه وينجحوا فى قهره ، ونهب معسكر النعمان وانتصار بنى عمرو بن تميم(٤٢) ٠

٤ ـ مر ذكر الردافة وانها كانت لبنى يربوع وقد أعطاها المناذرة تالفا لهم ودفعا لغاراتهم ، فقد كانوا أكثر العرب اغارة على الملوك ملوك الحيرة ، فصالحوهم على ان يجعلوا لهم الردافة ، وكان آخر من وقعت له الردافة من بنى يربوع هو عتاب بن رياح بن يربوع فى عهد المنذر الثالث بن امرىء القيس وأمه ماء السماء ، ولما مات عتاب بن هرمى نشأ له ابن يقال له عوف بن

---

(٣٩) فى الاغانى ٧١/١٤ ان المراة السبية هى : رميم بنت أحمر بن جندل السعدى ، وكانت امها اخت قيس بن عاصم ٠

(٤٠) الكامل ٢٨٩/١ ط التجارية ١٣٥٦ هـ ٠

(٤١) محمد بن حبيب ـ المحبر ص ٣٥٤ ٠

(٤٢) أبو البقاء ـ المناقب المزيدية مخطوط الورقة ١٢٦ أ ٠

عتاب وكان صغيرا ، فقال حاجب بن زرارة بن عبدالله بن دارم للمنذر : ان الردافة لا تصلح لهذا الغلام لحداثة سنه ، فاجعلها لرجل كهل ، وسمى الحارث بن بيبة المجاشعي . فدعا الملك بني يربوع وأبلغهم برغبته في أن يجعل الردافة في مجاشع ، فأبى بنو يربوع قائلين : انه لا حاجة لاخوتنا فيها ، ولكن حسدونا مكاننا من الملك ، وعوف بن عتاب ــ على حداثة سنه ــ أحرى بالردافة من الحارث بن بيبة ، ولن نفعل ولن ندعها ، قال : فان لم تدعوها فأذنوا بحرب ، قالوا : دعنا نسر عنك ثلاثا ثم آذنا بحرب .

وسارت بنو يربوع ذاهبة عن الملك ومعها برجمة من البراجم(٤٣) ، حتى نزلوا شعبا بطخفة(٤٤) ودخلوا فيه هم وعيالهم ، فجعلوا العيال في أعلاه ، والمال في أسفله ، وهو شعب حصين له مدخل كالباب ، ولما مضت ثلاث ليال ، أرسل الملك ابنه قابوس وأخاه حسانا في جيش كثير من أفناء(٤٥) الناس ، واحتبس عنده شهاب بن عبد قيس اليربوعي وحاجب بن زرارة ، فسأل الملك حاجبا وشهابا عن توقعاتهما لهذه المعركة ، فقال حاجب : « ظني أنك قد أرسلت جيشا لا طاقة لبني يربوع به وسيأتونك بهم وبأموالهم ظافرين » ، أما شهاب اليربوعي فقال : « أرسلت جيشا مختلف الأهواء ــ وان كثروا ــ الى قوم عند نسائهم وأموالهم ، يد واحدة ، وهواهم واحد ، يقاتلون فيصدقون، وظني أن سوف يظفرون بجيشك ، ويأسرون ابنك وأخاك » ، ثم تراهن حاجب بن زرارة وشهاب بن عبد قيس على مائة من الابل .

أما جيش الملك فقد انطلق حتى أتى الشعب فدخل فيه ، حتى اذا كانوا في مضايقه حملت عليهم بنو يربوع النعم ، وخرجت الفرسان من شعابه فقعقعوا بالسلاح للنعم فذعرها ذلك ، وحملوا على الجيش فردوا وجوههم ، واتبعتهم خيل بني يربوع تقتل وتطعن ، ثم انهزم قابوس ابن الملك ومن معه ، وضرب طارق بن ديسق فرس قابوس فعقره وأسره ، وأسر حسان أخو الملك أسره عمرو بن جوين ، وهزم الجيش ، وأخذت الأنهاب .

---

(٤٣) البراجم هم : قيس وعمرو وغالب وكلفة والظليم بنو حنظلة بن مالك ، تحالفوا وقالوا نحن كبراجم الكف ، فسموا كذلك . جمهرة أنساب العرب ص ٢٢٢ .

(٤٤) طخفة : موضع في طريق البصرة الى مكة .

(٤٥) أفناء : أخلاط .

فلما علم المنذر ، دعا شهابا وقال له : ادرك ابني واخي ، فان أدركتهما حيين فلبنى يربوع حكمهم ، وأرد عليهم ردافتهم ، وأهدر عنهم ما قتلوا واهنئهم ما غنموا ، وأحمل لهم من قتل منهم فأعطيهم بها الفى بعير • فخرج شهاب فوجد الرجلين حيين ، فضمن لهم ما قال المنذر ، فرضوا وعادت الردافة الى ابن عتاب ولم تزل لهم حتى مات المنذر(٤٦) •

٥ ـ ومن الأيام التى نكل فيها المناذرة بتميم يوم أوارة الثانى ، وكان سببه ان المنذر بن ماء السماء ـ أبو عمرو بن هند ـ وضع ابنا له صغيرا (وفي رواية أخا له) يقال له مالك عند زرارة بن عدس ، فبلغ حتى صار رجلا ، وقد خرج ذات يوم يتصيد فأخفق ، فمر بابل لسويد بن ربيعة الدارمى ـ وهو زوج بنت زرارة قد ولدت له سبعة غلمة ـ فأمر مالك ببكرة منها فنحرها ، ثم اشتوى ، وسويد نائم ، فلما انتبه سويد شد على مالك بعصا ـ ولم يعرفه ـ فأمّه ومات ، فخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة ، وحالف بنى نوفل بن عبد مناف •

ثم ملك عمرو بن هند ، وعلم بمقتل مالك ، فغزا تميما ، وبلغ زرارة الخبر ، فهرب ، وركب عمرو فى طلبه فلم يقدر عليه ، فاخذ امرأته وهى حبلى فبقر بطنها • ثم قصد زرارة الملك عمرو بن هند يبرأ اليه من دم أخيه ، فطلب الملك سويدا أو بنيه ، فأتى ببنيه السبعة من ابنة زرارة وهم غلمة فقتلهم ، وآلى عمرو بن هند ليحرقن من بنى دارم مائة رجل ، وخرج عمرو بن هند يريد تميما فظفر بهم بأسفل أوارة(٤٧) من ناحية البحرين ، وأمر بأخدود فخد لهم ، ثم أضرم نارا وقذف بهم فيها فاحترقوا (وبذلك سمت العرب عمرو بن هند محرقا) ، ثم أحرق رجلا من البراجم رأى النار فظنها طعاما ، وقال فيه عمرو : « ان الشقي وافد البراجم » فذهبت مثلا ، وكذلك حرق امرأة من بنى نهشل بن دارم زوجة هوذة بن جرول وبها كمل العدد مائة من تميم(٤٨) •

---

(٤٦) العقد الفريد ٥/٢٣٤ والنقائض ١/٦٦ ـ ٦٨ والاغانى ١٣/١٢٩ •

(٤٧) أوارة : جبل لتميم •

(٤٨) النقائض ١/٤٥ ـ ٤٦ ، ٢/٦٥٢ ـ ٦٥٣ ، ١٠٨١ ـ ١٠٨٦ ، وابن الاثير ١/٢٥٢ ، ومعجم البلدان (أوارة) ١/٣٩٤ •

وبعد ، فهذه صورة حية من صور نشاط تميم وامتدادها على مسرح العراق والخليج العربى وصراعها الحربى وصلاتها السياسية بسكان المنطقة وقد اتضحت طبيعة الصراع مع الفرس مباشرة أو اعوانهم المناذرة ، وقد شغلت هذه القبيلة احداث الفترة الجاهلية فى مساحة واسعة تتناسب وسعة وضخامة قبيلة تميم التى عرفت بالقوة والشدة والحيوية ، وقد استمرت هذه الحيوية فى نضال دائم وصراع مستمر مع القبائل الأخرى فى شتى أنحـــاء الجزيرة ، وتوارثت أجيال تميم هذا الصراع حتى العصر الاسلامى ، وقـــد هذب الاسلام طبيعة تميم الأعرابية ووجهها وجهة اسلامية فانطلقت تجاهد فى سبيل الله فكان لها البلاء العظيم فى الفتوح الاسلامية فى الشام وشمال افريقية والعراق وبخاصة فى العراق وبلاد فارس ، فكان لها فى هذه البقاع شأن وخطر نرجو ان نوضح ذلك فى بحث قابل ، أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد .

مصادر البحث ومراجعه

ابن الأثير ـ علي بن محمد الشيباني الجزري : الكامل في التاريخ ·
ط القاهرة ١٣٠١ هـ ·

احسان النص : العصبية القبلية عند العرب · ط دمشق ·

الاخفش الأصغر : كتاب الاختيارين · تحقيق فخر الدين قباوة ـ ط
دمشق ١٩٧٤ هـ ·

الأصفهاني ـ أبو الفرج : الأغاني · ط دار الكتب المصرية وط الثقافة
بيروت حسب ما يشار في الهامش ·

الأنباري ـ عبد الرحمن بن محمد : شرح المعلقات السبع الطوال
الجاهليات · تحقيق عبد السلام هارون ·
ط دار المعارف مصر ١٩٦٣ ·

أبو البقاء ـ هبة الله : المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية ·
مخطوط المتحف البريطاني ·

البكري ـ عبد الله بن عبد العزيز : سمط اللآلي · تحقيق عبد العزيز
الميمني · ط لجنة التأليف والترجمة والنشر
القاهرة ١٩٣٦ ·

: معجم ما استعجم · تحقيق مصطفى السقا ·
ط القاهرة ٤٥ ـ ١٩٥١ ·

البلاذري ـ أحمد بن يحيى : فتوح البلدان · ط رضوان القاهرة
١٩٣٢ ·

التبريزي ـ يحيى بن علي : شرح ديوان الحماسة · ط السعادة مصر
مصر ١٣٤٦ هـ ·

الثعالبي ـ عبد الملك بن محمد : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ·
ط القاهرة ١٩٠٨ ·

الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر : رسائل الجاحظ · ط السندوبي
القاهرة ١٩٣٣ و ط عبد السلام هارون
القاهرة ١٩٦٤ ·

جرير بن عطية الخطفي : ديوان جرير · تحقيق نعمان أمين طه ·
ط دار المعارف مصر ١٩٧١ ·

ابن حبيب ـ محمد بن حبيب : المحبر · ط حيدر اباد ١٩٤٢ ·

ابن حزم ـ على بن أحمد الأندلسى : جمهرة أنساب العرب • تحقيق
عبد السلام هارون • ط دار المعارف مصر
١٩٦٢ •
حسين عطوان : الشعر بخراسان • ط بيروت •
ابن دريد ـ محمد بن الحسن الأزدى : الاشتقاق • ط القاهرة ١٩٥٨ •
الدينورى ـ أبو حنيفة أحمد بن داود : الأخبار الطوال • ط مصر
١٩٦٠ •
ابن رشيق ـ الحسن بن رشيق القيروانى : العمدة • ط مصر ١٩٥٢ •
الطبرانى ـ سليمان بن أحمد : المعجم الصغير • ط دلهى ١٣١١ هـ •
الطبرى ـ محمد بن جرير : تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك)
ط ليدن و ط ابو الفضل دار المعارف مصر •
ابن عبد ربه الأندلسى : العقد الفريد • ط لجنة التأليف والترجمة
والنشر القاهرة ١٩٦٧ •
أبو عبيدة ـ معمر بن المثنى : نقائض جرير والفرزدق • تحقيق بيفان ـ
ط بريل ١٩٠٥ ـ ١٩١٢ •
: مجاز القرآن • تحقيق فؤاد سزكين •
القاهرة ١٩٥٤ •
عمر رضا كحالة : جغرافية جزيرة العرب • ط دمشق ١٩٤٥ •
الفراء : معاني القرآن • ط نجاتي والنجار • القاهرة ١٩٥٥ •
ابن الفقيه ـ أحمد بن محمد الهمذانى : مختصر كتاب البلدان •
ط دى غوية • ليدن ١٨٥٨ •
ابن قتيبة ـ عبد الله بن مسلم : المعارف • ط القاهرة ١٩٣٥ •
: المعانى الكبير • ط حيدر آباد ١٩٤٩ •
الكتبى ـ ابن شاكر : فوات الوفيات • ط القاهرة ١٩٥١ •
كستر : مكة وتميم • ترجمة يحيى الجبورى ط بغداد ١٩٧٥ •
: الحيرة ومكة • ترجمة يحيى الجبورى
ط بغداد ١٩٧٦ •
ابن الكلبى ـ هشام بن محمد : جمهرة النسب • مخطوط المتحف
البريطانى •
لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية • ترجمة كوركيس عواد • ط بغداد•
ماسينيون : خطط الكوفة • ترجمة المصعبى •

المبرد ـ محمد بن يزيد : الكامل فى اللغة والأدب ، ط التجارية مصر ١٣٥٦ هـ ·
المرزوقى ـ أحمد بن محمد بن الحسن : الأزمنة والأمكنة ، ط حيدر آباد ١٣٣٢ هـ ·
المسعودى ـ على بن الحسين : مروج الذهب ، ط القاهرة ١٣٥٧ هـ ·
المفضل بن سلمة بن عاصم : الفاخر ، تحقيق عبد العليم الطحاوى ، مصر ١٩٦٠ ·
المفضل بن محمد الضبى : المفضليات ، ط لايل ، اوكسفورد ١٩١٨ ـ ١٩٢١ ، وط القاهرة ١٩٥٢ ·
ابن منظور ـ محمد بن المكرم : لسان العرب ، ط بولاق ١٣٠٠ هـ ·
الميدانى ـ أحمد بن محمد النيسابورى : مجمع الأمثال ، ط القاهرة ١٩٥٩ ·
نصر بن مزاحم المنقرى : وقعة صفين ، ط عبد السلام هارون القاهرة ·
نعمان أمين طه : جرير حياته وشعره ، ط دار المعارف مصر ١٩٦٨ ·
ابن هشام ـ عبد الملك : السيرة النبوية ، ط القاهرة ١٩٥٥ ·
ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى : معجم البلدان ، ط القاهرة١٩٠٦
اليعقوبى ـ أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر : تاريخ اليعقوبى ، ط النجف ١٩٦٤ ·
يوهان فك : العربية ، الترجمة العربية ، ط القاهرة ·

L. Vecciri ; Ei 2 .

Von Oppenhein - Kaskel : Die Beduinen. 1 — 111 , Wiesbaden 1939 — 1952 .

الوطن العربى
دراسة فى السكان والأرض والغذاء

د. حسن الخياط
أستاذ بقسم الجغرافية

مقدمة عامة :

تحتل المسالة السكانية أهمية خاصة ، وقد نظرت اليها الامم المتحدة باعتبارها احدى المشاكل الاساسية التى تواجه البشرية . انها مشكلةالجميع، لا توقفها حدود سياسية ولا فواصل سلالية . فلا تظهر فى اقليم أو جماعة بشرية الا وظهرت اصداؤها ، عاجلا أو آجلا ، فى أقاليم وجماعات أخرى . فمن الضرورى والحالة هذه اقامة جسر بين دراسة واقع السكان والموارد المحلية والقومية من جهة وواقع السكان والموارد العالمية من جهة أخرى . كما لابد ، عند دراسة سكان الوطن العربى ، ان نفتح نافذة على العالم والتيارات التى تتحكم بسياساته السكانية ومنطلقاته الايديولوجية ، واضعين امكاناتنا المادية وأوضاعنا السكانية وقيمنا العربية الاسلامية قاعدة لانطلاقاتنا فى تحديد مواقفنا السكانية المستقبلية .

وما دامت المسألة السكانية هى مشكلة العصر كما أشرنا فقد اتفق الجميع على ضرورة علاجها . وقد اتخذ هذا العلاج فى كتابات وأفكار المسؤولين والخبراء مسارات عديدة أملتها اتجاهاتهم الفكرية والعقائدية وسياسات دولهم الاقتصادية والاجتماعية . وبهذا فقد اضفت الاتجاهات الجديدة على الدراسات السكانية بعدا جديدا ، هو البعد السياسى والاستراتيجى ، اضافة

الى الابعاد التقليدية الانسانية والاقتصادية والاجتماعية • وقد شهدت قاعات المؤتمر العالمى للسكان الذى عقد ببخارست بجمهورية رومانيا من ١٩ ــ ٣٠ آب (أغسطس) ١٩٧٤ بحضور ممثلين عن ١٣٥ دولة جانبا من هذه الصراعات السياسية والعقائدية • وكانت النتيجة أن تبلورت ثلاثة منعطفات فى تشخيص المشكلة السكانية ومسالك تخفيف حدتها • ولاهميتها نوجزها على الوجه التالى :

١ ــ ان المشكلة السكانية ، فى رأى ممثلى العالم الغربى ، ما هى الا مشكلة ديموغرافية ، جوهرها كمى ، وأساسها النمو الانفجارى لسكان الدول النامية • وان العلاج فى نظرهم ينصب الى الحد من هذا النمو بتبنى سياسات تستند على التخطيط العائلى وتحديد النسل •

٢ ــ وقد عارض خبراء وممثلو العالم الاشتراكى بزعامة السوفيت ما ذهب اليه الغربيون ، واعلنوا بأن المشكلة السكانية ليست ديموغرافية صرفة وحسب ، وانما هى اقتصادية واجتماعية أيضا ، نجمت عن التخلف الاقتصادى والاجتماعى للدول النامية • ويكمن الحل الجذرى لها ، فى نظرهم، فى تغيير الانظمة الاقتصادية والاجتماعية على الوجه الذى يضمن تحقيق التنمية الاقتصادية السريعة • فالتنمية فى رأيهم ، كفيلة برفع مستوى معيشة السكان وتحسين ظروف عملهم ورفع مستوى تعليمهم ، وتحرير المرأة فى مجتمعهم • وهذه مجتمعة تشجع أفراد المجتمع على اتخاذ مواقف ايجابية لتحديد النسل ذاتيا وطوعيا •

٣ ــ ورأى ممثلو الدول النامية وبعض الدول الاشتراكية ان العلاج للمشكلة السكانية يكمن فى :

(أ) تغيير الانظمة الاقتصادية والاجتماعية وبنية الاقتصاد الدولى على الوجه الذى يضمن الاسراع فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الدول النامية •

(ب) تطبيق سياسات تحديد النسل والتخطيط العائلى فى الدول التى تعانى من ظاهرة الضغط السكانى •

استعرضت هذه الاراء ايمانا بأهميتها لاية دراسة سكانية اقليمية أو عالمية • فالعالم بأقاليمه المختلفة وأقطاره المتنوعة متكامل ، متفاعل ،

متبادل التأثير · لشعوبه كثير من المصالح المشتركة ، ومصيره يتطلب التنسيق والتكامل والتعاون بينها لمواجهة ما تتعرض له طموح البشرية فى الحياة · ويكون هذا الاستعراض أكثر الحاحا اذا ما أريد تقويم الاوضاع السكانية للوطن العربى ، لما لهذا الوطن من موقع عالمى استراتيجي ومصالح حيوية مع كافة جهات العالم · فعلى الرغم من أن المشكلة السكانية ليست ذات مردودات آنية على الاوضاع العربية المعاصرة ، الا أن ذلك لا يمنع من أن يعكس الوطن العربى اصداء ما يحيق من مشاكل باجزاء أخرى من العالم · وعلى هذا يكون من الطبيعى ان يستند تقويم الاوضاع السكانية العربية حاضرا ومستقبلا على ما نملكه من امكانات وطاقات وموارد من جهة ، وعلى ما عليه العالم من أوضاع من جهة أخرى ·

استهلال لسكان الوطن العربى :

تجدر الاشارة عند دراسة سكان الوطن العربى الى حجم الصعوبات التى تواجه كل من يدرس هذه الظاهرة ، والمعاناة التى تترتب على النقص أو عدم الدقة فى البيانات الاحصائية السكانية والديموغرافية وغيرهما ، أو من عدم وجودها أصلا · فالاحصاءات السكانية ، وان توفرت فى بعض الاقطار العربية، الا أنها بعيدة عن الدقة والشمول والتفاصيل · فكيف الحال وان معظم الاقطار العربية لم تعرف مثل تلك الاحصاءات ، أو قد خبرتها فى وقت متأخر · كما ان هذه الاقطار ، وان أجرت بعض التعدادات السكانية ، الا أنها لم توفر أى نوع من التنسيق بينها ، سواء فى سنوات التعداد أو فى تلاحق سنوات التعداد فى كل قطر منها ، مما يستحيل معه اجراء الدراسات التحليلية العامة والمقارنة · وعلى سبيل المثل لا الحصر ، نستشهد بما عليه واقع التعدادات السكانية فى خمس دول عربية خليجية هى البحرين والكويت وقطر والامارات العربية المتحدة وعمان · فقد أجريت فى البحرين خمس تعدادات سكانية فى ١٩٤١ و ١٩٥٠ و ١٩٥٩ و ١٩٦٥ و ١٩٧١ ، وفى الكويت خمس تعدادات أيضا فى ١٩٥٧ و ١٩٦١ و ١٩٦٥ و ١٩٧٠ و ١٩٧٥ بينما لم تجر الامارات العربية المتحدة سوى حصرين للسكان فى ١٩٦٨ و ١٩٧٥ ، ولم تجر دولة قطر سوى تعداد واحد فى ١٩٧٠ لم تنشر نتائجه بعد · أما سلطنة عمان فلا زالت تفتقر الى أى تعداد سكانى ، مما نشر ظلالا من الشك حول الحجم الحقيقى لسكان هذه السلطنة ، لدرجة يقدره البعض بأنه يتراوح ما بين نصف مليون ومليونى نسمة ·

ان هذه الصورة الخليجية تتكرر فى أقطار كثيرة أخرى من وطننا العربى الكبير ٠

لقد تجاوز سكان الوطن العربى ١٥٥ مليون نسمة ، ويزداد هـــذا العدد بمعدل سنوى يزيد على ٤ ملايين نسمة ٠ ففى كل دقيقة تضاف ٩ أفواه الى أفواه وطننا العربى ، أو ٥٢٠ فما جديدا فى الساعة الواحدة ، أو حوالى ١٢ر٥٠٠ وافدا جديدا فى كل يوم ٠ وبطبيعة الحال يشكل كل وافد جديد عبئا اضافيا على موارد الارض ــ واقتصاديات المجتمع ٠ وكثيرا ما يتحــرك هذا العبء باتجاهين ٠ فالسكان الجدد يحتاجون الى مزيد من الغذاء والسكن والخدمات ووسائل الانتاج ومنها الطاقة والخدمات الاخرى ٠ من كل هذا يتضح انه لا يصح معاملة المسائل السكانية بمعزل عن الاوضاع الاقتصادية والبيئية والتكنولوجية وامكانية توافر الموارد الاساسية كالغذاء والماء والطاقة ورأس المال وغيرها ٠ فالامر يستلزم توسيع الاطار الذى ندرس ضمنـــــه التوقعات السكانية المقبلة ٠ كما يجب أن لا نغفل بأن الوطن العربى هـــو جزء من عالم واسع يعيش على أرضه أكثر من ٤٠٠٠ مليون نسمة ، وان ما يتعرض له هذا العالم ، كلا أو جزءا ، له اثارة الايجابية والسلبية على الوطن العربى ٠

أولا ــ سكان الوطن العــربى عددا ونموا :

لقد ازداد سكان الوطن العربى خلال ٢٨ سنة الاخيرة زيادة مطلقة ونسبية كبيرة ، فقد نما هؤلاء من حوالى ٧٢ مليون نسمة عام ١٩٥٠ الى١٠٦ مليون عام ١٩٦٥ والى ١٤٠ مليون و ١٥٥ مليون عامى ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ على التوالى ٠ انها زيادة مطلقة تتجاوز ٨٣ مليونا ونسبية تفوق ١١٥٪ ٠ ويمثل سكان هذا الوطن ما يقرب من ٣ر٨٪ من اجمالى سكان العالم ، وانهم ينتشرون على رقعة واسعة من الارض تزيد نسبتها على ٩٪ من جملة مساحة العالم ٠

وتتميز كافة الاقطار العربية بنسب عالية من النمو السكانى تصــل فى معدلها السنوى العام الى ٢ر٩٪ ، وهو معدل مرتفع يعادل ماعليه معدل نمو أمريكا اللاتينية ، ويفوق معدلات كل من افريقية(٢ر٧٪) والبلــــــدان الصناعية المتقدمة(٠ر٨٪) والعالم ككل (٢ر١٪) ٠ ويلاحظ ان أعلى معدلات النمو هى فى الاقطار المنتجة للنفط ، وخاصة العربية الخليجية حيث وصلت

نسب النمو الى حوالى ٩٪ فى قطر و ٦ر٩٪ فى دولة الامارات العربية المتحدة و ٣ر١٠٪ في الكويت(١) • ويبلغ الحد الادنى للنمو السكانى ٥ر٢٪لجمهورية مصر العربية ، فى حين تحتل نسب النمو فى العــراق وسوريا (٤ر٣٪) والجزائر (٥ر٣٪) •

ان الزيادات السكانية اما طبيعية ، وتنتج عن الفرق بين الولادات والوفيات ، أو تترتب عن الهجرة • وقد لعب العامــــلان دورا فى الزيادة السكانية للوطن العربى • فمن جهة ان نسبة المواليد كانت ولا زالت عالية جدا تتراوح ما بين ٤٣ ـ ٥٠ بالالف(٢) ، يقابلها انخفاض مستمر فى نسبة الوفيات الى أن وصلت في معدلها الى حوالى ١٥ بالالف مما جعل نسب النمو السكانى الطبيعى مرتفعة ، مقارنة بما عليه اقاليم العالم الاخرى (أنظر الجدول رقم ـ ـ ١ ـ) •

جدول رقم (١)

المنطقة	معدل المواليد بالألف	معدل الوفيات بالألف	معدل الزيادة الطبيعية بالالف
الاقطار العربية كمجموعة	٤٤	١٥	٢٩
أفريقية (عدا الاقطار العربية)	٤٨	٢١	٢٧
آسيا (عدا الاقطار العربية)	٣٥	١٤	٢١
أمريكا اللاتينية	٣٨	٩	٢٩
أمريكا الشمالية	١٧	٩	٨
أوربـــا	١٨	١٠	٨

(١) د• صادق مهدى السعيد : السكان والقوى العاملة فى اقطـــار الخليج العربى ، (بحث مقدم الى ندوة الخليج العربى فى جامعة البصرة ، اذار ١٩٧٥) •

(٢) لاتشذ عن هذا المعدل سوى اقطار عربية قليلة فى مقدمتها لبنان حيث تبلغ نسبة الموالد فيها٣٤ بالالف ، تليها جمهورية مصر العربية وتونس حيث ان نسبة المواليد فيهما ٣٥ ٤٠ بالالف على التوالى • ويرجع انخفاض نسبتهما الى اسباب منها ادخال برامج تنظيم الاسرة الاسرة منذ حوالى ١٩٦٥ • أما انخفاض النسبة فى كل من قطر (٣٧ بالالف) والامارات المتحدة (٣٨ بالالف) فتعود الى عدم دقة المعلومات وضخامة الهجرة الوافدة •

واذا أمعنا النظر فى الجدول رقم (٢) عن المعدلات الحياتية لمعظم الاقطار العربية لاتضحت لنا عدة حقائق الى جانب النسب العالية للمواليد • ومن أول هذه الحقائق هى أن قيم معدلات الخصوبة تضع الاقطار العربية بين أكثر المجتمعات خصوبة فى العالم • فقد تراوح معدل عدد الاطفال الذين ولدوا فى أى وقت لاية امرأة أتمت حياتها الخصبة ما بين ٦ــ٨ أطفال • ولم يشذ عن ذلك سوى لبنان حيث كان المعدل ٥ أطفال فقط • ان هذا المعدل يعتبر مرتفعا جدا مقارنة بالمعدل العالمى الذى هو فى حدود ٣ أطفال • واذا أمعنا النظر فى واقع المجتمع العربى لوجدنا بأن هناك مبررات اقتصادية واجتماعية لهذا المعدل العالى للخصوبة • فمعظم الاقطار العربية لا زالت تعانى من ارتفاع نسبة الوفيات ، وخاصة بين الاطفال(جدول ٢) • كما تنتشر الامية على نطاق واسع ، فضلا عن الصعوبات الاقتصادية حيث يعتمد معظم السكان فى حياتهم على نشاطات اقتصادية هامشية لا تدر عليهم سوى دخل محدود للغاية • هذا فضلا عن تدنى المستويات الثقافية بين أفراد المجتمع • كل ذلك خلق الاجواء المناسبة لارتفاع معدلات الخصوبة لمواجهة :

١ ــ ارتفاع نسب الوفيات ، وخاصة بين الاطفال •

٢ ــ الضائقة الاقتصادية ، حيث ان العوائل ترى بزيادة أفرادها مجالا للاسهام فى النشاطات الاقتصادية ، وزيادة طاقتها على الكسب •

٣ ــ المخاطر ، حيث ترى الاسرة ان زيادة العدد يضمن الامن حين يتقدم بالوالدين العمر •

جدول (٢)
المعدلات الحياتية لبعض الدول العربية

القطـر	معدل المواليد بالالف	معدل الخصوبة الكلى	معدل الوفيات بالالف	معدل الوفيات بين الاطفال بالالف	معدل الزيادة الطبيعية٪
المغـرب	٤٦	٧	١٦	١٤٩	٣
الجزائر	٤٩	٧ر٢	١٥	١٢٨	٣ر٤

تونس	٤٠	٦ر٧	١٤	١٢٠	٢ر٦
ليبيـا	٤٥	٦ر٨	١٥	—	٣
مصـر	٣٥	٦ر٢	١٤	١١٨	٢ر١
السـودان	٤٨	٧	١٧	١٢١	٣ر١
العـراق	٤٩	٧ر٢	١٧	—	٣ر٢
سـوريا	٥١	٧ر٨	١٤	١١٨	٣ر٧
الأردن	٥٠	٧ر٧	١٦	١٠٥	٣ر٤
لبـنان	٣٤	٥	٩	٦٥	٢ر٥
الكويت	٤٧	٧	٦	٥٠	٤ر١
البحـرين	٤٣	٦ر٧	٨	٦٣	٣ر٥
قطـر	٣٧	–	٦	–	٣ر١
السعودية	٥٠	–	٢٠	–	٣
الامارات العربية المتحدة	٣٨	–	١٠	–	٣ر٨
اليمن الشمالى	٥٠	–	٢١	–	٢ر٩
اليمن الجنوبى	٥٠	–	٢١	–	٢ر٩
عمـان	٥٠	–	٢٧	٢٢٠	٢ر٣

المصـدر :

1 — U.N. Demographic Yearbook, 1970 — 1975 .
2 — U.N. Statistical Yearbook,1976 .

ويختلف الحال فى معدلات الوفيات (جدول رقم ـ٢ـ) اذ ليس هناك تجانس أو تقارب مطلق فى نسب وفيات الاقطار العربية المختلفة ، كالذى لاحظناه عند دراسة معدلات الخصوبة · فالخصوبة كما يبدو ، مرآة تعكس الاوضاع الاجتماعية والدينية والتطور التاريخى وعادات وتقاليد وتراث المجتمع ونظرته الى الحياة ، فى حين أن معدلات الوفيات تخضع لمؤشرات اقتصادية وثقافية وصحية هى نتاج حضارة حديثة متطورة · ولما كانت المجتمعات العربية تتباين فى المستوى الذى بلغته من هذه المؤشرات الحضارية الحديثة ، كان لزاما ان تتباين ، وبصورة واضحة ، فى مستوى معدلات

الوفيات التي هي عليه • وكان المدى بين هذه المعدلات كبيرا اذ أنها تراوحت بين ٦ ، ٢٧ بالالف (جدول ـ ٢ ـ) • وتبعا لذلك يمكن تقسيم الاقطار العربية الى ثلاث مجموعات هي :

١ ـ مجموعة الاقطار التي يبلغ معدل نسبة الوفيات فيها ١٠ بالالف فأقل وتشمل كلا من لبنان والكويت وقطر والبحرين والامارات العربية المتحدة • ان جميعها ، باستثناء لبنان ، أقطار نفطية تمارس خططا تنموية سريعة وواسعة هدفها رفع المستويات المعيشية والصحية والتعليمية والثقافية لسكانها ، وهي كفيلة بتقليص نسب الوفيات بين أفرادها ، وخاصة بين الاطفال • اما لبنان فانها على مستوى اقتصادي وثقافي وصحي يؤهلها لان تكون من ضمن هذه المجموعة •

٢ ـ مجموعة الاقطار ذات النسب العالية في معدلات الوفيات حيث تبلغ ٢٠ بالالف فأكثر • وتشمل هذه المجموعة المملكة العربية السعودية واليمن الشمالي واليمن الجنوبي وسلطنة عمان والصومال وموريتانيا وجيبوتي • انها أقطار لم تبلغ في تنميتها الصحية والتعليمية والثقافية ، وحتى الاقتصادية، المستوى الذي يمكنها من أن تخفض نسب وفياتها الى المستوى المقبول • ولكنها ساعية وبخطى سريعة نحو تذليل الصعوبات •

٣ ـ مجموعة الاقطار التي تتراوح نسب الوفيات فيها بين ١٠ـ٢٠ بالالف وتمثل هذه المجموعة غالبية أقطار الوطن العربي ، وانها جميعا تمر بمرحلة انتقالية نحو تحسين أوضاعها العامة • وتقليص حجم مشاكلها • ان واقع الارقام يوحي بحقيقتين هامتين :

١ ـ ان المعدلات التي وردت في جدول ـ٢ـ وكررناها في مناسبات عديدة تشير مباشرة أو بصورة غير مباشرة الى أن معظم الاقطار العربية هي في مرحلة انتقالية ، وانها تسعى وبصورة جدية الى تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية • ولهذا فانها ستمر في المستقبل القريب بممارسات تؤدي الى خفض نسب المواليد والخصوبة والوفيات ، ولكن هذا الخفض سوف لا يكون بمستوى واحد ، وان الزيادة الطبيعية ستستمر عالية رغم ذلك •

٢ ـ ان ما يميز ظاهرة انخفاض نسب الوفيات في كثير من الاقطار

العربية انها لم تأت كنتيجة طبيعية لتغير الهياكل الاقتصادية وتحسين الاوضاع المعاشية والثقافية ، كما حصل سابقا فى الدول المتطورة ، وانما كان ذلك ، وبسبب رئيسى ، نتيجة لعامل خارجي ، وهو استعمال الادوية والوسائل الصحية المستوردة التى توسع استعمالها بعد الحرب العالمية الثانية ٠ وهذا فى نفس الوقت ، يفسر كيف أن نسب المواليد والخصوبة قد استمرت عالية لانها وليدة الواقع الاجتماعى والتاريخى والحضارى والقومى والدينى وليست مستوردة من حضارة أخرى ٠ ولهذا فان خفض نسبتهما يتطلب تغيير واقع حضارى بواقع حضارى جديد ، وسوف لا يكون بالسهولة التى عليها استيراد الدواء أو صنعه ٠

نمو سكان الوطن العربى حتى نهاية القرن العشرين :

رغم تطور الدراسات السكانية ، النظرية منها والتطبيقية ، الوصفية والكمية ، الا أن تقدير الحجم السكانى لا يكون بالدقة المطلوبة ، خاصة وان هذه الدقة تقتضى تفهم مجموعة من المؤشرات التى يعتمد عليها اتجاه النمو السكانى ٠ ان تقدير ما عليه سكان الوطن العربى فى نهاية القرن يتطلب معرفة ما ستكون عليه نسب المواليد والوفيات والخصوبة ، فضلا عن تقدير طول أمد الحياة ومستوى النمو الاقتصادى والحضارى عامة ٠ ولما كان تقدير هذه المؤشرات تقديرا دقيقا ، أو حتى تقريبيا ، سوف لن يكون متيسرا فى المدى القريب فى بلدان تعانى من نقص كبير وعدم دقة فى الاحصاءات فان تقدير الواقع السكانى سوف لن يكون متيسرا هو الاخر ٠ ان الحصول على الاحصاءات التى ننطلق منها لمعرفة المستقبل ليست سهلة فى بلدان لم تمارس التفهم الواعى لمقاصد التعدادات السكانية وأهدافها، ولم ترسخ فيها تقاليد جمع المعلومات ، فضلا عن أن معظم سكانها أميون يرتابون من التحريات الرسمية ، ولم يعتادوا تقديم المعلومات الاحصائية(٣) ٠

ولكن هذا الواقع يجب أن لا يثنينا عن اعطاء صورة تقريبية عن الحجم السكانى فى نهاية هذا القرن مستندين الى مؤشرات الواقع المعاصر وتطلعات

---

(٣) الدكتور حسن الخياط ، « تغيير التوزيع الجغرافى لسكان الجمهورية العربية الليبية » مجلة كلية التربية بالجامعة الليبية ، العدد الثانى ، ١٩٧١ ، ص ٧٧ ــ ١١٧ ٠

المستقبل • فنسبة الوفيات هي في طريقها الى التقلص نظرا لتحسن الاوضاع المعيشية ولزيادة امكانات التنمية الاقتصادية والاجتماعية لمعظم الاقطار العربية• ولا نكون مجافين للحقيقة اذا قدرنا ما عليه نسبة الوفيات في نهاية القـــرن بحوالى ٨ بالالف حسب المتغير المنخفض و ١٣ بالالف حسب المتغير المرتفع • أما بالنسبة للمؤشر الثانى وهو نسبة الولادات فان اسقاطات الامم المتحدة الخاصة بالسكان تقدرها لنهاية القرن بحوالى ٢٨ بالالف حسب المتغير المنخفض و ٣٥ بالالف حسب المتغير المرتفع • ولكن هناك احتمال باستمرار نســـبة الولادات حول المعدل الحالى أو تنخفض بنسبة ضئيلة في المستقبل القريب • وفي هذه الحالة سيكون النمو السكانى كبيرا يتراوح ما بين ٣ ـ ٤٪ • كما يجب أن لا نغفل مؤشرا مهما آخر هو معدل طول أمد الحياة للمواطن العربى • فمن المؤكد ان تحسن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية والثقافية لسكان الوطن العربى بين الآن ونهاية القرن ستكون له مردودات ايجابية على طول أمد الحياة • ويميل الخبراء الى أن أمد الحياة بين سكان الوطن العربى سيزيد على الارجح بمعدل لا يقل عن٪ سنة في العام الواحد • ولهذا فان متوسط الاعمار المتزايد الى جانب فتوة بنية السن الناتجة عن نقص الوفيات بين الاطفال لابد وان يؤديا الى انخفاض سريع في معدل الوفيات عموما مما يعتبر مؤشرا هاما في الزيادة السكانية المستقبلية •

ان مسار معدلات الولادات والوفيات والخصوبة هو الذى يحدد اتجاهات النمو السكاني وحجمه • وقد اشرنا في مناسبة سابقة الى أن معدل الوفيات سيتعرض الى انخفاض مستمر نتيجة لتوجه المنطقة بكاملها نحو تنميةاقتصادية واجتماعية شاملة • أما معدل الولادات والخصوبة فهو أقل حساسية للتغـــير السريع • وعلى هذا فان الاسقاطات السكانية لابد وان تأخذ هذه المتغيرات بنظر الاعتبار لتكون تقديراتها السكانية موضوعيـــة • وتلجـــأ الدوائر السكانية في العادة ، الى تقدير السكان على أساس عدة متغيرات ، كأن يكون المتغير ثابتا أو عاليا أو متوسطا أو منخفضا • فالمتغير الثابت يفترض انخفاض معدل الوفيات مع بقاء معدل الولادات والخصوبة ثابتا على مستواه ، في حين يفترض المتغير العالى والمتوسط والمنخفض انخفاض معدل الوفيـــات وكذلك معدل الولادات والخصوبة ، ولكن بنسب مختلفـــة • وحسب اسقاطات المتغيرات المتنوعة يمكن تقدير الحجم السكانى للوطن العربى في نهاية القرن • فقد وجد وفقا للاسقاطات التى تبناها قسم السكان بهيئة

الامم المتحدة ان سكان الوطن العربى سيزدادون بمعدل ٦ر٢٪ حسب متغير الاسقاط المنخفض أو ١ر٣٪ حسب متغير الاسقاط المرتفع(٤) • وهذا يعنى زيادة فى السكان تتراوح ما بين ١١٥ و ١٥٥ مليون نسمة ، بالاضافة الى عددهم عام ١٩٧٨ والبالغ ١٥٥ مليون نسمة • وبهذا سيكون حجم السكان فى نهاية هذا القرن ما بين ٢٧٠ مليون حسب المتغير المنخفض و ٣١٠ مليون حسب المتغير العالى ، أو ٣٣٠ حسب المتغير الثابت •

ثانيا : البنى السكانية للوطن العربى :

تؤكد هذه الدراسة على نوعين من البنى السكانية هما بنية السن (التركيب العمرى) والبنية الاقتصادية (أو التركيب الاقتصادى للسكان) والبنى بنوعيها تتأثر تأثرا واضحا بالنمو السكانى • وفيما يلى نبذة عن كل منهما :

١ ـ بنية السن :

تجدر الاشارة أولا الى أن بيانات الأعمار فى تعدادات السكان لمعظم الأقطار العربية هى ليست بالدقة والتفصيل المطلوبين • فهى لا تخلو من اخطاء ، وربما اخطاء كبيرة ومظللة ، مما يستدعى معاملتها بحذر تام •

كما تجدر الاشارة الى اننا بدراستنا لبنية السن سنقتدى بكثير من الدراسات السكانية الأخرى من حيث تقسيمها للسكان الى ثلاث فئات عريضة هى :

١ ـ فئة الأعمار أقل من ١٥ سنة •
٢ ـ فئة الأعمار ١٥ ـ ٦٤ سنة •
٣ ـ فئة الأعمار ٦٥ سنة فأكثر •

---

4 — U.N, Populatiin Division, "Wirld Population Prospects 1970 — 200, as assessed in 1973 .

يلاحظ فى الجدول رقم (٣) ان معظم المجتمعات العربية فتية الى درجة كبيرة • فنسبة فئة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) تزيد فى معظم الأقطار على ٤٤٪ من جملة السكان • أنها مرتفعة جدا ، قياسا بالمتوسط العالمى الذى هو فى حدود ٣٧٪ أو بمتوسط الدول المتقدمة الذى يبلغ ٢٨٪ من جملة السكان •

وتعزى ظاهرة ارتفاع نسبة صـــغار السن فى المجتمع العربى الى ارتفاع نسبة الخصوبة من جهة (انظر جدول رقم ٢) ، والى انخفاض نسبة الوفيات ، وخاصة فى الأعمار المبكرة التى تشكل وفياتها نسبة كبيرة من جملة الوفيات ، من جهة أخرى • ولاتشذ عن هذا الوضع سوى دولتا قطر والامارات العربية المتحدة حيث ان نســبة صـــغار السن فيهما هى ٣٨٪ و ٢٨٪ من جملة السكان على التوالى ، وهما نسبتان صغيرتان بسبب ان نسبة كبيرة من سكانهما هم من الوافدين الذين تقع اعمارهم فى الفئـــة الثانية •

ويختلف الوضع فى فئة السن (١٥ ـ ٦٤ سنة) اذ تتراوح نسبتها من مجموع السكان فى الأقطار العربية الواردة فى الجدول رقم (ـ ٣) ما بين ٤٦٪ فى الاردن و ٧٠٪ فى دولة الامارات العربية المتحدة • ان هذه النسب ، باستثناء ما عليه قطر (٦٠٪) والامارات العربية المتحدة (٧٠٪) منخفضة ، قياسا بالمتوسط العالمى الذى هو فى حدود ٦ر٥٧٪ ومتوسط الدول المتقدمة الذى يبلغ ٦٣٪ اما عن ارتفاع نسبتى هذه الفئة فى دولتى قطر والامارات العربية المتحدة فيعود الى كثرة الوافدين من الشباب للعمل فى منطقة الخليج العربى فنسبة فئة هذا السن بين غير القطريين هى فى حدود ٧٥٪ وهى بقدر مرة ونصف المرة مـا عليه نســـبة هذه الفئة بين القطريين أنفسهم •

ان ظاهرة انخفاض نسبة فئة الأعمار (١٥ ـ ٦٤ سنة) بين سكان معظم الأقطار العربية له مردودات اقتصادية واجتماعية وسكانية • فعليها يترتب انخفاض مستوى نسبة قوة العمل بين السكان • فاذا اعتبر سكان فئة (١٥ ـ ٦٤ سنة) يمثلون قوة العمل والعائلين فى المجتمع فى ذات الوقت ، واعتبر صغار السن (أقل من ١٥ سنة) وكبار السن (٦٥ سنة فأكثر) هم المعولين ، فأن التكوين العمرى للسكان يظهر انخفاض نسبة العائلين وارتفاع نسبة المعولين • ان لهذا الهيكل العمرى ، دون شك ، اثاره السيئة على انتاجية السكان •

جدول رقم (٣)

النسب المئوية لبنية سن السكان فى بعض الاقطار العربية

القطـــر	فئات السن ٪ اقل من ١٥ سنة	١٥ـ٦٤ سنة	٦٥ فاكثر
المغـــرب	٤٦	٤٩	٥
الجـزائر	٤٨	٤٩	٣
تونس	٤٤	٥٣	٣
ليبـــيا	٤٥	٥٢	٣
مصـــر	٤٤	٥٣	٣
الســـودان	٤٨	٥٠	٢
العـراق	٤٧	٤٩	٤
ســـوريا	٤٩	٤٧	٤
لبنان	٤٣	٥٢	٥
الاردن	٥١	٤٦	٣
الكـــويت	٤٣	٥٥	٢
البحـــرين	٤٧	٥٠	٣
قطـــر	٣٨	٦٠	٢
الامارات العربية المتحدة	٢٨	٧٠	٢
اليمن الجنوبى	٤٨	٤٨	٤

المصدر :

الامم المتحدة « الكتاب الديموغرافى السنوى ١٩٧٣ ، نيويورك ١٩٧٤ .

اما عن فئة كبار السن (٦٥ سنة فأكثر) فتتراوح بين ٢٪ و ٥٪ من جملة سكان الأقطار العربية ٠ انها منخفضة حقا قياسا بما عليه المستوى العالمي أو مستوى الدول المتقدمة ٠ ان انخفاض هذه النسبة يدل على أن أمد الحياة لمعظم سكان الوطن العربي لازال قصيرا ، ويعزى ذلك الى ضعف الوعي الصحي وسوء التغذية وتفشي الجهل وارتفاع نسبة الأمية بين مجموعات كبيرة جدا من سكان الوطن العربي ٠

٢ ـ البنية الاقتصادية لسكان الوطن العربي :

تتضح من دراسة الأرقام الواردة في الجدول رقم (ـ ٤) مجموعة من الحقائق ذات الصلة بالقوة العاملة في ١٢ دولة عربية التي تتوفر لها هذه الأرقام ٠ وفيما يلي عرض وتلخيص لهذه الحقائق :

١ ـ الظاهرة الأولى الواضحة هي ان نسبة القوة العاملة من اجمالي السكان في معظم الأقطار العربية منخفضة ، بل منخفضة جدا ، مقارنة بمستوياتها في الدول المتطورة ٠ وتبلغ هذه النسبة في معظم الأقطار العربية بين ٢٠ ـ ٣٠٪ من اجمالي السكان ، وهو المعدل السائد في الدول الحديثة النمو حسب المعايير المستخدمة لقياس حجم القوة العاملة ٠ ان انخفاض نسبة العمالة يعني ان من بين كل ١٠٠ فرد يعتمد ٧٠ فردا على الأقل على عمل ٣٠ فردا فقط ٠ ان هذا دليل على ارتفاع عبء الاعالة على السكان المنتجين ٠

ويرجع انخفاض نسبة العمالة الى مجموعة من العوامل من أهمها :

أ ـ ارتفاع نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في المجتمع الذين هم دون سن العمل ٠ فقد اشرنا في مناسبة سابقة بأن هذه النسبة تصل الى أكثر من ٤٤٪ من جملة السكان في معظم الأقطار العربية الواردة في جدول رقم (ـ ٣) ٠ ان ارتفاع هذه النسبة هو بطبيعة الحال على حساب نسبة السكان في سن العمل ٠

ب ـ الاهتمام المتزايد بالتعليم وتزايد الملتحقين بمراحله المختلفة أدى

جدول رقم (٤)
القوة العاملة من الذكور والاناث من اجمالى السكان

القطر	نسبة القوة العاملة من اجمالى السكان	الذكور %	الاناث %
المغـــرب	٢٦ر٣	٤٤ر٥	٨ر٠
الجزائـــر	٢١ر٧	٤٢ر٢	١ر٨
تونس	٢٤ر١	٤٤ر٤	٣ر٠
ليبـــيا	٢٥ر٦	٤٦ر٦	٢ر٧
مصـــر	٢٦ر١	٤٨ر٢	٤ر٠
السودان	٣٧ر٤	٦٦ر٧	٧ر٥
العـــراق	٢٨ر٣	٥٤ر١	٢ر٣
سوريا	٢٥ر٣	٤٠ر٦	٩ر٦
الاردن	٢٣ر١	٤٣ر١	٢ر٦
البحرين	٢٩ر٢	٥١ر٦	٢ر٤
الكـــويت	٣٢ر٤	٥٣ر٠	٢ر٥
اليمن الجنوبى	٣٨ر٦	٥٥ر١	٢ر٢
قطـــر	٤٧	—	٢ر٩
الامارات العربية المتحدة	٥٢	—	٣
عمـــان	٢٠	—	٢

المصـــدر :

ان المصدر للاثنى عشر قطر عربى الاولى هو

U.N Demographic Yearbook, 1970, pp 595 — 619

أما الاقطار الثلاثة الاخرى فأرقامها من مصادر محلية ·

الى تأخر سن الدخول الى سوق العمل ٠

جـ ـ الانخفاض الكبير فى معدل اسهام المرأة فى النشاط الاقتصادى (جدول ـ ٤) ، فهى تسهم بنصيب ضئيل للغاية ٠ فنسبة مساهمتها فى كافة الأقطار العربيـــة تقع بين ٢ ـ ١٠٪ من جملة القوة العاملة ٠

أما عن ارتفاع نسبة العمالة لجملة السـكان فى الأقطـار العربيـة الخليجية ، وبخاصة قطر والامارات العربية المتحدة فيعود الى فرص العمل الكثيرة المتاحة بسبب مشروعات التنمية التي تنفذها ، فضلا عن ان غالبية قوة العمل هى من العمالة الوافدة ، حيث تشكل الاخيرة أكثر من ٧٥٪ من جملة قوة العمل ٠

وتقودنا دراسة البنية السكانية الى الخوض باختصار فى أهم أوجه النشاط الاقتصادى فى الوطن العربى ٠ وارقام هذه الأوجه تظهر فى الجدول (رقم ٥) ، حيث يتضح منها أن نسبة العمالة فى القطاع الصناعى منخفضة نسبيا ، وان ارتفاع نسبتها فى بعض الأقطار كـالكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة يعود الى انها أقطار نفطية قطعت شوطا فى تنمية بعض الصناعات ، فضلا عن ان نسبة من العمال تعمل فى القطاع النفطى الصناعي حيث تكون هذه الصناعة من بين أهم النشاطات فى هذا القطاع ٠ ان التركيز المتزايد فى الدول العربية الخليجية على الصناعة هو بقصد تنفيذ سياسة تنويع مصادر الدخل ٠

وعلى خلاف الصناعة فان العمالة الخليجية فى قطاع الزراعة لا تمثل الا مرتبة متأخرة جدا ولا تحتل الا أهمية محدودة ٠ فلايمثل هذا القطاع سوى ٢٪ من القوة العاملة فى الكويت و٤٪ فى قطر و ٥٪ فى الامـارات المتحدة و ٧٪ فى البحرين ٠ الا أن الوضع يختلف تماما فى أقطار عربية أخرى ، اذ يمثل القطاع الزراعى أهم مستوعب للقوة العاملة ، كما هو الحال فى السودان واليمن الشمالى وعمان ٠ وعموما يمكن القول بأن أهميـة القطاع الزراعى بدأت بالتقلص فى عدد من الأقطار العربية لصالح قطاعى الصناعة والخدمات ، وان مثل هذه الأقطار أخذت تخضع لهجرة واسعة من الريف الى الحضر ٠ ان مثل هذه الهجرة قد أدت الى اغراق اسواق العمل

فى المدن بالنازحين من العمال غير المهره · فالانتقال بالدرجة الأولى قد حدث من القطاع الزراعى الى الخدمات ، وهذا الاتجاه هو نقيض ما شهدته البلدان المتقدمة فى الغرب خلال القرن التاسع عشر حيث حصل الانتقال أولا من القطاع الزراعى الى القطاع الصناعى ، ثم بعد ذلك من القطاع الصناعى الى الخدمات ·

ومن الملاحظ فى جدول (٥) ان نسب العمالة فى قطاع الخدمات للأقطار العربية تتراوح بين ٣٠٪ فى سوريا والجزائر و ٦٥٪ فى الكويت وقطر · ويرجع السبب فى النسب الكبيرة فى الخدمات الى أقبال المواطنين على مزاولة الاعمال التى لا تتطلب جهدا كبيرا ، وخاصة الأعمال الحكومية ، بحيث أصبحت أجهزة الدولة أكبر مستخدم للأيدى العاملة التى أخذت تعتمد بصورة مطلقة على دخل الوظيفة المضمون ، دون أن تسهم المساهمة الفعالة والنشيطة فى عملية الانتاج وتطوير الاقتصاد الوطنى · كما ان ارتفاع مستوى المعيشة فى عدد من الأقطار العربية ، وخاصة الخليجية ، وتوجه اقتصادها توجها استهلاكيا استدعى نسبة عاليـــة من الذين يعملون فى الخدمات الشخصية والاجتماعية · وتحتل نسبة العاملين فى التجـــارة (ضمن قطاع الخدمات) مركزا متقدما ·

٣ ـ بنية السكان حسب الاستيطان :

كان النمو الحضرى خلال الربع الثالث من هذا القرن هائلا فى معظم الأقطار العربية وذلك بسبب الهجرة الى المدن أولا وارتفاع معدلات النمو الطبيعى لسكان هذه المدن ثانيا · وقد قدر قسم السكان فى الامم المتحدة ذلك النمو الحضرى بما يتراوح بين ٤٪ و ٧٪ فى حين نما ســكان الريف بما يتراوح بين ١ر٣٠٪ و ٢ر٣٪ · وكان تأثير الهجرة فى نمو سكان الحضر مباشرا وبصورة غير مباشرة · فالنمو المباشر كان بتأثير تدفق مجموعـــات من سكان الريف على المدن ·

أما التأثير غير المباشر فجاء نتيجة للتأثير فى التركيب العمرى ـ النوعى للسكان الحضر وفى السلوك الخاص بالانجاب · فمن الواضح ان بنية السن للمهاجرين تحوى نسبة كبيرة من الأعمار الشابه ذات الخصوبة ، مما يؤثر

جدول رقم (٥)
النسب المئوية لتوزيع السكان الناشطين حسب قطاعات النشاط لعدد من الاقطار العربية

القطـــر	للعمالة فى القطاع الزراعى %	للعمالة فى القطاع الصناعى %	للعمالة فى قطاع الخدمات %
المغـــرب ١٩٧١	٥٠	١٥	٣٥
الجزائر ١٩٧٠	٥٤	١٦	٣٠
تونس ١٩٦٦	٤١	١٩	٤٠
مصر ١٩٦٦	٥٣	١٦	٣١
العراق ١٩٦٩	٥٧	٩	٣٤
الأردن ١٩٧٢	١٨	١٨	٦٤
سوريا ١٩٧٢	٥٢	١٨	٣٠
لبنان ١٩٧٠	١٩	٢٥	٥٦
الكويت ١٩٧٠	٢	٣٣	٦٥
البحـــرين ١٩٧١	٧	٣٤	٥٩
السعودية ١٩٧٠	٤٠	٢٠	٤٠
قطـــر ١٩٧٠	٤	٣٢	٦٤
الامارات العربية المتحدة ١٩٧٥	٥	٤١	٥٤
عمان ١٩٧١	٨٣	٤	١٣
اليمن الشمالى ١٩٧٢	٨٥	—	١٥ —
اليمن الجنوبى ١٩٧٣	٤٥	١٢	٤٣

المصـــدر :

لمعظم الاقطار العربية المصدر هو : السكان والتربية والتنمية فى البلاد العربية ، من منشورات مكتب اليونسكو الاقليمى للتربية فى البلاد العربية (بيروت ١٩٧٧ م) ، ص ٣٤

ابجابيا على معدلات الزيادة الطبيعيةلسكان المدن كما يؤثر في نسبة الوفيات حيث ان الأعمار الشابة هي أقل تعرضا للوفاة من فئتي صغار الدن وكبار السن ٠

وقد حظيت العواصم والمدن الكبيرة في الوطن العربي بحصة الأسد من الزيادات السكانية فقد اصبحت هذه المدن مراكز اغراء وجذب لاعداد متزايدة من الريفيين الذين يطمحون الى حياة أفضل ٠ فقد نمت بغداد ، على سبيل المثال لا الحصر ، من ¼ مليون نسمة في نهاية الربع الأول من هذا االقرن الى أكثر من ٣ ملايين في عام ١٩٧٥ ، كما نمت بيروت من ١٠٠ ألف نسمة في بداية القرن الى أكثر من مليون نسمة في ١٩٧٠ ، وزاد سكان القاهرة على ٨ ملايين نسمة في عام ١٩٧٥ ٠ وقد أظهرت بعض المدن معدلات نمو سنوى مذهلة بلغت ١٨٪ لمدينة الكويت بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ و ١٠٪ لمدينة الرياض في الفترة ١٩٦٢ و ١٩٦٨ و ٣ر٨٪ لمدينة بغداد بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ و ١ر٦٪ بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ كما نمت مدينة عمان بمعدل ٨ر٧٪ في الفترة بين ١٩٦٦ و ١٩٧١(٥) ٠

ثالثا : السكان والأرض :

أشرنا سابقا الى ان مساحة الأرض العربية تزيد على ١٣ مليون كيلو متر مربع ، وهي لهذا تمثل مايقارب ٩٪ من مساحة العالم الكلية ٠ وينتشر على المساحة المشار اليها حوالى ١٥٥ مليون نسمة ، أو حوالى ٨ر٣٪ من اجمالي سكان العالم ٠ وعلى هذا تكون الكثافة السكانية المطلقة في حدود ١٢ نسمة للكيلو متر المربع الواحد ، وهي كثافة صغيرة قياسا بما عليه العالم حيث تبلغ كثافته ٢٨ نسمة للكيلو متر المربع الواحد ، وما عليه أوروبا التي تزيد كثافتها على ٩٥نسمة للكم٢ الواحد وكثافة آسيا البالغة ٧٥ نسمة وكثافة أفريقية التي تقدر بأكثر من ١٣ نسمة للكيلو متر المربع الواحد ٠ غير ان الكثافة السكانية هذه تختلف من قطر عربي الى آخر ، فهي تتراوح ما بين حوالى ٤٤٠ نسمة في البحرين و ٢٦٠ نسمة في لبنان

---

5 — Abu - Lughod, Janet, "Problems and Policy implications of Middle Eastern Urbanization", UNESOB / ESOB / HR / 72 / 4, March 1972, p.9 .

من جهة ونسمة واحدة تقريبا للكيلو متر المربع الواحد فى الجماهيرية الليبية وحوالى ٣ ـ ٥ نسمة فى شبه الجزيرة العربية و ٧ نسمات فى كل من الجزائر والسودان · وبمثل ما تختلف الكثافات فى الاقطار العربية تختلف أحجام سكانها ايضا فهى تتراوح ما بين ٢٠٠ ألف نسمة لدولة قطر وحوالى ٤٠ مليون لجمهورية مصر العربية (انظر الجدول رقم ٦) ·

وعلى اساس الكثافة الحسابية المطلقة يمكننا تقسيم الوطن العربى الى خمسة أقسام (انظر الخارطة رقم ـ ١ ـ) وهذه الاقسام كالآتى :

١ ـ الجزء الأعظم من الوطن العربى عبارة عن صحارى فارغة السكان تماما أو ان كثافتها صغيرة جدا هى أقل من نسمة واحدة للكيلو متر المربع الواحد · انها تمتد على طول الوطن العربى من المحيط الاطلسى عبر الصحراء الكبرى فى الشمال الافريقى ثم تتوقف عبر البحر الأحمر لتظهر فى شبه جزيرة العرب حتى الساحل الغربى للخليج العربى ·

٢ ـ مناطق قليلة الكثافة ، وان كثافتها أقل من ٢٠ نسمة للكيلو متر المربع الواحد · انها تشمل مناطق واسعة من موريتانيا والمغرب والجزائر وليبيا ، فضلا عن مساحات من العراق وسوريا والاردن وكثير من المناطق الساحلية من شبه جزيرة العرب ·

٣ ـ مناطق متوسطة الكثافة ، وتتراوح كثافتها بين ٢٠ ـ ١٠٠ نسمة للكيلو منر المربع الواحد وتشمل معظم جهات سوريا والعراق والسودان والصومال وساحل ليبيا وتونس ومناطق من الجزائر والمغرب ·

٤ ـ مناطق مرتفعة الكثافة ، وتتراوح كثافتها بين ١٠٠ ـ ٥٠٠ نسمة للكيلو متر المربع الواحد · وتشمل مناطق متفرقة من سواحل البحر المتوسط فى كل من آسيا وافريقية والبحرين وجميع لبنان وفلسطين المحتلة ومناطق من السودان ·

٥ ـ مناطق كثيفة السكان جدا ، أو مزدحمة السكان ، وتزيد كثافتها على

جدول (٦)

حجم وكثافة سكان الاقطار العربية

القطــر	السكان بالالاف ١٩٧٥	المساحة كم٢ بالالاف	الكثـافة الاجمالية للكم٢	الكثافة للاراضي غـير الصحراوية للكم٢
أقطار الشمال الافريقى	١٠١٩٩٠	٩٩٢٦	٣ر١٠	
المغرب ١٩٧٣	١٧٥٠٤	٤٤٥	٤٢	٢٥٠
موريتانيا ١٩٧٢	١٢٢٧	١٠٣١	٢ر١	ــــ
الجزائر ١٩٧٣	١٦٩٠٨	٢٣٨٢	٧	٢٧١
تونس ١٩٧٣	٥٧٤٧	١٦٤	٣٦	١٢٧
ليبيـا ١٩٧٣	٢٢٥٥	٥ر١٧٥٩	٤ر١	٨٨

مصر ١٩٧٣	٣٧١٤٠	١٠٠١ر٤	٣٧	١٠٤٩
السودان ١٩٧٣	١٨٢٦٨	٢٥٠٦	٧	٢٥٩
الصومال ١٩٧٢	٢٩٤١	٦٣٨	٤ر٧	—
جيبوتى	—	—	—	—
الاقطار العربية الاسيوية	٢٤ر٥٤٧	٢ر٧٤٤	٣٣	٥٩
العراق ١٩٧٣	١١١٢٤	٤٣٥	٢٦	٤٧
سوريا ١٩٧٤	٧٦٠٦	١٨٥	٤١	٥٣
الاردن	١٩٠٩	٩٨	٢٠	٩٠
لبنان ١٩٧٣	٢٧٢٠	١٠ر٤	٢٦٢	٢٦٢
فلسطين	—	—	—	—
الكويت	١١٨٨	١٦	٧٤	١٣٢
البحرين	٢٦٢	٠ر٦	٤٣٧	٤٣٧
قطـر	١٦٣	٢٢	٧	—
الامارات المتحدة	٣٤٥	٨٤	٤	—
عمـان	٧٠٠	٢١٣	٣	—
السعودية	٦٢٩٣	٢١٤٩ر٧	٣	٩
اليمن الشمالى	٥٣٠٠	١٩٥	٢٧	—
اليمن الجنوبى	١٦٩٥	٢٨٨	٦	—

مصادر الارقام :

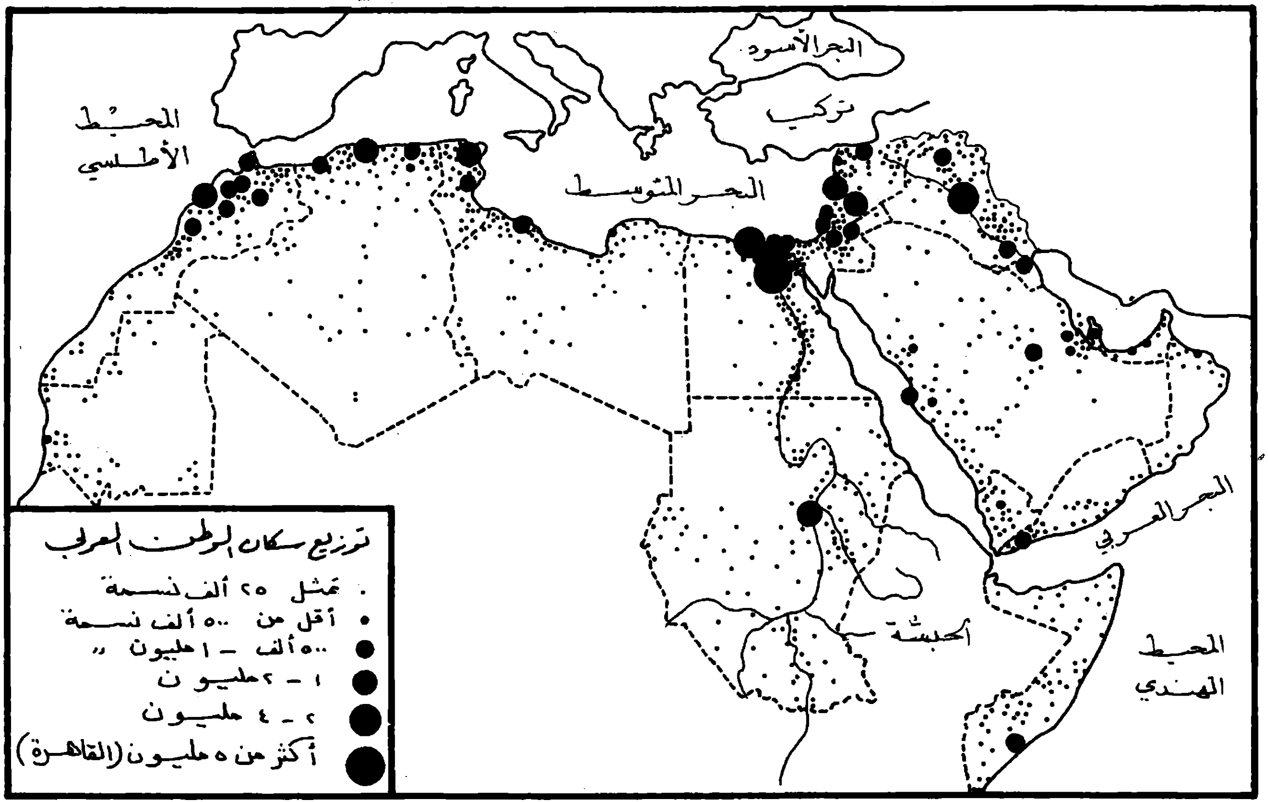
السكان والتربية والتنمية فى البلاد العربية (من منشورات مكتب اليونسكو الاقليمى للتربية فى البلاد العربية (بيروت ١٩٧٧) ص ١٧ـ١٨ .

٥٠٠ نسمة للكيلو متر المربع الواحد . وتشتمل على مناطق محدودة من الوطن العربى ، يبرز فى مقدمتها وادى النيل والدلتا فضلا عن مناطق أخرى محدودة فى لبنان وفلسطين . ومن الظواهر البارزة فى الكثافة العالية هنا ان هذه الكثافة تصل فى الاراضى غير الصحراوية من جمهورية مصر العربية الى أكثر من ١٠٠٠ نسمة للكيلو متر المربع الواحد . مما يؤكد ان هذه الاقسام تعانى من ضغط سكانى متزايد وخاصة فى المناطق الريفية . ان الكثافة العامة الحسابية المطلقة لاتعد مؤشرا صادقا لمعرفة مستوى الضغط السكانى على الارض . فالجفاف يطغى على البيئة العربية ، وان الصحارى هى الظاهرة البارزة فى ارجائها المختلفة ، وهى بيئة طاردة للسكان . وحسب بعض التقديرات تبلغ مساحة الاراضى القابلة للزراعة فى الوطن العربى حوالى ١٣٣ر١ مليون كيلو متر مربع ، وهى بهذا تمثل حوالى ٨٪ فقط من المساحة الكلية غير انه من هذه المساحة لايزرع سنويا سوى ٤٤٠ ألف كيلو متر مربع(٦) وهى بهذا تمثل حوالى ٣٠٪ من المساحة القابلة للزراعة أو ٤ر٣٪ من المساحة الكلية للوطن العربى . ان هذه النسب تعتبر صغيرة جدا ، مقارنة بما عليه نسبة العالم ككل التى تبلغ ٣٥٪ ونسبة افريقية التى تقدر بحوالى ٤٠٪ ونسبة امريكا اللاتينية التى تصل الى ٣٠٪ من جملة مساحتها . وتشير هذه الارقام الى ان مايزرع فعلا من الاراضى الزراعية يتميز بقلة التنوع وانخفاض الانتاجية . وفى الجدولين (٧) و (٨) نظهر الاهمية النسبية للسكان والمساحة فى الوطن العربى مقارنة بما عليه سكان ومساحة مناطق العالم المختلفة .

نستخلص مما تقدم ان الاراضى المتوفرة فى الوطن العربى كبيرة ، وان الاراضى القابلة للاستغلال متناسبة مع نسبة سكان الوطن العربى ، وهى توفر الامكانات لتنمية اقتصادية . الا ان المشكلة القائمة حاليا هى عدم وجود التنسيق والتكامل والتعاون بين الاقطار العربية ، بالرغم من عدم التناسب بين السكان وهذه الموارد . ان هذا الوضع من التجزئه يعتبر من العوامل المهمة فى سوء استغلال الموارد المتاحة وبروز المعوقات الجدية أمام عمليات التنمية القطرية حاليا .

---

(٦) الدكتور غريب الجمال ، اقتصاديات الوطن العربى ، القاهرة ص ٣٨ ــ ٣٩ .


البحر الأسود
تركيا
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
البحر العربي
الحبشة
المحيط الهندي
توزيع سكان الوطن العربي
تمثل ٢٥ ألف نسمة
أقل من ٥٠٠ ألف نسمة
٥٠٠ ألف – ١ مليون „
١ – ٢ مليون
٢ – ٤ مليون
أكثر من ٥ مليون (القاهرة)

شكل (١)

جدول (٧)
السكان والمساحة فى الوطن العربى مقارنة بمناطق العالم

مناطق العـالم	السكان(الف نسمة) ١٩٧٤	المساحـــة (الف هكتار) الكلية	القابلةللاستغلال
الوطن العربى	١٤٥ر٢٠٦	١٣٦٢٤٤١	٤٦٠٠١ر٨
الدول الرأسمالية	٧٥٠ر٠٢١	٣٢٨٢١٤٣	٣٩٦٥٩٨ر٠
الدول النامية	١٧٨١ر٥٠٦	٥٢٦٨٤٧٧	٦٢٠٢١٢ر٢
الدول الاشتراكية	١٢٢٨ر١٦٥	٣٤٨٦٢٥٣	٤١٠١١٧ر٠
العـــالم	٣٩٠٤ر٨٩٨	١٣٣٩٩٣١٣	١٤٧٢٩٢٩ر٠

المصدر :

FAO., Production Yearbook, Vol . 28 . 1, 1974,pp. 3—7

جدول (٨)
الاهمية النسبية للسكان والمساحة فى الوطن العربى مقارنة بالعالم (٪)

مناطق العالم	السكان عـام ١٩٧٤	مساحـــــة الارض الكلية	القابلةللاستغلال
الوطن العربى	٣ر٧	١٠ر٢	٣ر١
الدول الرأسمالية	١٩ر٢	٢٤ر٥	٢٦ر٩
الدول النامية	٤٥ر٦	٣٩ر٣	٤٢ر١
الدول الاشتراكية	٣١ر٥	٢٦ر٠	٢٧ر٩
العـــالم	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصدر :

FAO., Production Yearbook, Vol . 28 . 1, 1974,pp. 3—7

وعند مراجعة ارقام الجدول (رقم ٦) تتضح لنا مشكلة عدم التناسب بين الموارد البشرية متمثلة بالسكان والموارد المادية متمثلة بالارض القابلة للزراعة · فالجدول يكشف والخارطة (شكل ١) تؤكد على مدى التباين الشديد فى الكثافة السكانية على مستوى الاقطار العربيـــة · ويمكن من الجدول المذكور استخلاص جملة من الحقائق (٧) نوجزها كالآتى :

(١) ان الكثافة المطلقة فى الجزء الاسيوى من الوطن العربى أكبر منها فى الجزء الافريقى ·

(٢) وعند اعتماد المساحات القابلة للاستغلال تكون الكثافة السكانية فى الجزء الافريقى من الوطن العربى أعلى منها فى الجزء الآسيوى ·

(٣) هناك عدد من الاقطار العربية تشكو من انخفاض فى كثافتهـــا السكانية ، عند اعتماد المساحات القابلة للاستغلال ، وتأتى فى مقدمتها ليبيا وتونس فى افريقية ، والعراق وسوريا فى آسيا ·

(٤) انخفاض نسبة الاراضى القابلة للاستغلال فى الارض العربيـــة الافريقية مقارنة بالمساحات الصحراوية · ويكون هذا التباين أقل حدة فى الجانب الآسيوى ·

(٥) هناك اقطار عربية تشكو من الضغط السكانى على اراضيها القابلة للاستغلال وتتوجها جمهورية مصر العربية وبدرجة أقل اليمن الشمالى واليمن الجنوبى وموريتانيا والصومال ·

(٦) ان اقطار الخليج العربى تتميز بكثافات عاليه ، ولكنها تفتقر الى الاراضى القابلة للاستغلال · انها تعتمد على القطاع النفطى بدرجة اساسية ، وان كثافتها العاليه هى نتيجة للهجرة الوافدة اليها · ولهذا فهى منطقة قادرة على استيعاب اعداد كبيرة من السكان الذين يمكن الحصول عليهم من الاقطار العربية ذات الكثافة العالية ·

---

(٧) عبد الوهاب حميد رشيد ، التكامل الاقتصادى العربى ، (دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٧) ، ص ٦٤ ·

ان حالة عدم التناسب الحاد القائمة فيما بين السكان والاراضي القابلة للاستغلال على مستوى الاقطار العربية ، أدت الى ظهور معوقات جديه أمام عمليات التنمية في هذه الاقطار سواء بسبب الضغط السكاني أو بسبب قلة السكان • ان هذا يدعو الاقطار العربية الى التعاون والتنسيق والتكامل فيما بينها وهذا هو الكفيل نحو تذليل كثير من المشكلات الاساسية •

رابعا : السكان والغذاء في الوطن العربي :

تغلب النشاطات الزراعية على غيرها من النشاطات الاقتصادية في أكثر أقطار الوطن العربي • وقد مثل السكان الفعال اقتصاديا في حقل الزراعة حوالى ٦٠٪ من مجموع القوى العاملة في عام ١٩٧٠ ، ويتوقع ان تهبط هذه النسبة لتصبح ٥٠٪ في منتصف الثمانينات •

غير ان هذه النسب ليست على مستوى واحد في جميع الاقطار ، وانما تتباين بدرجات كبيرة ، وان أعلى هذه النسب (حوالى ٨٠٪) هي للسودان والصومال(٨) • اما أدنى النسب فهي حوالى ٢٪ في الاقطار العربية الخليجية • وعلى أساس تقديرات منظمة الأغذية والزراعة كانت الاراضي الصالحة للزراعة تزداد بمعدل ٨ر٠٪ سنويا ، مقارنة بزيادة في السكان الذين يعتمدون على الزراعة تقدر بحوالى ٨ر١٪ • ولما كانت الزيادة في الاراضي الزراعية هي أقل كثيرا من نسبة زيادة العمالة في السكان الزراعيين ، فان النتيجة هي مزيد من الازدحام والكثافة ونقص في نسبة الاراضي الى العمالة في المزارع • ولدراسة العلاقة بين نمو السكان وانتاج الغذاء واستهلاكه في بعض الاقطار العربية نستعين بالجدول (رقم ٩) ، حيث يظهر عدة حقائق نوجزها على الوجه التالي :

١ ـ ان دولة واحدة هي لبنان قد فاق انتاج الغذاء فيها نموها السكاني

8 — W . Schultz, Projections of World Agricultural Popnlation", in Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics, FAO, Vol. 21, No. 1, 1972 .

جدول (٩)

العلاقة بين نمو السكان وانتاج الغذاء واستهلاكه في بعض أقطار الوطن العربي

القطر	٪ نمو السكان ٦٠/٩٧٠	نسبة السكان العاملين في الزراعة ١٩٧٠	سكان الريف في كم٢ من الاراض الزراعية	المعدل اليومي استهلاك الفرد السعرات الحرارية	بالنسبة الـى المطلوب	البروتين للفرد غرامات	نسبة انتاج الحبوب الى استهلاكها ٪	استيراد المواد الغذائية النسبة الى مجمـوع الواردات٪
المغرب ٣	٢ر٤	٦١	١٣٤	٢١٣٠	٩٢	٥٨	٩٥	١٣
الجزائر٢	٣ر٣	٥٦	١١٨	١٨٩٠	٧٢	٥٦	٨٢	٢
تونس٢	٣ر١	٤٦	٦٤	٢٢٠٠	٩٤	٦٣	٥٦	٢٣
ليبيا ٢	٣ر٠	٤٣	٥٥	٢٦٣٠	٩٤	٦٦	١٥	١٥
مصر ٢	٢ر٧	٥٥	٦٧٧	٢٧٧٠	١٠٠	٨٠	٩٢	١٩
السودان٣	٣ر١	٨٠	٢٠٠	٢٠٩٠	٩٢	٥٩	٩٠	١١
العراق٢	٣ر٤	٤٧	٥٠	٢٠٥٠	٩٠	٥٨	٩٧	١٠
الاردن٢	٣ر٣	٣٩	٩٦	٢٤٠٠	٩٩	٦٥	٢٤	٢٤
سوريا٣	٣ر٣	٤٩	٥٩	٢٤٥٠	١٠٠	٦٩	٦٦	١٧
لبنان ١	٣ر٠	٤٧	٥٢٥	٢٣٦٠	٩٢	٧٠	٨	١٩
السعودية٣	٢ر٨	٦٠	٧٣٠	٢٠٨٠	٩٤	٥٦	٣٠	٢٠

اليمن الجنوبي	٢ر٨	٦٢	٣٦١	٢٠٢٠	٨٦	٦٧	٣٠	١٨

المصادر :

1 — World Economic Survey, 1973, part One ;

2 — Population and Development, U.N, 1974.

3 — Population, Food Supply and Agricultural Development, FAO,1975.

(١) البلاد التي تخطى فيها انتاج الغذاء ارتفـــاع عدد السكان في الستينات ٠

(٢) البلاد التي تخلف فيها انتاج الغذاء عن ارتفاع عدد السكان في الستينات بشكل خطير ٠

(٣) البلاد التي زاد فيها انتاج الغذاء بنفس نسبة ارتفاع عدد السكان تقريبا ٠

المصدر :

السكان والتربية والتنمية في البلاد العربية (من منشورات مكتب اليونسكو الاقليمي للتربية في البلاد العربية) (بيروت ١٩٧٧) ص ١١٦ — ص ١١٧

خلال الستينات بينما تخلف انتاج الغذاء تخلفـا خطــيرا عن النمو السكاني في سبعة أقطار هي الجزائر وتونس وليبيا ومصر والعراق والاردن واليمن الجنوبي ٠

بينما سايرت زيادة الانتاج الغذائي الزيادة السكانية تقريبا في أربعة أقطار هي المغرب والسودان وسوريا والسعورية ٠

٢ — يتباين النشاط الاقتصادي الزراعي في الاقطار العربية تباينا تاما ٠ فنسبة العاملين في الزراعة تتراوح ما بين ٣٩٪ في الاردن و ٨٠٪ في السودان ٠ كما ان الكثافة السكانية في الريف للكيلو متر المربــع الواحد من الارض الزراعية تختلف هي الأخرى حيث تتراوح ما بين ٥٠ شخصا في العراق و ٦٧٧ شخصا في مصر و ٧٣٠ شخصا في السعودية ٠

اما عن نسبة انتاج الحبوب الى استهلاكه فتتراوح بين ٨٪ في لبنان و ٩٧٪ في العراق ٠

٣ — ان التفاوت قليل في معدل الاستهلاك اليومي للسعرات الحراريـــة ٠ فلو اتخذ معدل الاستهلاك للاقطار العربية المذكورة في الجدول والذي

يبلغ ٢٢٥٥ سعره حرارية كمقياس مئوى ، لوجدنا بان التفاوت سيكون بين ١٢٣٪ فى مصر مقابل ٨٤٪ فى الجزائر · ويمكن القول بان معدل الاستهلاك اليومى من السعرات الحرارية نسبة الى الاحتياجات المطلوبة مرضية نسبيا حسب معايير منظمة الاغذية والزراعة (FAO) مقارنة بالدول النامية الاخرى باستثناء الحزائر (٧٢٪) واليمن الجنوبى ٨٦٪ والعراق ٩٠٪ وهى جميعا دون المعدل العام للمنطقة العربية الذى يبلغ ٩٢٪ ·

٤ ـ ولكن نوع الغذاء لايقل أهمية عن كميته ، بل ربما كان الكيف أهم فى بعض الاحيان من الكم · فنقص مقدار البروتين أو بعض المواد الدهنية أو الفيتامينات تؤثر فى الصحة وتعرض الجسم لمختلف الامراض · وقد تتفشى أنواع من الجوع النوعى أو الخفى بسبب عادات غذائية تحول دون تعاطى الغذاء الصحى المتوازن ، أو بسبب عدم توفر كل المواد الغذائية باسعار مناسبة لعامة الناس · وقد ذكرنا بان متوسط مايحصل عليه الفرد العربى البالغ من سعرات حرارية يكفى بالكاد حاجة الجسم· ويعنى ذلك ان الفقراء (وهم الغالبية) لا يحصلون على حاجتهم · فنقص البروتينات الحيوانية يكشف عن مدى سوء التغذية فى الاقطار العربية فمتوسط مايحصل عليه الفرد من البروتينات عموما يتراوح (كما فى جدول ٩) بين ٥٦ غراما فى الجزائر و ٨٠ غراما فى مصر · ولا تتعدى كمية البروتينات الحيوانية منه ابين ١٠ غرامات فى مصر و ٢٥ غراما فى السودان · وهذه كمية ضئيلة جدا تكشف عن سوء أحوال الطبقات الفقيرة ·

مشاكل انتاج الغذاء وتوزيعه :

يمكن ان نجمل المشاكل التى تعترض انتاج الغذاء وتوزيعه بالشكل المطلوب على ابناء الوطن العربى بما يلى :

١ ـ عدم توفر الانسجام المطلوب بين توزع الكثافة السكانية مع توزع الموارد الطبيعية ·

٢ ـ ارتفاع نسبة البطالة المقنعة فى القطاع الزراعى ، اذ تقدر حسب بعض الاحصائيات بما لايقل عن ٣٥٪ من العاملين فى هذا القطاع ·

٣ ـ انتشار الامية بين أفراد هذا القطاع انتشارا كبيرا لدرجة ان نسبتها

تتعدى ٧٥٪ من جملة السكان ٠

٤ ـ سوء توزيع الموارد المالية ٠ فهناك أقطار ذات موارد مالية ضخمة وأخرى ذات موارد منخفضة جدا ، وهناك من الاقطار ذات الموارد المالية الكبيرة تمتلك امكانات زراعية فى ذات الوقت كالعراق والجزائر ، فى حين توجد أقطار أخرى ذات موارد مالية كبيرة كالسعودية والــكويت ودول الخليج الأخرى ولكن لاتتوفر لها مثل تلك الامكانات الزراعية ٠

وتقسم الأقطار ذات الموارد المالية المنخفضة الى أقطار لها امكــــانات زراعية كالسودان وسوريا والمغرب ولبنان ، ومنها ما يفتقر الى تلك الامكانات كالأردن واليمن ٠

وبايجاز ان هناك عدم تناسب فى توزيع عوامل الانتاج ٠ فبعض الأقطار العربية تتسم بظاهرة توفر الموارد المالية الا انها تفتقر الى عوامل الانتاج الاخرى الطبيعية والبشرية ، فى حين هناك أقطار أخرى تتوفر فيها عوامل الانتاج المادية والبشرية ويشح فيها رأس المال اللازم لتشغيل هذه الموارد ٠ وفى قسم آخر تتوفر الموارد المادية وتنقصها الموارد البشرية كليبيا ٠

٥ ـ انخفاض الانتاجية: تعانى المنطقة العربية من ظاهرة انخفاض الانتاجية الزراعية ٠ ويعود ذلك الى مجموعة من الاسباب أهمها :

(أ) انخفاض انتاجية الفلاح بسبب جهله وضعف امكاناته الماديـــة واعتلال صحته ٠

(ب) انخفاض مستوى تكنولوجيا الانتاج ٠

(جـ) ضعف انتاجية الارض فى معظم الأقطار نتيجة ســوء استخـــدام الدورات الزراعية وقلة استعمال الأسمدة والمخصبات بالاضافة الى وجود بعض الظواهر الطبيعية فى أراضى بعض الأقطار العربية كانتشار الملوحة فى أراضى العراق ٠

ويمكن التخفيف أو القضاء على المشكلة الغذائية بتشجيع التكـــامل الزراعى بين الأقطار العربية المختلفة ٠ ان التكامل له فوائده كالآتى :

١ ـ انه يساعد على اعادة توزيع الموارد بشـــكل يتناسب والأسس الاقتصادية السليمة وبالتالى تزول ظاهرة عدم التوازن بين عوامل الانتاج • خاصة وان الأمة العربية تمتلك من الموارد ما يعتبر فى عداد المواد الاستراتيجية الهامة كالنفط •

٢ ـ ان التكامل الزراعى من شأنه ان يساعد على خلق ســـوق كبيرة لمنتجات الأقطار العربية • فهناك من البلاد ما تفيض لديها بعض المحـــاصيل الزراعية كالحبوب مثل سوريا فى حين تحتاج مصر دائما الى هذا المحصول • وفى الوقت الذى نجد فيه مصر تستورد اللحوم نجد هناك فائضا من هذه المادة فى السودان • وهكذا الأمر بالنسبة لبقية المحاصيل والفواكه والخضروات التى تحتاجها بلدان الخليج فى حين انها تفيض عن حاجة بعض البلدان كمصر وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين •

٣ ـ يخلق التكامل بالاضافة الى اتساع السوق وتقليل كلف الانتاج قوة تنافسية للوطن العربى فى السوق العالمية •

المصادر والمراجع

أولا : العربية :

دكتور أحمد على اسماعيل : أسس علم السكان وتطبيقات الجغرافيـة (مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٦

دكتور حسن الخياط : « قدرة الارض على الاعالة : تحليل للجانب الجغرافى من مشاكل تضخم السكان مجلة الجمعية الجغرافية العراقية المجلد الثالث ص ١ ـ ٤٤ .

ــــــــــ : « تغيير التوزيع الجغرافى لسكان الجمهورية العربية الليبية » مجلة كلية التربيـة » بالجامعة الليبية العـدد الثانى ١٩٧١ ص ٧٧ ـ ١١٧

ــــــــــ : الخصائص السكـانية لمدن الخليج العربى (بحث أعد بتكليف من الجامعة العربية فى طريقة للنشر ١٩٧٨ م) .

ــــــــــ : والدكتور مكى محمـد عزيز (ترجمـة) جغرافية السكان (غارنيه) (منشورات جامعة بغداد ، ١٩٧٥) .

الدكتور حسن طه نجم : « الانسان والبيئة بين التعمـير والتدمير : دراسة فى التبيؤ البشرى » مجلة كليـة الآداب والتربية » بجامعة الكويت ، العدد الثالث عشر ١٩٧٨ ، ص ٥٥ ـ ٨٣

الدكتور صادق مهدى السعيد : السكان والقوى العاملة فى أقطار الخيلـج العربى (بحث قدم لندوة الخليج العربى فى جامعة البصرة ، اذار ١٩٧٥

الدكتور سليمان نورالدين : « الاتجاهات السكانية وعلاقتها بالعمالـة الريفية فى منطقة الشرق الأدنى » من كتاب مكتب اليونيسكو الاقليمى للتربية » فى البلاد العربية (السكان والتربية والتنمية فى البلاد العربيـة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٩٣ ـ ٢٠١

د٠ عبدالفتاح محمد وهيبة : فى جغرافية السكان (دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢)

عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى (القاهـرة ١٩٥٥) ٠

د٠ عبدالامير رحيم العبود : « الانفجار السكانى فى العالم وانعكاسـه على الوطن العربى » ، مجلة النفط والتنمية العراقية العدد الرابع السنة الاولى ١٩٧٦ ص ٨٤ ـ ١٠٠ ٠

عبد الوهاب حميد رشيد : التكامل الاقتصادى العربى (من منشورات وزارة الاعلام العراقية) سلسلة دراسات ١٢٨ ، ١٩٧٧ م ٠

الدكتور غريب الجمال : اقتصاديات الوطن العربى القاهرة (دون تاريخ) ٠

د٠ صبحى عبد الحكيم : « الموقف السكانى فى الوطن العربى » مجلة الشرق الاوسط جامعة عين شمس ، العدد الثانى ١٩٧٥ ص ١ ـ ٢٥ ٠

د٠ محمد السيد غلاب : ود٠ محمد صبحى عبد الحكيم : السكان ديموغرافيا وجغرافيا (الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧) ٠

د٠محمدعبدالرحمنالشرنوبى : جغرافية السكان (الانجلو المصرية ١٩٧٢)٠

مكتب اليونيسكو الاقليمى للتربية فى البلاد العربية :
السكان والتربية والتنمية فى البلاد العربية (بيروت ١٩٧٧) ٠

كيورشيف ، بمعاونة ر. كولى ويوسف كرباج وجورج زوين : « ديناميـة السكان والتعليم فى عمليـــة التنمية في البلدان العربية (من كـــتاب السكان والتربية والتنمية ـ اليونيسكو) ص ١٣ ـ ٧٦ » .

هانز رايف : « ديناميات السكان وتوزيع الدخل والنظام الاقتصادى الجديد في الدول العربية » من كتاب السكان والتربيةوالتنمية (اليونيسكو بيروت ١٩٧٧) ص ١٠٥ ـ ١٣٧ .

ثانيا : الاجنبية :

Charles A,Cooper and Sidney S. Alexander (editors), Economic Development and Population Growth in the Middle East, (American Elsevier, N.Y. 1972) .

Clarke,J.I, Population Geography, (Pergamon,London,1968) .

Janet Abu Lughood, "Problems and Policy Implications of Middle Eastern Urbanization, UNESOB/ESOB/HR/72/4

FAO., Food Supply and Agricultural Development, 1975 .

FAO., Production yearbook , 1976 .

ILO., Yearbook Of Labour Statistics, 1972,1974 .

U.N. Demographic Yearbook, 1972 - 1973 - 74 - 75 .

U.N. Statistical Yearbook, 1976 .

U.N. Population Division, "World Population Prospects, 1970 - 2000, as assessed in 1973 .

Unesco Statistical Yearbook Of 1974 - 1975, (Paris, 1974,1975) .

التعلم الذاتي
طريقة للتعليم في الجامعة

د. سليمان الخضري الشيخ
أستاذ مساعد بقسم علم النفس التعليمي

مقدمـــة :

لقد أدى التزايد الكبير فى اعداد الطلاب فى الجامعات الى الاعتماد على المحاضرة كطريقة أساسية للتدريس ، خاصة فى تلك المقررات التى تدرس فى معظم الشعب والأقسام ۰ وربما كان استخدام المحاضرة للمجموعـــات الكبيرة أمرا تحتمه الامكانيات المادية فى كثير من الجامعات ۰ ويرى بعض الأساتذة ، أنه لا ضير من أن يستمع الى المحاضرة ثلاثمائة طالب أو أكثر ، بدلا من الاقتصار على مجموعات صغيرة العدد ۰ ولاشك فى مثل هذه الحالات أن التفاعل بين الطالب والأستاذ والمشاركة الايجابية من جانب الطالب فى عملية التعليم يتم اهمالهما ، أو على الأقل يعتبران أهدافا ثانوية ۰ وهنا يجد الأستاذ نفسه مضطرا لان يغفل الفروق بين الطلاب،ويعطى محاضرته على أساس الطالب المتوسط الافتراضى ۰ ومن المفترض أيضا أن الطالب المتوسط يمكن أن يتبع جدولا جامدا من المحاضرات والاختبارات والقراءات ، وأى انحرافات عن هذا الجدول لاتقبل بسهولة ۰

على أن كثيرا من رجال التربية يعتبرون كفاءة المحاضرة كوسيلة للتعليم أمرا مشكوكا فيه ۰ وفى نفس الوقت ليس من المتـــاح الرجوع الى تدريس المجموعات الصغيرة فى ضوء الامكانيات والظروف الحالية ۰ ومن ثم أخذت المحاولات تتجه نحو استخدام التكنولوجيا المتقدمـــــة فى التدريس فى الجامعات ۰ فكثير من الأساتذة يستخدمون الكمبيوتر ، وغيرهم يستخدمون وســائل أخرى تقلل من التعليم الروتينى والاعمـــال الكتابية المرتبطـــة

بالمحاضرات • هذه الوسائل ، تحرر الأستاذ ، ظاهريا ، من بعض الاعمال لكى يتمكن من التفاعل مع الطلاب فى مجموعات صغيرة العدد ، ولكن هذا لايحدث دائما ، بسبب الاعباء الاكاديمية الاخرى الملقاة على عاتق الأستاذ •

ونتيجة لهذا أجريت أخيرا تجارت للبحث عن بدائل لنظام المحاضرة فى التعليم الجامعى ، بالاضافة الى استخدام التكنولوجيا فى التعليم • وكـــان الاتجاه الأساسى نحو ايجاد نظرية تركز على الفرد داخل المجموعة الكبيرة ، بــدلا من الوســط الافتراضى ، وتراعى الفروق فى الخبرات التعليمية لدى الطلاب وقدراتهم ، دون الاخلال بالمستوى الاكاديمى والكفاءة التعليمية • وقد عرفت هذه المحاولة باسم « تفريد التعليم »
"Individualizing Instruction"

ويعنى تفريد التعليم تطوير أساليب التعليم وتكييفهـــا بحيث تلائم حاجات كل طالب فرد ، لكى تحقق أقصى ما يمكن من تعلمه ونموه • ولما كانت هذه العملية يمكن أن تتخذ صورا متنوعة ، فان « تفريد التعليم » لاينبغى أن ينظر اليه على أنه طريقة واحدة • ومن التنويعات الواضحة فى هذه الطريقة :

١ ـ قد يمتد التفريد من التعديلات البسيطة فى تعليم الجماعة حتى التعلم المستقل تماما •

٢ ـ يمكن أن يتم التفريد فى أى ناحية من النواحى الآتية أو فيها مجتمعة ، معدل أو سرعة التعلم ، مواد الدراسة وطرقها ، الأهداف الموضوعـــة للتعلم ، مستوى التحصيل المطلوب •

٣ ـ قد يستخدم التفريد مع جميع الطلاب ، أو مع بعض الطلاب ، فى أجزاء من المقررات ، أو مع طلاب معينين •

ومع هذه التنويعات ، فان طرق التفريد تشترك فى خصائص عامة يمكن تحديدها فيما يلى :

١ ـ سلسلة أو مجموعة من الوحدات الأساسية •
٢ ـ أهداف تعليمية مصاغة فى صورة اجرائية •

٣ ـ أساليب تعلم منظمة ذاتيا (Self - Paced)
٤ ـ مدى كبير من المواد والوسائل التعليمية ٠
٥ ـ نظام جيد للقياس والتقويم ٠
٦ ـ بيئة تعليمية تيسر الوصول الى المصادر التعليمية ٠
٧ ـ جدول زمني مرن ٠
٨ ـ طريقة منظمة لسير البرنامج ٠

ومع هذه الخصائص المشتركة ، فان التأكيد على جانب أو آخر يمكن أن ينتج أنماطا مختلفة من تفريد التعلم ٠ وعلى أساس التنويع فى الأهداف التعليمية ، وطريقة التدريس ، استخلص جرونلاند (N . E Gronlund) أربعة أنماط أساسية من البرامج (٤ : ٤ ـ ٧) :

أ ـ يتميز النمط الأول من البرامج بوجود مجموعة محددة وواحدة من الأهداف ، وكذلك سلسلة من النشاطات المحددة اللازمة لتحقيقها ٠ اذ يتوقع من جميع الطلاب أن يحققوا نتائج التعلم المحددة مسبقا باتباع نفس الخطوات والترتيب المحدد كذلك ، ويحقق هذا النمط « تفريد التعليم » عن طريق وضع كل طالب فى المكان المناسب لاستعدادته وخبراته السابقة من حيث سلسلة الخطوات المحددة ٠

ب ـ ويتميز النمط الثانى ، بأن الأهداف التعليمية تحدد مسبقا للطالب ، ولكن تعطى له الحرية في اختيار المادة وطرق الدراسة ٠ ويراعى هذا النمط الفروق فى أسلوب التعلم وكذلك فى سرعته أو معدله ٠ وهذان النمطان يستخدمان فى المقررات الاجبارية ٠

ج ـ أما النمط الثالث ، فيتيح للطالب أن يختار الاهداف التى يرغب فى تحقيقها ، ولكن يتحتم عليه أن يتبع خطوات محددة فى الدراسة لكى يصل الى تحقيق تلك الاهداف ، ويعمل هذا النمط على مقابلة الميول المتنوعة للطلاب ٠ ويستخدم فى الغالب فى المقررات الاختيارية ٠

د ـ الدراسة المستقلة ، ويسمح هذا النمط من البرامج للطالب بأن يختار الأهداف التى يسعى الى تحقيقها وكذلك طرق ومواد التعلم. وعلى ذلك يستطيع الطالب أن يصمم برنامجا فرديا يشبع ميوله الخاصة ، ويلائم أسلوبه وسرعته فى التعلم .

وهكذا تراعى هذه الأنماط الأربعة الفروق فى سرعة التعلم ، ولكنها تختلف فى مقدار الحرية المتاحة للطالب ونوعها . وهى بهذا كله تدخل فى نطاق ما يسمى فى بعض البحوث الحديثة التنظيم الذاتى للتعلم (Self - paced Iearning) . ذلك أن السماح بالاختلافات الفردية فى سرعة التعلم ليس خاصية ثانوية ، فهى تمثل الفرق الرئيسى بين الفلسفة التربوية التقليدية ، وتلك القائمة على التنظيم الذاتى للتعلم . فالتقليديون يتطلبون أن يتعلم الطالب قدرا محددا من المادة التعليمية ، فى قدر محدد مسبقا من الوقت . أما فى التنظيم الذاتى للدراسة ، فان الوقت المطلوب لتعلم قدر معين من المادة يمكن أن يختلف وفقا للفروق الفردية بين الطلاب . ويتحدد مستوى تحصيل الطالب بمقدار مايحصله دون اعتبار للوقت الذى استغرقه فى التحصيل (٥ : ٩٦١) .

والبحث الحالى محاولة لدراسة فاعلية احدى طرق تفريد التعلم سوف نشير اليها بطريقة « التعلم الذاتى » بالمقارنة بالطريقة التقليدية ونعنى بها طريقة المحاضرة .

الدراسات السابقة :

لعل من أشهر البحوث التى أجريت فى هذا المجال ، تلك السلسلة التى أجراها ميجر ومعاونوه (١٩٦٣) R . F . Mager ، وكان هدفهم من هذه البحوث أن يوضحوا الى أى حد يمكن أن يسهم اعطاء التلميذ دورا أكبر فى توجيه عملية التعلم ، فى تحسن عملية التعلم وكانت أولى تلك الدراسات ، الدراسة التى أجراها ميجر عام ١٩٦١(٦) وكان هدفه منها اكتشاف ما اذا كان المتعلم يرتب الموضوعات المتعلمة بنفس التسلسل الذى يحدده المعلم عادة أم لا . فاذا كان هناك اختلاف جوهرى بين التنظيم الذى يضعه المعلم أو الخبير وذلك الذى يتبعه المتعلم ، فان هذا يعنى أن التنظيم الأول يصبح قليل الأهمية . وكانت الخطة التى اتبعها فى الدراسة ، أن يقتصر دور

المعلم على الاجابة على أسئلة الطالب ، دون أن يقدم أى معلومات أو شروح لم تطلب منه • وكان يشجع الطالب على أن يحدد أى الموضوعات يريـــد مناقشتها ، وما هو مقدار الشرح الذى يحتاجه فيها ، وأى الأدوات أو الرسوم التوضيحية يشعر أنه فى حاجة اليها •• ألخ • وكان المتعلم أيضا هو الذى يحدد طول الحصة أو الدرس • وقد وجد ميجر من نتائج هذه الدراسة أن تسلسل الموضوعات والمعلومات الذى يضعه المتعلم يختلف بشكل واضح عن تسلسل المنهج التقليدى (مقرر فى الالكترونيات) ، كما أن كون التلميذ له رأى فى تحديد الطريقة التى تتبع ، كان له أثر طيب على دافعيته ، كذلك لاحظ الباحث أن المتعلمين مهما بدا عليهم من جهل أو من بطء التعلم أو السذاجة ، فان جميع المفحوصين قد أتوا الى التجربة ولديهم قدر من المعلومات ـ مهما كان ضئيلا ـ عن الالكترونيات • وكانت هناك فروق فردية بطبيعـة الحال فى مقدار هذه المعلومات •

أما الدراسة الثانية فقد أجريت بواسطة ميجر وما كان (١٩٦١) Mager & Mccann (٩) •وقد قامت الدراسة على مقرر فى الهندسة أعطى لمهندسين متخرجين حديثا قبل توليهم مناصبهم فى أحد المصانع • وكانت مدة البرنامج ٦ شهور ، وقد خصصت الأسابيع الستة الأولى لمحاضرات تقليدية ، أما الأسابيع الستة التالية ، فقد كان كل مهندس يمر على أقسام المصنع المختلفة • وفى الشهور الثلاثة الاخيرة من البرنامج عين كل طالب (مهندس شاب) كمساعد لمهندس متمرس • ولما كانت الفصول صغيرة العدد (٤ الى ٨ طلاب) فقد تلقى كل طالب تعليما فرديا لمدة ستة شهور • وقد هدفت التجربة الى اعطاء الطلاب مهمة تنظيم المقرر أو المنهج • ولذلك فقد الغيت الفصول تماما ، وطلب من المعلم ألا يتكلم الا اذا سئل • وقيل للطلاب أن لهم السلطة الكاملة فى تحديد ما يتعلمونه،ومتى يتعلمونه وكيف يتعلمونه، وقيل لهم أنهم يستطيعون سؤال أى فرد فى القسم ، ولـــكن لهم أن يقبلوا مايريدونه من هذه التعليمات • وكان أحد الفروق الهامة بين هذه التجربة والتجربة السابقة أن الطلاب أعطوا ٢٤ صفحة فى الأهداف التفصيلية للمقرر، والتى حددت الأداء النهائى المطلوب • وعلى هذا كان على الطلاب أن يحددوا مايحتاجون تعلمه بالاضافة الى مايعرفونه من قبل ، حتى يحققوا هذه الأهداف• وقد كان من أهم نتائج هذه الدراسة :أ ـ نقصت فترة التدريب بمقدار ٦٥٪، ب ـ ظهر أن خريجى هذا البرنامج كانوا أفضل من الدورات السابقة ، فقد

كانوا أكثر ثقة ومعرفة عن عمليات الانتاج · وقد كان رأى مدير القسم أن هؤلاء المهندسين كانوا « أفضل تدريبا » ·

جـ ـ كان الوقت الذى خصص للتدريب بواسطة المعلمين والمدراء والخبراء الفنيين أقل · د ـ اختلف المحتوى الذى اختاره الطلاب للدراسة بشكل ملحوظ من طالب لآخر · هـ ـ كذلك اختلف تتابع (تسلسل) المعلومات المدروسة من طالب لآخر ، ولم تتفق فى أى حالة مع التنظيم الذى كان موضوعا مسبقا· وهكذا على الرغم من أنه لم يستخدم أى تعليم مبرمج فى هذه الدراسة ، الا أنه أمكن اختزال وقت التدريب الرسمى بشكل كبير ، وفى نفس الوقت رفع كفاءة الطالب وثقته · وهذه النتيجة تحققت باعطاء الطالب وصفـــا تفصيليا للاداء النهائى المطلوب ، واتاحة الفرصة له بأن يغطى الفجـــوة الموجودة بين معلوماته وبين ماهو مرغوب · وعلى الرغم مما قد يقال من أن هؤلاء الطلاب قد أتوا الى البرنامج ، ولديهم معلومات وتدريب سابق فى مجالات قريبة ، الا أن ذلك ينطبق أيضا على المجموعاتالسابقة ·

والدراسة الثالثة اختصت بدراسة تتابع (تسلسل) المحتوى ، وقد اتخذ موضوع قراءة العدادات الكهربائية كموضوع للدراسة · وقد قام الباحثان فى البداية بتحديد مستوى المفحوصين فى هذه المهارة ، وكانوا من ربات البيوت · وعلى الرغم من أنهن قررن جهلهن بقراءة العدادات فان نتائج الاختبار المبدئى أثبتت أن معلوماتهن حوالى ٤٠٪ ، فى حين كانت نتائج مجموعات مهنية متخصصة مثل المهندسين والفنيين حوالى ٨٠٪ فى الاختبار· وهذا يعنى ، أنه على الرغم من أن ربات البيوت لم يتلقين أى تعلـــيم رسمى فى هذه المهارة ، أو فى أى مجال مرتبط بها ، فان أداءهن كان أكبر من الصفر ، ويعادل نصف كفاءة الخبراء فى المجال تقريبا · وهذه الدراسة ، على خلاف سابقتها ، مثال لمجموعة من الطالبات اللائى بدأن التدريب بافتراض أن لديهن حدا أدنى من المعلومات فى المجال ، ومع ذلك فقد كان لدى هؤلاء السيدات ربات البيوت قدر معقول من المعرفة المناسبة ·

وفى دراسة أجريت فى ستانفورد بواسطة ألن وماكدونالد (١٩٦٣) Allen & McDonald ، طلب من مجموعة من المفحوصين تعلم لعبة جديدة، من حيث قطعها وقواعدها واستراتيجيتها · وقد تعلمت احدى المجموعات

من برنامج خطى linear program ، بينما أعطى لكل فرد فى المجموعة الثانية الاهداف وجهاز يعلم اللعبة ، يفتحه ويغلقه عندما يريد • وقد كان أداء هذه المجموعة الاخيرة ، التى أعطيت القدرة على التحكم فى المقرر ، فى نفس مستوى أداء المجموعة الاولى ، ولكنها فى نفس الوقت استغرقت فى تعلم اللعبة وقتا يعادل نصف الوقت الذى استغرقته مجموعة التعلم البرنامجى• وثمة ملاحظة غريبة هنا ، هى أن الطلاب الذين كانوا فى المجموعة التى أعطيت التحكم فى البرنامج لم يظهروا الا قدرا ضئيلا من التنظيم أثناء جمع المعلومات، على الرغم من أنهم كانوا من الطلاب النابهين • بعبارة أخرى ، اذا اتيح لك أن تلاحظ أفراد هذه المجموعة أثناء التعلم ، لكان الاكثر احتمالا أن يكون تنبؤك بأن أداءهم سوف يكون ضعيفا فى الاختبار النهائى ، نتيجة لعدم النظام فى جمع المعلومات • ومع ذلك ، فقد كان أداء هذه المجموعة فى نفس مستوى الاداء النهائى للمجموعة الاخرى ، وفى نصف الوقت الذى استغرقته•

والنتيجة العامة التى استخلصها ميجر وكلارك من تلك الدراسات أن الطلاب الراشدين يأتون للموقف التعليمى بقدر ما من المعرفة الملائمة ، بعبارة أخرى ، فانهم يعرفون شيئا ما عما سوف يتعلمونه •

على الرغم من أن هذه النتيجة ليست شيئا جديدا على الفكر التربوى والسيكلوجى ، الا أننا ــ كما يشير ميجر وكلارك ــ نتصرف كما لو كنا نرغب فى الا توجد هذه الفروق بين الطلاب • ففى أى مقرر أو منهج تعليمى ، هناك اتجاه لان نرغم جميع الطلاب بأن يسيروا فيه بنفس النظام أو التتابع• حتى فى التعليم المبرمج بأنواعه المختلفة ، ويبدو أننا اغفلنا حقيقة أنه يمكننا أن نختزل من المقرر بالنسبة لكل طالب ما يعرفه هذا الطالب قبل أن يبدأ فى دراسة المقرر • وبالاضافة الى هذا ، فليس هناك أى سبب يجعلنا نعتقد أن الطريق الوحيد لرفع كفاية العملية التعليمية انما يأتى عن طريق تحسين البرامج والالات التعليمية • لقد آن الاوان أن نأخذ فى الاعتبار مايعرفه التلميذ من المقرر ، ونختزله مما هو معدله • والنتيجة المتوقعة أننا نستطيع اختصار جزء لا بأس به من الوقت والجهد يمكن أن يضيع فى تعليم الطالب أشياء يعرفها من قبل •

وثمة نتيجة أخرى يمكن أن نستخلصها من تلك الدراسات ، هى أن الطالب الراشد ذاته هو أفضل من يقول لنا مايحتاجه بالاضافة الى معارفه

الحالية ، لكى يصل الى تحقيق الاهداف المحددة للمقرر الدراسى • وباعطائه الفرصة ، فانه يستطيع أن يضع لنفسه منهجا خاصا ، يمكن أن يوصله الى تحقيق الاهداف الموضوعة • ومن المدهش أن هذه النتيجة وجدت تأييدا لها فى بحوث عديدة (Duke, 1959 ; Milton, 1959; Weitman & Gruber, 1960) حيث حضرت احدى مجموعات الدراسة في الكلية جميع المحاضرات فى مقرر معين ، بينما منعت مجموعة مماثلة من حضور أية محاضرة • وحتى مع عدم وجود أهداف محددة بعناية ، كان أداء المجموعة التى لم تحضر أية محاضرات فى نفس مستوى أداء المجموعة الاخرى • وعلى الرغم من أن هذا ليس دليلا حاسما على أن المعلم لا ضرورة له ، فان البيانات توحى بأننا نستطيع تحسين كفاية العملية التعليمية بالاستفادة الافضل من ذكاء الطالب ومعلوماته السابقة التى يأتى بها الى الموقف التعليمى •

ولعل من أهم البحوث التي أجريت أخيرا ، ذلك البحث الذى أجراه موريس وساربير وبيجو (Morris,E.k, Surber, C.F. & Bijou, S.W. 1978) فى المقارنة بين التنظيم الذاتى وتنظيم المعلم على التحصيل والتقويم والتذكر(١٠) • وقد اجرى البحث على عينة من الطلاب المسجلين فى مقرر فى النمو النفسى • وقد وزعت العينة عشوائيا علىمجموعتين : مجموعة التنظيم الذاتى وضمت ٧٥ طالبا ، ومجموعة التنظيم التقليدى (تنظيم المعلم) وضمت ٧٤ طالبا • وقد قسم المقرر الى ١٥ وحدة متساوية الحجم تقريبا • وعند الانتهاء من كل وحدة كان الطلاب يأتون فرادى الى المعمل ليؤدوا اختبارا مكونا من ١٠ بنود ، واختبارا شفويا • وقد تطلب الباحثون أن يصل الطالب الى مستوى ٩٠٪ من التمكن من المادة • واذا أخطأ طالب فى سؤال ، كان يضاف الى محتوى الوحدة التالية • وكان المقرر وكل ما يتعلق به واحدا بالنسبة للمجموعتين ، فيما عدا أنه سمح لمجموعة التعلم الذاتى أن يكملوا المقرر بالسرعة التى يرغب فيها كل فرد ، على أن يتم ذلك فى خلال الفصل الدراسى • وكان تقدير الفرد يتحدد بعدد الوحدات التى يستوعبها : ١٥ وحدة = أ ، ١٤ وحدة = ب ، ١٣ وحدة = ج ، ١٢ وحدة أو أقل = راسب • أما المجموعة الثانية والتى اتبع فيها تنظيم المعلم ، فقد كان على كل طالب أن يكمل وحدة واحدة على الاقل كل أسبوع ، ويستطيع أن يكمل أكثر من ذلك اذا أراد • والطالب الذى لا يستطيع أن يكمل وحدة فى الاسبوع ينخفض تقديره درجة واحدة (من

أ الى ب أو من ب الى ج ٠٠ ٠الخ) ٠ واذا اتقن التلميذ وحدة كل أسبوع ، فانه يحصل على نقطة تكفى لوصوله الى المحك المطلوب ٠ وكان النظام مرنا ، فالطالب الذى يتخلف اسبوعا كان لديه فرصة لان يكمل الوحدة فى يـوم آخر من أيام الاسبوع ٠ وقد طبق على جميع الطلاب اختبار قبلى واختبار بعدى ، وكذلك استبيان بهدف معرفة اتجاهاتهم نحو الطريقة والمقــرر بصفة عامة ٠ وكذلك طبق عليهم اختبار بعد مرور ٩ شهور على نهاية المقرر٠ وقد اظهرت النتائج عدم وجود فروق بين المجموعتين سواء فى الاختبارالقبلى أو الاختبار البعدى أو فى اختبار التذكر ٠ كذلك لم توجد فروق بين المجموعتين فى عدد الوحدات التى اكملت ، أو التوزيع النهائى للتقديرات ، أو نسب الانسحاب من المقرر ٠

وهكذا نجد أن نتائج البحوث التى اجريت فى هذا الميدان أدت الى نتائج مختلفة ٠ فقد أثبت بعضها أن التنظيم الذاتى للتعلم لا يؤدى بالضرورة الى زيادة فاعلية التعلم ٠ كما وجد فى بحوث أخرى أن نسبة انسحـــاب الطلاب من مقررات التنظيم الذاتى كانت أعلى منها فى المجموعات العادية ٠ بينما أثبت بعضها الاخر أن التنظيم الذاتى يؤدى الى توفير الوقت بالاضافة الى رفع كفاءة التعلم وزيادة ثقة الطالب فى نفسه ، ومع ذلك ، فان الدراسات المقارنة بين التنظيم الذاتى للمقرر ، والتنظيم الذى يضعه المعـــلم قليلة ، ولازال الميدان فى حاجة لمزيد من الدراسات ٠

مشكلة البحث :

والبحث الحالى امتداد للخط الذى اتخذته تلك الدراسات السابقة ٠ فهو يحاول المقارنة بين طرق ثلاث للتدريس من حيث أثرها على التحصيل وهى :

أ ــ طريقة التعلم الذاتى ، وتقوم على أساس اعتماد الطلاب عــلى أنفسهم فى دراسة المقرر ٠

ب ــ طريقة التسجيل : وتقوم على استبدال المحاضر بشريط مسجل للمحاضرة يستمع اليه الطلاب ٠

جـ ـ طريقة المحاضرة : وهى الطريقة التقليدية التى تتبع عادة فى التدريس مع المجموعات الكبيرة٠

فهل تتساوى هذه الطرق الثلاث من حيث أثرها على التحصيل ٠ أم أن هناك فروقا بينها ؟

التصميم التجريبى :

أولا : العينة :

أجرى البحث على عينة من طالبات الصف الثالث بجامعة قطر بلغ عددهن ١٣٧ طالبة ، وهن جميع الطالبات المسجلات فى مقرر علم النفس التعليمى (الفروق الفردية رقم ٣٢٧) فى ربيع العام الدراسى ٧٨ـ١٩٧٩م ٠ وهؤلاء الطالبات موزعات على مختلف الشعب التى تضمها كلية التربية وهى :

الشعب الادبية :

لغة انجليزية وتضم	٤٧	طالبة
لغة عربية وتضـم	١١	طالبة
اجتماع وتضم	١٩	طالبة
جغرافيا وتضم	٦	طالبات
تاريخ ويضم	١١	طالبة
دراسات اسلامية وتضم	١٤	طالبة

الشعب العلمية :

رياضيات وتضم	٥	طالبات
بيولوجى وتضم	٩	طالبات
كيمياء وبيولوجى وتضم	٤	طالبات
كيمياء وطبيعة وتضم	٤	طالبات
اقتصاد منزلى وتضم	٧	طالبات

ثانيا : المجموعات التجريبية :

وزعت الطالبات الى ثلاث مجموعات بالنسبة لمقرر علم النفس التعليمى. وقد تم توزيع الطالبات الى هذه المجموعات بواسطة ادارة الشئون التعليمية بالجامعة ، دون تدخل من الباحث فى ذلك .

ولما كان من العسير اعادة توزيع الطالبات عشوائيا على المجموعات التجريبية ، نظرا لظروف الجدول الدراسى ، فقد قام الباحث بتوزيع المجموعات عشوائيا على المواقف التجريبية الثلاثة التالية :

أ ـ مجموعة التعلم الذاتى : وكانت تضم ٣٠ طالبة من شعبة اللغة الانجليزية ، ثم انسحبت احدى الطالبات وانضمت الى مجموعة أخرى فبقى فى المجموعة ٢٩ طالبة . وكان اللقاء الأسبوعى مع هذه المجموعة يوم السبت من كل أسبوع .

ب ـ مجموعة التسجيل : وكانت تضم ٤٤ طالبة ، وهن جميع طالبات الشعب العلمية بالاضافة الى ١٥ طالبة من قسم الاجتماع ، وكان موعد اللقاء الاسبوعى معها الثلاثاء .

ج ـ مجموعة المحاضرة : وكانت تضم ٦٤ طالبة ، وهن جميع طالبات شعب اللغة العربية والدراسات الاسلامية والجغرافية والتاريخ بالاضافة الى ١٨ طالبة من شعبة اللغة الانجليزية ، و٤ طالبات من شعبة الاجتماع . وكان لقاؤها يوم الاثنين من كل أسبوع .

ثالثا : الادوات :

١ ـ اختبار الذكاء العالى من اعداد د. السيد محمد خيرى ، وذلك لمعرفة ما اذا كانت توجد فروق ذات دلالة احصائية بين المجموعات .

٢ ـ المادة التعليمية : وتتكون من ٥ وحدات من مقرر علم النفس التعليمى (الفروق الفردية) . وقد سلم لجميع الطالبات كتابان فى المادة

هما : الذكاء ومقاييسه للدكتور جابر عبد الحميد جابر ، والفروق الفردية في الذكاء للدكتور سليمان الخضرى الشيخ والكتابان يعالجان نفس الموضوعات تقريبا ·

٣ ـ الاختبار التحصيلي : أعد اختبار تحصيلي موضوعي في الوحدات الخمس المحددة ، ويتكون الاختبار من ٥٢ عنصرا ، منها ٣٠ عنصرا من أسئلة الصواب والخطأ ، ٢٢ عنصرا اختيار من متعدد وقد استخدم الاختبار كاختبار قبلي لمعرفة مستوى الطالبات ، وكاختبار بعدى لتقويم تحصيل الطالبات بعد الانتهاء من التجربة ·

٤ ـ اختبار مقال : وقد استخدم أيضا في تقويم التحصيل ، وقد كان يتكون في كل مجموعة من سؤالين مفتوحين ، بهدف معرفة قدرة الطالبات على التفكير والربط والمقارنة وترتيب الافكار وغيرها ·

رابعا ـ الاجراءات :

لقد استغرق اجراء التجربة سبعة أسابيع بدأت مع بداية الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ١٩٧٨/١٩٧٩ م ، وقد سارت خطوات التجربة كما يلي :

١ ـ في أول لقاء للباحث مع الطالبات تم تطبيق اختبار الذكاء واختبار التحصيل الموضوعي (كاختبار قبلي) على الطالبات في جميع المجموعات ·

٢ ـ بعد تطبيق الاختبارات وزعت على الطالبات في المجموعات الثلاث ورقة تتضمن موضوعات المقرر (بما فيها الوحدات الخمسة) وتحدد المكونات الرئيسية لكل وحدة أو موضوع ، وكذلك الصفحات الخاصة بكل موضوع في الكتابين المذكورين سابقا · كما وزع الكتابان على جميع الطالبات في أول لقاء أيضا ·

٣ ـ في نفس هذا اللقاء أعطيت التعليمات المناسبة للمجموعتين

التجريبتين وكانت كما يلي :

أ ــ مجموعة التعلم الذاتي : أخبرت الطالبات بأن الدراسة العملية ستستمر منتظمة ، حيث تحضر جميع الطالبات تطبيـــق الاختبارات • أما الساعة الثانية ، وهي الخاصة بالدراســـة النظرية ، فلن يكون فيها حضور اجباري ، وانما استبدلت بساعة « مقابلة » ، حيث يكون فيها الباحث (وهو أستاذ المادة) موجودا بالمعمل ، للاجابةعلى أية أسئلة فردية تتعلق بموضوعات المقرر •• وقد حددت الموضوعات الخمسة الاولى للطالبـــات لدراستها ، مع عرض موجز للمكونات الاساسية لكل وحدة • واخطرت الطالبات ، بأن الميعاد النهائي لاداء الاختبار التحصيلي في هذه الوحدات هو الاسبوع الاول من شهر ابريل ، علما بأن أية طالبة تكون مستعدة لاداء الامتحان في أي وقت قبل ذلك سوف يسمح لها بذلك اذا رغبت ، واذا أرادت أن تتفرغ للمواد الأخرى •

وهكذا لم يكن في هذه المجموعة تدريس بالمعنى المعـــروف طيلة فترة التجربة ، واقتصر دور الأستاذ على شرح أية نقط غامضة أو الاجابة على أية أسئلة توجهها الطالبات على انفراد وحين يطلب منه ذلك فقط •

ب ــ مجموعة التسجيل : أخبرت هذه المجموعة ، بأن المحاضرات سوف تكون مسجلة على شريط ، وانهن سوف يستمعن للتسجيل كل محاضرة • وبعد ذلك يجيب الاستاذ على الاسئلة اذا وجدت أي استفسارات •

كما أخبرت الطالبات بأن امتحان منتصف الفصل الدراسي ، سوف يكون في خمس وحدات ، وسوف يكون في الاسبوع الاول من شهر أبريل •

جـ ــ مجموعة المحاضرة : ولم تعط هذه المجموعة أية تعليمات خاصة ،

وانما اخبرت فقط بأن امتحان منتصف الفصل الدراسى سوف يكون فى خمس وحدات فى الاسبوع الاول من شهر ابريل ٠

وكان يتم فى هذه المجموعة تسجيل المحاضرة وما يتم فيها من أسئلة وشروح ، لتذاع بعد ذلك فى مجموعة التسجيل ٠

وهكذا ، فقد تساوت المجموعات الثلاث فيما اعطى لها من تعليمات أو كتب أو توجيهات أو معلومات تتعلق بموعد الامتحان ، والموضوعات التى ستكون موضوع الاختبار ٠ والاختلاف الوحيد كان فى طريقة التدريس ، حيث لم يكن فى المجموعة الاولى تدريس بالمعنى المعروف ، واعتمدت المحاضرات فى الثانية على اذاعة التسجيل ، أما فى المجموعة الثالثة فقد سار التدريس فى شكل المحاضرة التقليدية ، مع الاجابة على أسئلة الطالبات بعد انتهاء المحاضرة(★) ٠

٤ ـ بعد الانتهاء من دراسة الموضوعات المحددة ، وفى الاسبوع الاول من شهر أبريل طبق على جميع المجموعات اختبار التحصيل الموضوعى ، وكذلك اختبار المقال ٠ باستثناء ثلاث طالبات من مجموعة التعلم الذاتى أدت الاختبارات قبل ذلك ٠ وكان الاختباران (الموضوعى والمقال) يتمان فى جلسة واحدة ٠

النتائج

نتائج اختبار الذكاء العالى :

حسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية للدرجات الخام لاختبار الذكاء العالى بالنسبة لكل مجموعة على حدة ، والجدول التالى يوضح هذه النتائج ٠

(★) من الجدير بالذكر أن اللقاء الاسبوعى عبارة عن ساعتين ، احداهما مخصصة للدراسة العملية المتعلقة بالاختبارات النفسية للتدريب على تطبيقها وتصحيحها ، والساعة الثانية مخصصة للدراسة النظرية ٠ ولم تدخل الدراسة العملية فى التجربة٠

جدول رقم (١)
نتائج اختبار الذكاء العالى

المجموعة	ن	المتوسط	الانحراف المعيارى
التعلم الذاتى	٢٩	٢٥ر٨٢	٥ر٨٧
التسجيل	٤٤	٢٧ر٥٤	٧ر٢٠
المحاضرة	٦٤	٢٨ر٢٧	٥ر١١

وكما هو واضح من الجدول بلغ متوسط درجات المجموعة الاولى فى اختبار الذكاء العالى ٢٥ر٨٢ بانحراف معيارى قدره ٥ر٨٧ ، وبلغ متوسط درجات المجموعة الثانية ٢٧ر٥٤ بانحراف معيارى قدره ٧ر٢٠ • بينما كان متوسط درجات المجموعة الثالثة ٢٨ر٢٧ وانحرافها المعيارى ٥ر١١ •

ولمعرفة ما اذا كانت الفروق بين متوسطات درجات المجموعات فى اختبار الذكاء فروقا جوهرية أم أنها فروق ترجع الى الصدفة ، أجرى تحليل التباين للدرجات الخام فى المجموعات الثلاثة ، والجدول رقم (٢) يوضح نتائج التحليل •

جدول رقم (٢)
نتائج تحليل التباين لاختبار الذكاء

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	التباين	النسبة الفائية
بين المجموعات	٦٠ر١٦	٢	٢٠ر٠٨	٠ر٨٢٥
داخل المجموعات	٤٨٨٤ر٥٨	١٣٤	٣٦ر٤٥٢	
المجموع	٤٩٤٤ر٧٤	١٣٦		

ومن الجدول السابق يتضح أن النسبة الفائية تبلغ ٨٢٥ر٠ وهى غير ذات دلالة احصائية ، مما يعنى انه لا توجد فروق جوهرية بين المجموعـات الثلاثة فى الذكاء ، كما قيس باختبار الذكاء العالى ٠

نتائج الاختبار القبلى :

بعد تصحيح الاختبار القبلى رصدت درجات كل مجموعة على حدة ، وحسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية فى المجموعات الثلاثة والجدول رقم (٣) يوضح هذه النتائج ٠

جدول رقم (٣)
نتائج الاختبار القبلى

المجموعـة	ن	المتوسط	الانحراف المعيارى
التعلم الذاتى	٢٩	١٦ر٧٦	٥ر٦١
التسجيل	٤٤	١٨ر٠٤	٥ر٣٨
المحـاضرة	٦٤	١٤ر٦٥	٥ر١٠

وكما هو واضح من الجدول السابق بلغ متوسط درجات المجموعـة الأولى (التعلم الذاتى) ١٦ر٧٦ فى الاختبار القبلى بانحراف معيارى قدره ٥ر٦١ ٠ وبلغ متوسط درجات المجموعة الثانيـة (التسجيل) ١٨ر٠٤ بانحراف معيارى قدره ٥ر٣٨ ، بينما كان متوسط درجات المجموعة الثالثة (المحاضرة) ١٤ر٦٥ والانحراف المعيارى ٥ر١٠ ٠

ولمعرفة ، ما اذا كانت الفروق بين متوسطات الاختبار القبلى فروقـا جوهرية ، أم أنها فروق ترجع الى الصدفه ، أجرى تحليل التباين للدرجات الخام فى المجموعات الثلاثة ، والجدول رقم (٤) يوضح نتائج تحليل التباين٠

جدول رقم (٤)
نتائج تحليل التباين لدرجات الاختبار القبلى

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	التباين	النسبة الفائية
بين المجموعات	٣١١ر٧٩	٢	١٥٥ر٨٩٥	٥ر٥٦٣
داخل المجموعات	٣٧٥٤ر٩٨	١٣٤	٢٨ر٠٢٢	
المجمـــوع	٤٠٦٦ر٧٧	١٣٦		

ومن الجدول السابق يتضح أن النسبة الفائية تبلغ ٥ر٥٦٣ ، وبالرجوع الى جدول الدلالة الاحصائية نجد أنها دالة على مستوى ٠ر٠١ ، مما يعنى وجود فروق جوهرية بين متوسطات المجموعات الثلاثة فى الاختبار القبلى ٠

ولتحديد أى المجموعات مسئولة عن الفرق الدال ، حسبت قيم ت للفرق بين متوسطى كل مجموعتين ٠ والجدول رقم (٥) يوضح نتائج قيم ت ٠

جدول رقم (٥)
نتائج حساب اختبار ت للاختبار القبلى

المجموعات	الفرق بين المتوسطين	لصالح مجموعة	قيمة ت	مستوى الدلالة
التعلم الذاتى مع التسجيل	١ر٢٨	التسجيل	٠ر٩٧٨	غيردالة
التعلم الذاتى مع المحاضرة	٢ر١١	التعلم الذاتى	١ر٧٩٥	غيردالة
التسجيل مع المحاضرة	٣ر٣٩	التسجيل	٣ر٣٢٢	٠ر٠١

وكما هو واضح من الجدول ، كان الفرق الدال الوحيد بين متوسطى مجموعة التسجيل ومجموعة المحاضرة،حيث كانت قيمة ت ٣٫٣٢٢ ، وهى ذات دلالة احصائية على مستوى ٠٫٠١

أما الفرق بين متوسط مجموعة التعلم الذاتى وكل من متوسطى مجموعة التسجيل ومجموعة المحاضرة فلم يكن ذا دلالة احصائية ، مما يعنى أن الفروق بينها وبين المجموعتين الأخرتين فروق يمكن أن ترجع الى عوامل الصدفه ٠

نتائج اختبار التحصيل الموضوعى :

بعد الانتهاء من تدريس الوحدات المحددة للتجربة ، طبق اختبار النحصيل الموضوعى على جميع الطالبات ٠ وقد حسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية للمجموعات الثلاثة ، ويوضحها الجدول رقم (٦) ٠

جدول رقم (٦)
نتائج اختبار التحصيل الموضوعى البعدى

المجموعة	ن	المتوسط	الانحراف المعيارى
التعلم الذاتى	٢٩	٤٢٫٧٩	٣٫٨٩
التسجيل	٤٤	٤٤٫٣٦	٦٫٧١
المحاضرة	٦٤	٤٣٫٥٦	٥٫١٨

ويتضح من الجدول أن متوسط درجات مجموعة التعلم الذاتى فى اختبار التحصيل الموضوعى بلغ ٤٢٫٧٩ بانحراف معيارى قدره ٣٫٨٩ ، بينما بلغ منوسط مجموعة التسجيل ٤٤٫٣٦ وانحرافها المعيارى ٦٫٧١ ٠ أما مجموعة المحاضرة فقد كان متوسطها فى الاختبار ٤٣٫٥٦ وانحرافها المعيارى ٥٫١٨ ٠

ولمعرفة ما اذا كان هناك دلالة احصائية للفروق بين المجموعات الثلاثة فى نتائج الاختبار ، أجرى تحليل التباين للبيانات المستمدة من الاختبار والجدول رقم (٧) يوضح نتائج التحليل ٠

جدول رقم (٧)
نتائج تحليل التباين لنتائج الاختبار التحصيلى البعدى

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات	التباين	النسبة الفائية
بين المجموعات	١٥ر٤٤	٢	٢٢ر٠٧٥	٧٣ر٠
داخل المجموعات	٤٠٥٠ر٧٣	١٣٤	٣٠ر٢٢٩	
المجموع	٤٠٩٤ر٨٨	١٣٦		

وكما هو واضح من الجدول بلغت النسبة الفائية للتباين بين المجموعات ٧٣ر٠ ، وهي غير ذات دلالة احصائية ، مما يعنى أن الفروق بين المجموعات الثلاثة فى اختبار التحصيل الموضوعى ، الذى أجرى بعد انتهاء التجربة لم تكن فروقا جوهرية ٠

نتائج تحليل التباين المتلازم لدرجات اختبار التحصيل الموضوعى :

على الرغم من أن تحليل التباين البسيط لدرجات اختبار التحصيل الموضوعى البعدى لم تكشف عن فروق جوهرية بين المجموعات الثلاثة ، فانه من المحتمل ان يكون لطرق التدريس الثلاثة تأثير مختلف ، نظرا لان الاختبار القبلى كشف عن فروق جوهرية فيما لدى أفراد المجموعات من معلومات متصلة بالوحدات التى درست ٠ فقد رأينا فى تحليل نتائج الاختبار القبلى أن النسبة الفائية للتباين بين المجموعات بلغت ٥٦٣ر٥ ، وهى دالة على مستوى ٠١ر٠ كما سبق أن أشرنا ٠ كما تبين أيضا من حساب اختبارات «ت» أن الفرق الدال الوحيد كان بين متوسط مجموعة التسجيل وبين مجموعة المحاضرة ، وقد يكون لهذا الفرق فى المعلومات القبلية تأثير فى نتائج الاختبار البعدى ٠

لهذا رأينا أن نقوم باجراء تحليل التباين المتلازم لدرجات اختبـــار التحصيل الموضوعي البعدى ، حتى نستطيع عزل أثر المعلومات السابقـــة لدى أفراد العينة ، والتي تمثلت في درجاتهم فى الاختبار القبلى ٠ والجدول رقم (٨) يوضح نتائج تحليل التباين المتلازم ٠

ويتضح من الجدول أن النسبة الفائية للتباين المعدل بين الطرق بعد عزل المتغير المتداخل (درجات الاختبار القبلي والتى تعبر عن معلومات سابقة عن الموضوعات) قد بلغت ٥٦٧ر٠١ وعلى الرغم من أنها أكبر من النسبة الفائية

جدول رقم (٨)

نتائج تحليل التباين المتلازم لدرجات الاختبار الموضوعي

مصدر التباين	مجموع المربعات الاختبار القبلـي	مجموع المربعات الاختبار البعدى	درجات الحرية	التباين الاختبار القبلـي	التباين الاختبار البعدى	النسبة الفائية الاختبار القبلـي	النسبة الفائية الاختبار البعدى
بين المجموعات	٧٩ر٣١١	١٥ر٤٤	٢	١٥٥ر٨٩٥	٢٢ر٠٧٥	٥ر٥٦٣	٠ر٧٣
داخل المجموعات	٣٧٥٤ر٩٨	٤٠٥٠ر٧٣	١٣٤	٢٨ر٠٢٢	٣٠ر٢٢٩		
المجموع	٤٠٦٦ر٧٧	٤٠٩٤ر٨٨	١٣٦				
ت المتلازم للطرق	٥٢ر٧٢٥						
ت المتلازم داخل المجموعات	١٩٦٣ر١٩٥						
م التباين المتلازم	٢٠١٥ر٩٢						
مجموع المربعــات المعدل بين الطرق	٧١ر٢٥٦		٢	٣٥ر٦٢٨		١ر٥٦٧	
مجموع المربعات المعدل داخـــل المجموعات	٣٠٢٤ر٣٢		١٣٣ *	٢٢ر٧٣٩			
م المربعات المعدل	٣٠٩٥ر٥٨						

(★) لقد نقصت درجات حرية التباين داخل المجموعات درجة اضافية مقابل معامل التراجع ٠

للتباين بين الطرق قبل التعديل ، فانها مع ذلك لم تصل الى مستوى الدلالة الاحصائية المقبول ، حيث لم تكن دالة ، لاعلـــى مستوى ٠١ر٠ ولاعلـــى مستوى ٠٥ر٠ ٠

ويعنى هذا أنه لا توجد فروق جوهرية بين الطرق الثلاثة من حيث أثرها على التحصيل كما قيس باختبار التحصيل الموضوعى ٠

نتائج اختبار المقال :

لقد استخدم كجزء من تقويم التحصيل فى المجموعات الثلاثة اختبار من أسئلة المقال ، وعلى الرغم من أن الاسئلة التى أعطيت للمجموعات كانت مختلفة (سؤالان فى كل مجموعة) ، فان الباحث راعى أن تكون الاسئلة متماثلة فى صعوبتها وما تتطلبه من وقت وتفكير بقدر الامكان ٠

وقد حسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية لهذا الاختبـــار ، وعولجت البيانات احصائيا على حدة ، أى بمعزل عن درجات الاختبـــار الموضوعى ٠ والجدول (٩) يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية ٠

جدول رقم (٩) نتائج اختبار المقال

المجموعـــة	ن	المتوسط	الانحراف المعيارى
التعلم الذاتى	٢٩	٦٩ر٩	٠٢ر٣
التسجيل	٤٤	٠٧ر٧	٦٣ر٤
المحاضرة	٦٤	٨٢ر٥	٧٢ر٢

وكما هو واضح من الجدول رقم (٩) بلغ متوسط درجات مجموعة التعلم الذاتى ٦٩ر٩ بانحراف معيارى قدره ٠٢ر٣ ، بينما بلغ متوسط درجات مجموعة التسجيل ٠٧ر٧ وانحرافها المعيارى ٦٣ر٤ ٠ أما مجموعة المحاضرة فقد بلغ متوسط درجاتها ٨٢ر٥ بانحراف معيارى قدره ٧٢ر٢ ٠

ولمعرفة ما إذا كانت الفروق بين المجموعات ذات دلالة احصائيه ، أم أنها فروق صفرية ، أخضعت البيانات لتحليل التباين • والجدول رقم (١٠) يوضح نتائج هذا التحليل •

جدول رقم (١٠) نتائج تحليل التباين لدرجات اختبار المقال

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	التباين	النسبة الفائية
بين المجموعات	٢٩٨ر٩٥	٢	١٤٩ر٧٤	١٢ر١٧٢
داخل المجموعات	١٦٤٥ر٥٣	١٣٤	١٢ر٢٧	
المجموع	١٩٤٤ر٤٨	١٣٦		

كما هو واضح من الجدول رقم (١٠) بلغت قيمة النسبة الفائية للتباين بين المجموعات ١٢ر١٧٢ ، وهي ذات دلالة احصائية على مستوى ٠ر٠١ ، مما يعني وجود فروق جوهرية بين درجات المجموعات الثلاثة في اختبار المقال • ولتحديد أي المجموعات هي المسئولة عن الفرق الدال في التباين ، حسبت قيم « ت » بين متوسطي كل مجموعتين والجدول التالي يوضح ذلك •

جدول رقم (١١) نتائج حساب « ت » لاختبار المقال

المجموعات	الفرق بين المتوسطين	لصالح مجموعة	قيمة«ت»	مستوى الدلالة
التعلم الذاتي مع التسجيل	٢ر٦٢	التعلم الذاتي	٢ر٦٩٠	٠ر٠١
التعلم الذاتي مع المحاضرة	٣ر٨٧	التعلم الذاتي	٦ر٠٥٤	٠ر٠١
التسجيل مع المحاضرة	١ر٢٥	التسجيل	١ر٧٦٣	غير دالة

ويتضح من الجدول أن متوسط مجموعة التعلم الذاتى كـــان أكبر من متوسط مجموعة التسجيل بفارق قدره ٢٫٦٢ ، ومن متوسط المحاضرة بفرق قدره ٣٫٨٧ • وقد كانت قيمة (ت) للفرق الاول ٢٫٦٩٠ ، وللثانى ٦٫٠٥٤، وكلاهما ذات دلالة احصائية على مستوى ٠٫٠١ ، مما يعنى تفوق مجموعة التعلم الذاتى فى اختبار المقال على المجموعتين الاخرتين •

أما الفرق بين متوسط مجموعة التسجيل ومتوسط مجموعة المحاضرة فقد بلغ ١٫٢٥ ، وقد كانت قيمة ت لهذا الفرق ١٫٧٦٣ وهى غير ذات دلالة احصائية • وتعنى هذه النتائج أن مجموعة التعلم الذاتى هى المجموعـــــة المسئولة عن الفرق فى التباين •

مناقشة النتائج

لقد كشف التحليل الاحصائي ـ كما تبين سابقا ـ عن عـــدة نتائج أساسية ، يمكن ايجازها فيما يلي :

١ ـ لقد كشفت نتائج الاختبار التحصيلي القبلي عن وجود معلومات سابقة لدى جميع الطالبات بمتوسط عام قدره حوالى ١٦ درجة ، وهو مايزيد قليلا عن ربع الدرجة القصوى للاختبار ، كما كانت الفروق بين مجموعة التسجيل والمجموعتين الآخرتين ذات دلالة احصائية ، لصالح مجموعة التسجيل ٠

٢ ـ كشف تحليل نتائج الاختبار التحصيلي الموضوعي البعدي عن عدم وجود فروق ذات دلالة احصائية بين المجموعات الثلاثة ، سواء قبل عزل متغير المعلومات السابقة (تحليل التباين البسيط) أو بعد عزل أثر هذا المتغير (تحليل التباين المتلازم) ٠

٣ ـ أظهر تحليل نتائج اختبار المقال (اختبار بعدى) عن وجود فروق ذات دلالة احصائية بين المجموعات ٠ وكانت الفروق فى صالح مجموعـــة التعلم الذاتي ، حيث كانت الفروق بينها وبين المجموعتين الاخرتين ذات دلالة احصائية على مســـتوى ٠١ر٠ بينما لم تكن الفروق بين المجموعتين الاخرتين (التسجيل والمحاضرة) دالة احصائيا ٠

ان التأمل في النتائج السابقة يكشف عن حقائق أساسية تتعلق بالعملية التعليمية ٠ ففيما يختص بالنتيجة الاولى ، وهي أن الطلاب يأتون للموقف التعليمي ولديهم قدر من المعلومات عن الموضوع ، نجد أنها تتفق مع الفكرة الاساسية والنتائج التى توصل اليها ميجر ومعاونوه من بحوثهم ٠ فقد رأينا كيف وجد ميجر فى دراسته التى أجريت باستخدام مقرر فى الالكترونيات عام ١٩٦١ ، أن جميع المتعلمين ، مهما بدا عليهم من جهل أو بطء فى التعلم أو السذاجة ، قد أتوا الى التجربة ولديهم قدر من المعلومات عن الالكترونيات ٠ ونفس الحقيقة أيضا برزت فى الدراسة التى أجراها هو وما كان علـــى المهندسين المتخرجين حديثا ٠ حتى فى الدراسة التى أجريت على ربـــات

البيوت فى تعليمهم قراءة العدادات الكهربائية ، وجد أن لديهن قدرا معقولا من المعرفة المناسبة عن الموضوع ٠

ونفس الشيء وجد فى الدراسة الحالية ٠ فعلى الرغم مما ادعته الطالبات من أنهن لا يعرفن شيئا عن الموضوع ، واعتراضهن على تطبيق اختبار عليهن قبل دراسة أى شيء فى المقرر ، اتضح أن لديهن قدرا لايستهان به من المعلومات الصحيحة عن موضوعات الدراسة ٠ صحيح أن مقدار هذه المعلومات يختلف من طالبة لأخرى ، وربما من مجموعة لأخرى ، ولكن من المؤكد أن جميع الطالبات دون استثناء أتين للموقف التعليمى ولديهن قدر ما من المعلومات الصحيحة عن موضوعات الدراسة ٠

هذه الحقيقة ، على الرغم من بساطتها ، وربما تسليمنا بها،فاننا لا نفعل أى شيء – كما أشرنا سابقا – لكى نستفيد منها ، اننا نبدأ فى تدريسنا لاى مقرر دراسى كما لو كنا نبدأ من الصفر فيما يتعلق بهذا المقرر ، ناسين أو متناسين أن المعرفة الانسانية ، خاصة فى العلوم الانسانية عامة ، والنفسية والتربوية بشكل خاص ، معرفة متكاملة بل ومتداخلة ، ومتناسين أن الطلاب والطالبات يتعلمون الكثير من مقرر معين أثناء دراستهم لمقررات أخرى ، قريبة كانت أو بعيدة ، عن هذا المقرر ٠ لقد اغفلنا أيضا حقيقة هامة ، وهى أنه يمكننا أن ندخر جزءا من وقت كل طالب وكل طالبة ، بل ومن وقت الاستاذ بالدرجة الاولى ، اذا اخذنا فى الاعتبار ما يعرفه كل طالب من المقرر ، وبدأنا معه من هذا الذى يعرفه ، بدلا من أن نبدأ معه من الصفر ٠ وربما كان السبب فى ذلك أننا فى المجموعات الكبيرة نقف عاجزين أمام الفروق الواضحة بين الطلاب ، سواء فى معلوماتهم السابقة أو امكانياتهم العقلية أو اساليبهم فى التعلم ٠ ولكن أليس فى (تفريد التعلم) وبشكل خاص باستخدام طريقة « التعلم الذاتى » فى الجامعة حل لهذه المشكلة ؟ ٠

للاجابة على هذا التساؤل ، نعود الى باقى نتائج البحث ٠ لقد كشف تحليل نتائج اختبار التحصيل الموضوعى عن عدم وجود فروق فى التحصيل بين المجموعات الثلاثة ٠ وتلك نتيجة هامة لاينبغى أن نقلل من أهميتها ٠ صحيح أن مجموعة التعلم الذاتى لم تظهر تفوقا على مجموعة التسجيل أو مجموعة المحاضرة فى الاختبار الموضوعى ، ولكن مانريد أن نؤكده هو أن

مجموعة المحاضرة لم تتفوق أيضا على مجموعة التعلم الذاتى ، بل ولم تختلف نتائجها اختلافا جوهريا عن مجموعة التسجيل · وتتفق هذه النتيجة مع نتائج معظم البحوث السابقة التى عرضنا لبعضها ، مثل دراسة ألن ومكدونالد ودراسة موريس ومعاونيه وغيرهما · فاذا اضفنا الى ذلك نتيجة البحث الحالى الثالثة ، وهى ماكشف عنه من تفوق مجموعة التعلم الذاتى على المجموعتين الاخرتين فى اختبار المقال ، لتبين لنا أهمية ما توصلنا اليه من البحث ·

ان ما توصلنا اليه ، ببساطة شديدة ، يعنى أن اعطاء الطالب الجامعى قدرا أكبر من الحرية فى تنظيم وقته ، واختيار أسلوب الدراسة الذى يناسبه ، واعطاءه قدرا أكبر من الاستقلال والاعتماد على نفسه ، لا يؤثر تأثيرا ضارا على تحصيله ، كما يقاس بالاختبارات الموضوعية ، ولكنه من ناحية أخرى يؤثر تأثيرا ايجابيا على قدرته على تنظيم الافكار والربط بينها ، والقدرة على المقارنة والاستدلال ، كما تبين ذلك من نتائج اختبار المقال · فاذا اضفنا الى هذا أن بعض طالبات مجموعة التعلم الذاتى أدين الامتحان قبل موعده المحدد ، وبمحض اختيارهن ، لتبين لنا أن التعلم الذاتى يوفر وقت الطالب ، دون أية خسارة فى كفاية العملية التعليمية ·

ولكن هل معنى هذا ، أن المعلم أو الاستاذ لاضرورة له فى العملية التعليمية ، أو أن وجوده لافائدة منه ؟ الاجابة ، بطبيعة الحال ، بالنفى · ذلك أن للاستاذ دوره ، بل ودوره المهم جدا ، فى توجيه تعلم الطالب والاشراف عليه ، بل ومساعدته حينما يحتاج الى ذلك · ان ما يحدث فى «التعلم الذاتى» هو تغيير جوهرى فى دور الاستاذ والطالب فى العملية التعليمية · ولاشك أن ما تمر به المدارس والجامعات من تغييرات حاليا ، انما هو انعكاس لتغير دور المعلم والطالب فى العملية التعليمية ·

ولعله من النادر الان أن تجد الاطفال المبتدئين فى السلم التعليمى فى المدارس فى الدول المتقدمة ، يجلسون فى صفوف داخل الفصل الدراسى ، يمارسون عملية الجمع أو يتمرنون على الكتابة · اذ أن الطابع الغالب على التعلم فى هذه المرحلة ، هو أن يقوم الاطفال بأنشطة متنوعة ، بعضهم فى مجموعات صغيرة من ثلاثة أو أربعة اطفال ، وبعضهم الآخر يعمل كل بمفرده· وفى اثناء هذا النشاط يتعلم الاطفال الجمع والكتابة وغيرهما · من النادر أن

تجد المعلم واقفا امام السبورة يشرح للفصل ككل ، وبدلا من ذلك ستجد المعلم يتحرك من مجموعة من الاطفال الى مجموعة أخرى ، يساعد تلك المجموعة، ويوجه الأخرى ، ويشرح للتلميذ المعين نقطة غير واضحة ، أو يستمع لآخر وهو يقرأ نصا• وربما يتغير أيضـــا تنظيم اليوم المدرسى ، فبدلا من وجود « جرس » يعلن تغيير الدرس ، يعمل الاطفال كأفراد أو كمجموعات فى الاعمال التى يقومون بها حتى ينتهون منها ، أو حتى يشعرون بالحاجة الى تغييرها • وقد يستمر بعض الاطفال فى نشاط واحد طيلة الصباح ، بينما ينتقل غيرهم من نشاط لآخر • ومع ذلك ، يستطيع الاطفال تغطية مجال معين من الانشطة ، ويضمن المعلم أن التقدم المطلوب فى المقررات الدراسية قد تحقق •

ونفس هذا الاتجاه فى ادارة العملية التعليمية نجده ينتقل تدريجيا الى الصفوف الاعلى الاعدادية (المتوسطة) والثانوية ، وهو مايعنى بالدرجة الاولى تغييرا جوهريا فى دور المعلم • فقد كـــان دور المعلم التقليدى ينحصر أساسا فى توصيل قدر من المعارف والمعلومات الى التلاميذ • وبطبيعة الحال ، يختلف هذا القدر باختلاف سن التلاميذ ، وكذلك باختلاف قدراتهم المفترضة• وقد يضاف الى هذه المعارف بعض المهارات ، ومع ذلك يظل المنهج ثابتا وواحدا بالنسبة لكل التلاميذ • وعلى ذلك ، كان هدف طرق التدريس التقليديـــة ينحصر فى اتباع أفضل الطرق لكى يتقن التلاميذ موضوعات المنهج •

وهكذا نجد أن الموقف التعليمى التقليدى يتكون من منهج أو مقرر دراسى موزع على العام أو الفصل الدراسى بواسطة المعلم ، ومجموعة من التلاميذ يختلفون فيما بينهم فيما لديهم من امكانيات وقدرات • ومشكلـــة المعلم فى هذا الموقف هو أن يكيف التلاميذ للمنهج الدراسى ، بمعنى أنه فى هذا الموقف يحاول أن يعرض هذا المنهج بطريقة تسمح لكل تلميذ بأن يحصل أكبر قدر تمكنه منه قدراته فى الوقت المحدد مسبقا • ان التغير الذى تحدثنا عنه ، هو عكس لهذا الوضع ، أو قلب له • فبدلا من أن نحـــاول تكييف التلاميذ لمقرر معين ، فاننا نأخذ اختلافات التلاميذ كأساس نبدأ منه ، وبعد ذلك نكيف المقرر وفقا لهذه الاختلافات •

وليس معنى هذا أن جميع عناصر الموقف التقليدى تهمل • فمن الواضح أن جميع الأطفال لابد أن يتعلموا القراءة والكتابة فى الصفوف الاولى ، وأن

يستطيعوا القيام بالعمليات الحسابية • كذلك الحال بالنسبة للأهـــداف التعليمية فى المراحل الأخرى •فهذه مطالب أساسية للحياة ، وكذلك للتعلم التالى • وانما الاتجاه الحديث يمتد ليشمل مهارات أساسية أخرى مثـــل مهارات الابتكار ، والمهارات اليدوية والعقلية • وما تهمله الطرق الحديثة هو أن يتعلم جميع تلاميذ الفصل هذه المعلومات والمهارات فى وقت محدد ، وبطريقة حددها المعلم مسبقا •

لقد كان هناك كثير من الافكار والمعتقدات الخاطئة ، تكمن وراء طرق التدريس التقليدية • فقد كـــان من المعتقد أن التلاميذ يتعلمون عن طريق الاصغاء ، واذا كان ذلك ممكنا ، فان من الحقائق الثابته أيضا أنهم يتعلمون عن طريق التحدث أو العمل ، أو حتى القيام بالشرح والتدريس • فالتعلم نادرا ما يحدث عن طريق التعرض السلبى من جانب التلاميذ واصــــغائهم لما يقوله المعلم • وانما التعلم يتطلب مشاركة ايجابية فعالة فى العمليةالتعليمية من جانب التلاميذ • وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، فان معظم مدارسنا تعمل بشكل عكسى ، فالشخص النشط هو المعلم ، والتلميذ ، الذى يجب أن يشارك بشكل ايجابى ، يظل سلبيا • بل أكثر من هذا نجد أن معلمينا يقدرون التلميذ كلما كان أكثر هدوءا •

ومن الافكار الخاطئة أيضا ، أننا نتصور أن فصلا من ٢٥ أو ٤٠ تلميذا يمكن أن يتعلم موضوعات منهج معين فى فترة زمنية واحدة • اذ من الحقائق العلمية المعروفة أن التلاميذ يتفاوتون فيما يحتاجونه من وقت لتعلم محتوى موضوع أو موضوعات معينة • كما يختلفون أيضا فى مقدار مايتذكرونه بعد فترة زمنية معينة • ومن الحقائق المعروفة أيضـــا أن التلاميذ اذا أرادوا أن يتعلموا شيئا معينا ، فانهم يستوعبونه بسهولة وسرعة • واذا حاول المعلم أن يعرف مايريد التلاميذ تعلمه ، لوجد أن هناك اختلافات كبيرة بينهم • واذا أراد المعلم أن يوجه عملية التعلم بكفاءة ، كان عليـــه أن يتعرف على تلك الموضوعات التى يميل اليها التلاميذ المختلفون • علينا أن نكف عن الاعتقاد بأن كل فرد يريد ان يتعلم ، وأنه قادر على تعلم نفس المنهج وتذكـــره • فالانفجار المعرفى والتغير الاجتماعى والتكنولوجى السريع يجعلان مسألـــة « تغطية المنهج » أمرا قليل الاهمية •

ولعل من الافكار الخاطئة أيضا ، أننا نعتقد أن جميع التلاميذ يمكن

أن يستوعبوا نفس المحتوى بنفس العمق · والواقع أن جميع التلاميذ يمكن أن يتعلموا شيئا ما عن موضوع معين ، ولكن كل فرد منهم لديه قدرة على استيعاب قدر معين من التفاصيل والمفاهيم فى هذا الموضوع · ومن هنا ، اذا كان ثمة موضوعات معينة فى المنهج تعتبر أساسية وضرورية لكل تلميذ ، فانه يجب علينا أن نحدد الحد الادنى من الأساسيات ، ثم نحدد الحقـــائق الأخرى الاضافية التى قد يستطيع التلميذ القادر تعلمها اذا رغب فى ذلك ·

ومن الاخطاء الشائعة كذلك ، أننا نعتقد أن التلاميذ يمكن أن يتعلموا اذا انصتوا وركزوا · والواقع أن لكل تلميذ أسلوبه الخاص فى التعلم ، فهناك من يتعلمون بالاعتماد أساسا على السمع ، وآخرون يعتمدون علـــى الابصار ، وغيرهم عن طريق النشاط الحركى ·· الخ(٣) ·

هذا الاتجاه فى التخلى عن الطريقة التقليدية فى التعليم ، كان ثمرة عدد من البحوث والدراسات ، أكدت أهمية « تفريد » التعلم داخل الفصل الدراسى وتستند دعوة التفريد الى مجموعة من الافتراضات أهمها (٢) :

- لايوجد متعلمان يحصلان بنفس السرعة ·
- لايوجد متعلمان يحصلان باستخدام نفس أسلوب الدراسة ·
- لايوجد متعلمان يحلان المشكلات بنفس الطريقة بالضبط ·
- لايوجد لدى متعلمين نفس رصيد الخبرة السابقة ·
- لايوجد لدى متعلمين نفس الميول ·
- لايوجد لدى متعلمين دافعية للتحصيل بنفس الدرجة ·
- لايوجد لدى متعلمين دافعية لتحقيق ذات الاهداف ·
- لايوجد متعلمان على استعداد للتعلم فى ذات الوقت ·
- لايوجد لدى متعلمين نفس القدرة على التعلم تماما ·

فاذا كان هذا يحدث فى التعليم العام ، أليس من الاجدر أن يطور اساتذة الجامعة من طرقهم فى التعليم ، خاصة وأن طلابهم قد بلغوا درجة من النمو والخبرة تمكنهم من المساهمة الايجابية فى العملية التعليمية ؟ ان الاعتبارات السابقة الخاصة بالفروق بين الافراد ، بالاضافة الى تزايد الاعداد فى المجموعات الدراسية بالجامعة يجعل « تفريد التعلم » مطلبا ملحا فى التعليم الجامعى · والباحث يطرح طريقة « التعلم الذاتى » كأسلوب مناسب للتعليم فى المجموعات الكبيرة فى التعليم الجامعى والعالى · يقدمه كطريقة تجريبية يمكن تعميمها اذا ثبتت جدواها لدى اســـاتذة مختلفين وفى مواد دراسية مختلفة ·

المراجع

1 — Barrington Kaye; Participation in Learning. London : George Allen & Unwin Ltd. 1970 .

2 — Burns, R. "Methods for individualizing instruction". Educational Technology, 1971, XI (6), pp. 55-56 .

3 — Dunn, R., and Dunn, K.; Practical Approaches to Individualizing Instructions : Contracts and other effective teaching strategies . New York : Parker Pub. Co., 1972.

4 — Gronlund, N.E. : Individualizing Classroom Instruction. New York : Macmillan Pub. Co., 1974 .

5 — Latta, R.M.; Dolphin, W.D and Grabe, M.;"Individual differences model applied to instruction and evaluation of large college classes". Journal of Educational psychology, 1978, 70 (6), pp. 960 - 970 .

6 — Mager, R.F.; "On the sequencing of instructional content". Psychol. Rep., 1961, 9, pp. 405-413 .

7 — Mager, R.F. and Clark, C., The effects of qualitative feedback in automated instruction. Palo Alto : Varian Assoc., 1963 .

8 — Mager, R.F., and Clark, C., "Expressions in student-controlled instruction". Psychol. Rep. 1963,13,pp.71-76 .

9 — Mager, R.F. and McCann, J.; Learner-Controlled Instruction . Palo Alto : Varian Assoc. 1961.

10 — Morris, E.K. Surber, C.F. and Bijou, S.W.; "Self-pacing versus instructor-pacing, achievement, evaluations, and retention." Journal of Educational/Psychology, 1978,70 (2), PP. 224-230 .

المدينة الإسلامية وخصائصها

د. محمد المعتصم
مدرس بقسم الجغرافية

تصنيف المستوطنات البشرية لدى جغرافيي المسلمين :

نطالع فى كتابات الجغرافيين المسلمين حتى القرن الرابع الهجرى كثيرا من المصطلحات المستخدمة فى تقسيم أقطار العالم الاسلامى الى أقسامها الادارية ومن هذه المصطلحات الاجناد والاقاليم ، والكور ، والمخاليف (مفردة مخلاف) والاستان والطسوج والرستاق والمصر والقصبة والمدن والقرى ولكل منها دلالته العمرانية ٠

فأكبر الاقسام الادارية الاقليم ، والجند ، والاستان : فأما تعبير اقليم فمأخوذ عن اليونانيين وقد استخدم فى كثير من أقطار العالم ، ويطلقونه على منطقة جغرافية تشتمل على عدة مدن وقرى فضلا عن الاستخدامات الاخرى ، أما الجند : فهو أحد اقاليم الشام ، ويقتصر استخدامها على أقاليم الشام ومن أمثلتها جند قنسرين ، وجند فلسطين ، وجند حمص ، وجند دمشق ، وجند الاردن والاجناد الخمسة كلها من الشام وأما الاستان : فقد استخدم ليدل على أحد أقاليم خمسة قسمت اليها فارس ٠

وأما الكورة ، والمخلاف : فتطلق على أقاليم أقل اتساعا من الاقليم أو الجند أو الاستان فقد يضم الجند أو الاقليم عدة كور ٠ وتدل الكورة على صقع يشتمل على عدة قرى ولها قصبة تسمى باسمها ، أو يجرى فيها نهر تشتق اسمها منه ٠ والكورة اسم فارسى أيضا ٠ وأما المخلاف فهو مرادف

للكورة ويستخدم فى اليمن(١) ٠

وأما الرستاق والطسوج فتدل على اجزاء من الكور وكلا المصطلحين فارسى الاصل ويدل على موضع فيه مزارع وقرى(٢) ٠

وفى كتابات الجغرافيين المسلمين نجد خلطا فى استخدام هذه المصطلحات، فلا نجد فروقا واضحة بينها خاصة وان هذه المصطلحات تستخدم من اقاليم متباينة ، وتستخدم مصطلحات كل اقليم عند دراسة العمران به ٠

أما المستوطنات البشرية فى العالم الاسلامى فقد صنفها الجغرافيون المسلمون فى القرن الرابع الهجرى تصنيفا هرميا حسب ما يناط بكل مدينة من وظيفة تؤديها ودور سياسى تلعبه على النحو التالى :

١ ـ الامصار : وهى البلاد التى فيها مقر السلطان ، وتتجمع فيها الدواوين وتقام فيها الحدود ، وتضاف اليها مدن الاقاليم مثل دمشق ،والقيروان وشيراز ٠

٢ ـ القصبات : وهى عواصم الاقاليم ، ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك ٠

٣ ـ المدن : وهى ما يلى القصبة فى الاقاليم أو الكور ، ومقامها مقام الجند ٠

٤ ـ القرى : وتلحق المدن ، ومقامها مقام الرجالة من الجند(٣) ٠

أما تعريف المدينة عند الجغرافيين المسلمين : فهى كل مستوطنة

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه (جـ ١ ص ٣٧) ان سبب التسمية يرجع الى أن القحطانيين الذين اتخذوا اليمن مقرا لهم ، حينما ازداد عددهم انطلقوا فى أرض اليمن ليختار كل بنى أب موضعا يعمرونه ، وكانوا اذا ساروا الى ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم أبى تلك القبيلة المتخلفة فيها فسموها « مخلافا » ومن أمثلتها مخلاف زبيد ، ومخلاف همدان ، ومخلاف نجران ، ومخلاف صنعاء وجمعه مخاليف (انظر المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٨٨) ٠

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٠ المجلد الاول ص‌ص ٢٦ ـ ٣٨ ٠

(٣) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ٠ ١٩٠٦ (ص ٤٧) ٠

يوجد بها منبر ، اذ يعني وجود المنبر وجود المسجد الجامع، فيذكر الاصطخري انه كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو عشرين منبرا وذلك يعني أن فلسطين ـ على صغرها ـ كانت تضم عشرين مدينة ، وفى النص التالى الذى يتحدث فيه الاصطخرى(٤) عن كورة اصطخر يتضح تصنيفه للمدن ، ثم استخدامه للمنبر لتحديد المدينة فيقول « نواحي كورة اصطخر : ناحية يزد وهي أكبر ناحية فيها ، وبها من المدن كثة وهي القصبة ٠٠ والارخمان ومدينتها الارخمان ، وجارين ليس بها منبر وقوين ليس بها منبر وخورستان وليس بها منبر ، والبودنجان ومدينتها البودنجان وهي قرية الاس ، وصاهك الكبرى ولها منبر ، وصاهك الصغرى ليس بها منبر ٠٠٠ »

٢ ـ الاسلام والتحضر :

على الرغم من أن الاسلام نشأ فى الصحراء ، فان العصر الاسلامى كان فترة ازدهار للمدن سواء منها ما أنشأه المسلمون أو ما جددوه من المدن الرومانية والهلينية والفارسية التى تدنت فبعد أن كانت المنطقة الاسلامية تابعة للمدينة الاوروبية فى العصور الكلاسيكية احتلت مكان الصدارة مع ظهور الاسلام ، حيث كان العصر الاسلامى الاول العصر الذهبى للمدن ٠ وقد أدت الفتوحات الاسلامية الى فتح بلاد شاسعة انشئت فيها الكثير من المدن ، وجدد ما تدهور منها ، فلقد ازدهرت المدن التى كانت قائمة فى بلاد الرافدين ، كما جددت مدن الشام ومصر التى كانت قد تدهورت كما انشئت الكثير من المدن الجديدة فى المناطق الاسلامية المفتوحة فى افريقيا ومن هذه المدن الكبرى بغداد (أكبر مدينة فى العالم خلال القرن التاسع الميلادى)(٥) والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ودمشق ، وحلب ، والقاهرة والقيروان ، وتونس ، والمهدية والجزائر وتلمسان وقرطبة وسرقوسة وسلجماسة وتمبوكتو ٠

ولم يقتصر دور المسلمين على اعادة الحياة الى المدن الرومانية بل كثفوها وأضافوا اليها ووسعوا جبهتها بالمدن الجديدة ، كما خلقوا فيها

---

(٤) مسالك الممالك ١٩٢٧ (ص ١٠٠) ٠
(٥) جمال حمدان : جغرافية المدن ٠ ص ١١١

قيما جديدة باختيار نمط جديد من المواقع المفضلة كما وصلوا بأحجامها الى مستويات ربما لم تصل اليها المدينة من قبل على الاطلاق ومن بعد حتى الفترة الحديثة على أن هذه آخر فترة تتزعم فيها المنطقة حركة المدنية فى العالم فبعدها يتخلف الشرق عن الغرب فى المدنية بالتدريج حتى نصل الى الفترة الحديثة فيصبح التخلف فيها أشد وأوضح(٦) وانه لغريب حقا أن يقوم شعب نشأ فى فيافى الصحراء بانشاء واحياء هذا العدد الكبير من المدن فما الذى دفعه الى ذلك ؟ · يمكن أن نلحظ أن وراء هذه الدفعة المدنية الاسلامية عوامل متعددة منها :

١ ـ العامل الحربى : ويعد هذا العامل من أهم العوامل لارتباطه بانتشار الاسلام فقد تعرض الدين الجديد لهجمات ضارية استهدفت القضاء على هذه الدعوة وأهلها كما أن طبيعة الدين الاسلامى الذى يلقى على المسلمين تبعة الدعوة الى الاسلام ونشره فى الارض ، فكانت الفتوحات الاسلامية التى استهدفت نشر الاسلام ، وكان من ضرورات هذه الفتوحات ان ينشىء المسلمون فى البلاد المفتوحة مراكز عسكرية تكون مقرا لجند المسلمين ، ومن ثم كانت المدن الاسلامية فى البلاد المفتوحة ذات طبيعة حربية كما سنشير ، بل كثيرا ما شيدت كمعسكر للجند كما يظهرمناسمها (الفسطاط)، القيروان ، وكل منها تعنى الخيمة وقد أمر عمر بن الخطاب قواده أثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على أطراف العراق مما يلى البادية لينزلها الجند العربى وعياله ، فاختط عتبه بن غزوان فى ربيع سنة ١٦ هـ مدينة البصرة(٧) ·

٢ ـ العامل السياسى : لقد كان هذا العامل وراء ازدهار أكثر من مدينة فكل أسرة حاكمة لها أصولها القبلية التى ترتبط بها تحاول بناء عاصمة جديدة لها تكون رمزا لها ويتجمع بها اشياعها كما كانت تهجر العاصمة القديمة بل كثيرا ماحاولوا تدميرها · فقد نقل على بن أبى طالب عاصمة الخلافة الاسلامية الى الكوفة لكثرة اشياعه فيها(٨) ، ثم كان لنجاح معاوية

---

(٦) نفس المرجع ، ص ١٠٧

(٧) أنور الرفاعى : الاسلام فى حضارته ونظمه ، دار الفكر ، بيروت (١٩٧٣) · ص٣٤٥

(٨) نفس المرجع · ص ٣٤٦

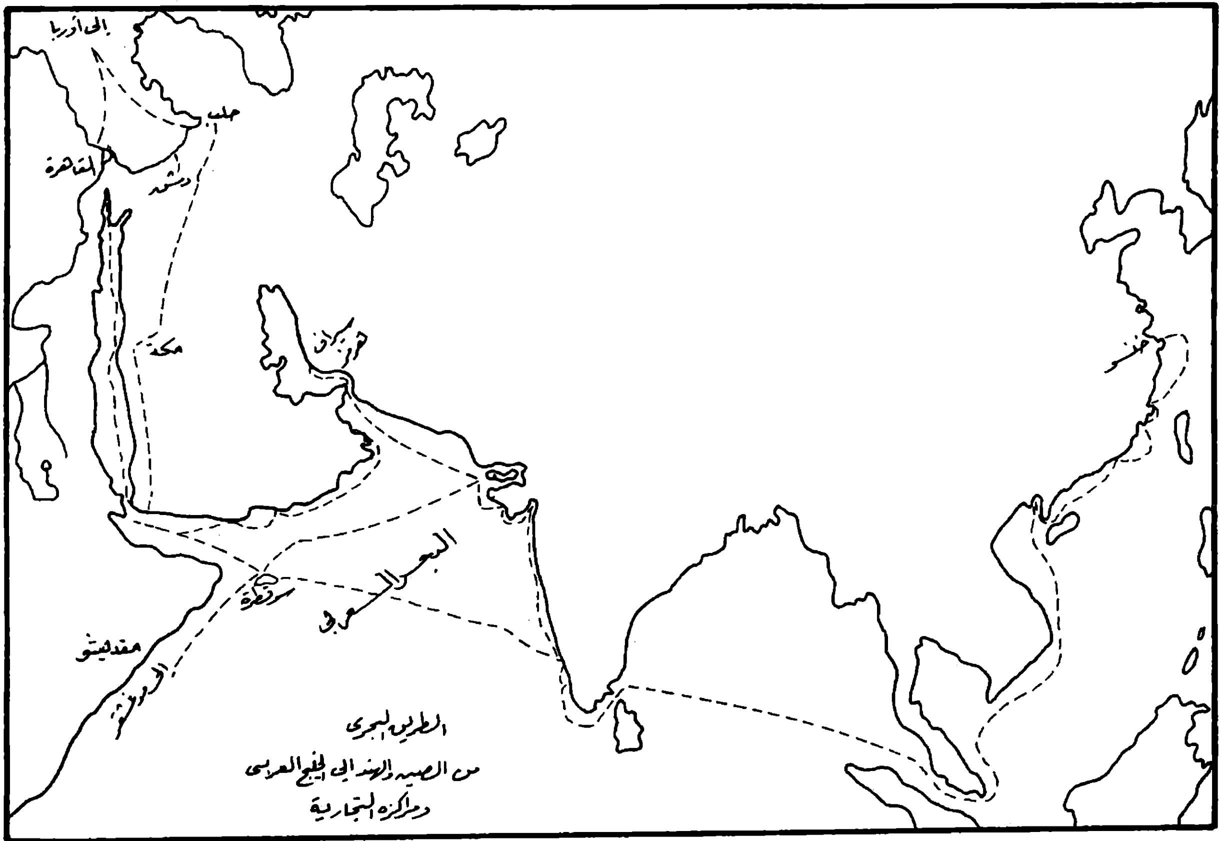
فى تاسيس الدولة الاموية أن حرمت الكوفة من مكانتها السياسية الممتازة وأخذت دمشق مكانها ، حيث اشياعه فى الشام التى قضى خمسا وعشرين سنة واليا عليها(٩) • كما أقيمت العاصمة المصرية فى الفسطاط ثم نقلت الى العسكر فى عهد العباسيين ثم الى القطائع فى عهد الطولونيين ثم انتهت الى القاهرة فى عهد الفاطميين وكان نقل العاصمة دائما مع تغير الولاه وقد كان لهذا التركيز للاشياع فى المدينة التى تتخذ عاصمة للحاكم الجديد أن نشأت مدن تشبهماعرف فيما بعد باسممدن البلاط فيأوروبا(court cities)(١٠) فلقد تجمع اشياع المعتصم من القواد الاتراك فى سامراء ، كما تجمع اشياع ادريس الثانى الذين قدموا من القيروان ومن ضواحى قرطبة وشغلوا الحيين الاساسيين فى مدينة فاس(١١) وكثيرا ما كانت المدينة تحمل اسم الخليفة : كالمهدية والمستنصرية والمتوكلية •• وكثير غيرها •

٣ ـ العامل التجارى : ويعد هذا العامل من أبرز العوامل التى اسهمت فى ازدهار المدينة الاسلامية فالعالم الاسلامى بحكم موقعه المتوسط فى العالم القديم يمثل مرحلة انتقالية بين اقاليم جغرافية مختلفة ، وقد كانت بلاد العرب بمثابة طريق عام ، وملتقى للطرق التجارية التى تربط بين حضارات الشرق والغرب فكانت مكة تقع فى منتصف الطريق بين اليمن والشام ، وتركز مصالحها على تأمين الطرق التى تمر فيها ثروتها ، فقامت حفظا للسلام بعقد سلسلة من المحالفات بين بدو الصحراء وعشائر المدن • وقد عمل الاسلام على توثيق الصلات مع الحضارات القديمة القائمة على امتداد هذا الطريق ، وغالبا ماحل محلها فأحيا عددا ـ كبيرا من المستوطنات القديمة وأنشأ مدنا جديدة اما للتحكم فى طرق التجارة الممتدة من الصين الى اسبانيا أو لتكون بمثابة مراحل على هذه الطرق وقد بلغ مدى شهرة العربى فى التجارة أن أصبحت كلمة عربى فى الافرنجية تعنى تاجرا •

وكان كل النشاط التجارى مركزا بالضرورة فى المدن موانى الصحراء

---

(٩) على ابراهيم حسن (١٩٧٢) • ص ٢٧٢
(١٠) جمال حمدان • المرجع السابق • ص ١٠٩
(١١) انور الرفاعى • المرجع السابق • ص ٣٦٠


إلى أوربا
حلب
القاهرة
دمشق
مكة
هرمز
خنفو
سقطرة
البحر العربي
مقديشو
الطريق البحري
من الصين والهند إلى الخليج العربي
ومراكزه التجارية

(خريطة رقم ١)

من ناحية وموانى البحر من ناحية أخرى(١٢) ولهذا كـــــان ازدهار المدن الاسلامية تلبية لاحتياجات التجارة المتزايدة بتدعيم نقاط التجارة لتكون بمثابة مراحل على الطريق ٠ كما كانت مراحل علي طريق الحج كما هـــو الحال في عيذاب التى ظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركزا لتجمع الحجاج وتجار الشرق(١٣) ٠

ولقد كان للطريق التجارى البحرى الممتد من الصين الى الهند ثم الى رأس الخليج العربى (الذى توضحه الخريطة رقم ١) أثره فى ازدهار كثير من المدن منها هرمز ، وسيراف ، وقيس والابله ، كما أن فروع هذا الطريق النهرية والبرية كانت ذات أثر على ازدهار مدن كالبصرة وبغداد وديار بكر ودمشق كما أدت فروع هذا الطريق الممتدة جنوبا على ساحل البحر المتوسط الى غزة حتى القاهرة وشمالا بغرب الى حلب ثم الى اسيا الصغرى حيث الطرق القادمة من وسط آسيا الى ازدهار المدن ويكفى أن نعـــرف حجم التجارة فى مدينتى دمشق وحلب لنرى أن التجارة كانت عاملا هاما فى ازدهارهما فلقد كان كل من المدينتين تستقبل سنويا ما يزيد عـــلى ١٥٫٠٠٠ جمل محملة بالسلع الشرقية لتعود محملة بالسلع المحليـــة والغربية(١٤) وكانت دمشق بمثابة مستودع لتجارة وسط آسيا وهى نمط من المدن التى يطلق عليها جغرافيو المدن اسم مدن المستودعات (Entrepots) .

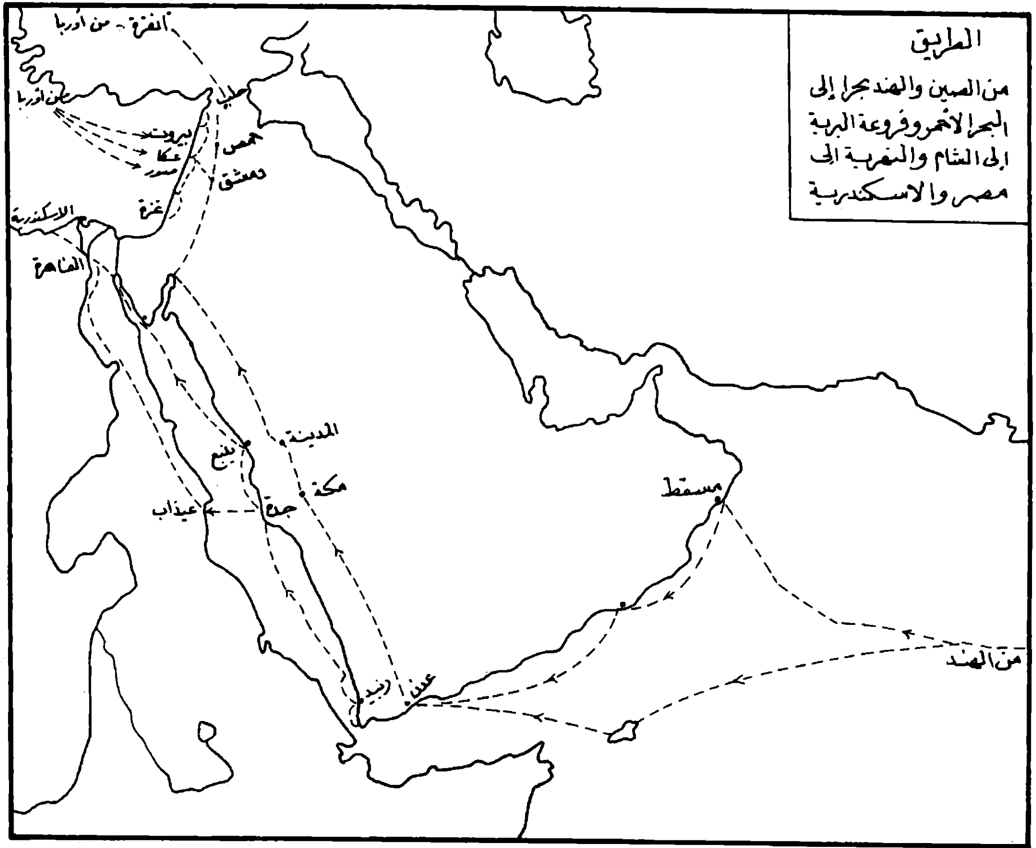
كما كان الطريق البحرى الذى يمتد من الشرق الاقصى الى البحـــر الاحمر وتوضحه الخريطة رقم ٢ لـــه تأثيره علـــى مـــدن كعدن ، وينبع ، وجدة ، والطور والقلزم وحتى ما يتفرع عنه من طرق نهرية أو قنوات جعلت من القاهرة مركزا تجاريا هاما كما ظلت مكة مركزا هاما من مراكز تجـارة الشرق الواردة بطريق البر من عدن ومن الشام وكان منفذها الى البحر ميناء جدة ٠

---

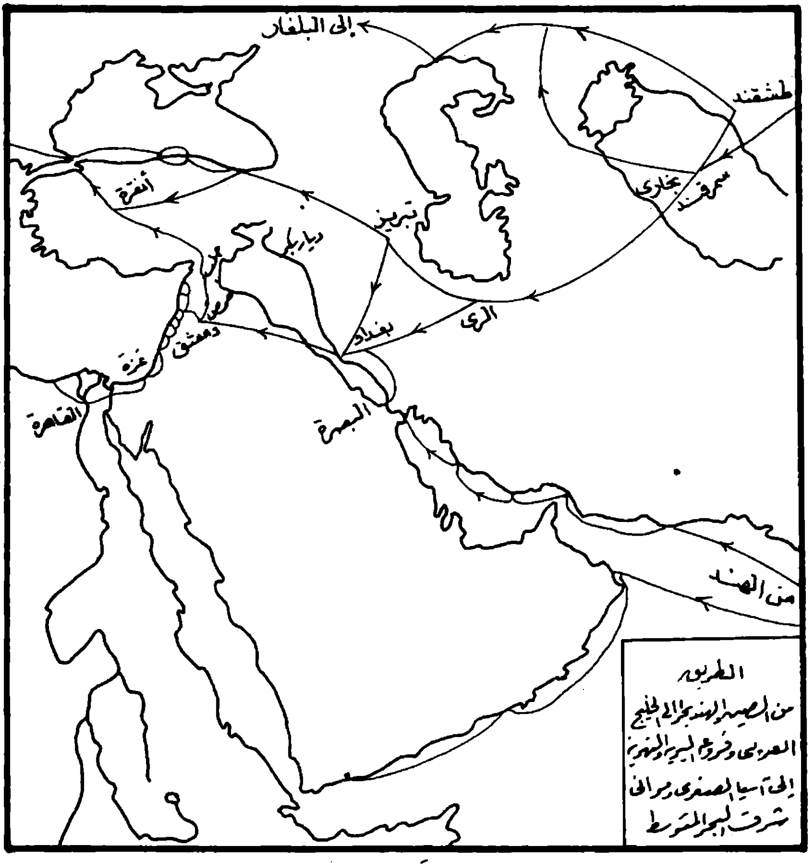
(١٢) جمال حمدان (١٩٥٨) ص ١٨

(١٣) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠ القاهرة (١٩٧٣) ص ١٤٣

(١٤) نفس المرجع ص ص (١٤٨ ــ ١٥٠) ٠


الطريق
من الصين والهند بحرا إلى
البحر الأحمر وفروعه البرية
إلى الشام والمغربية إلى
مصر والاسكندرية
الفرنج - من أوربا
من أوربا
حلب
بيروت
عكا
صور
حمص
دمشق
غزة
الإسكندرية
القاهرة
المدينة
ينبع
مكة
جدة
عيذاب
زبيد
عدن
مسقط
من الهند

(خريطة رقم ٢)


إلى البلغار
طشقند
سمرقند
بخارى
أنقرة
تبريز
ديار بكر
الري
بغداد
دمشق
غزة
القاهرة
البصرة
من الهند
الطرق
من الصين والهند بحرا إلى الخليج
العربي وفروع البرية والنهرية
إلى آسيا الصغرى ومصر وإلى
شرق البحر المتوسط

(خريطة رقم ٣)

ولقد كان للطريق البرى الممتد من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها والذى يلتقى مع طريق الصين ويتجه فرع منه الى بحر قزوين ونهر الفلجا وفرع آخر الى البحر الاسود والقسطنطينية وأوروبا كما يخرج منه فرع الى ديار بكر وبغداد (والذى توضحه الخريطة رقم ٣) كان له تأثير على كثير من المدن التى يمر بها ، ومن الطرق البحرية الهامة التى اخترقت العالـــم الاسلامى وكان لها أثرها فى ازدهار المدن الاسلامية الطريق بين الهـــند والصين والذى يتصل بالطريق الى شرقى افريقية وقد أدى الى ازدهار مسقط ومقديشو(١٥) .

ولقد أدى الموقع المتوسط للعالم الاسلامى الى التنافس بين المـــدن والموانىء المختلفة فى العالم الاسلامى لاشتراكها فى الاعتماد على التجـارة العبورية التى تأثرت بالتغيرات السياسية ويبدو ذلك واضحا فى التنافس بين موانى الخليج العربى من ناحية وموانى البحر الاحمر من ناحية أخرى باعتبارهما شريانا التجارة العبورية حول الجزيرة العربية فقد كان انشاء خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الاحمر عاملا هاما فى ازدهـــار موانىء البحر الاحمر ، ولكن مع قيام الدولة العباسية وردم الخليج قلت أهمية البحر الاحمر واحتلت موانىء الخليج مركز الصدارة فحلت سيراف والابلة والبصرة محل القلزم وعدن وما بينهما من موانى ثم عادت الاهمية الى البحر الاحمر فى أواخر القرن التاسع الميلادى بسبب الثورات والاضطرابات فى جنوب العراق مما قلل من أهمية الخليج العربى(١٦) .

٣ ـ خصائص المدينة الاسلامية :

الموقـــع

الميل الواضح لتخير المواقع البرية : تختلف شبكة المدن الاسلامية عن سابقتها الرومانية فى الانتقال من مواقع ساحلية بحرية الى مواقع داخلية برية كما كان من أهم مايراعى فى مواقع المدن الاسلامية الا يفصل بينها

---

(١٥) لمزيد من التفصيل انظر نعيم زكى (١٩٧٣) (١٧٧ ـ ١٨٧) .
(١٦) جمال حمدان . المرجع السابق . ص ١١٠

وبين دولة الخلافة فاصل مائى ٠ففى فترة ولايةعمر بن الخطاب هزمالمسلمون الفرس فى موقعة القادسية سنة ١٥ هـ ، ولم يشأ المسلمون أن يتخذوا من المدائن عاصمة الفرس القديمة مقرا لهم لحكومة المسلمين ، ولكن بنىالمسلمون البصرة سنة ١٦ هـ لتكون مقرا لهم ، وقد فضل موقع البصرة لانه لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة الاسلامية فاصل مائى ، وحتى يتمكن عمر بن الخطاب أن يمد المسلمين فى فارس بالجند اذا ما دعت الحاجة(١٧) ٠ وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا عند بناء الفسطاط لتكون مقرا لعسكر وحكومة المسلمين فى مصر ، فقد انشئت سنة ٢٠ هـ (٩٦٩ م) على ضفة النيل الشرقيـــة بجوار حصن بابليون مع أن موقع منف على الجانب الغربى ظل الموقع الاثير لدى كثير من الحكام المصريين فى مصر الفرعونية وقد حلت الفسطاط محل الاسكندرية التى كانتحاضرة لمصر خلال العصر الرومانى ويحقق موقعالفسطاط عددا من الميزات أولها : عدم وجود الفاصل المائى بينها وبين مقر الخلافة فى شبه الجزيرة العربية ، وثانيها وقوعها فى قلب المعمور المصرى ، وثالثها وقوعها على رأس الدلتا مما سهل اشرافها على الوجهين البحرى والقبلى ٠

كما يبدو هذا الاتجاه واضحا فى انتقال الاهمية من انطاكية الىدمشق فى الشام ومن قرطاجة الى القيروان فى تونس ، فقد اختار عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ لمدينة القيروان موقعا بريا بعيدا عن شاطىء البحر ليكـــون المسلمون فى مأمن من أسطول الروم وغارات الفرنج التى كانت لا تزال تنقض على تونس من صقلية وايطاليا واليونان اذ أدت هذه الغارات الى خراب مدن مثل سوسه وجربا ووقوعها مرات تحت الاحتلال وقد قال أحد أصحاب عقبة : حين كان يفتش عن موضع لانشاءالمدينة الجديدة « نحن أصحاب ابل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر(١٨) » وقد وجد الجندى العربى المسلم بينه وبين الصحراء التى أقيمت فيها المدينة الفة ٠ ولقد نمت هذه المدينة حتى أصبحت أكبر المدن الاسلامية فى أفريقيا واتخذها الفاطميون فى بداية تأسيس دولتهم عاصمة لهم ، ثم انتقلوا منها الى المهدية فالقاهرة٠

---

(٧) على ابراهيم حسن ٠ المرجع السابق ٠ ص ٢٣٨

(١٨) انور الرفاعى ٠ المرجع السابق ٠ ص ٣٥٨ ٠

ولقد ظلت قيمة الموقع البرى للمدن ، والذى يتميز بعدم وجود فاصل مائى بينه وبين الدولة الام تحكم اختيار مواقع العواصم فى الدول المفتوحة حتى نهاية خلافة عر بن الخطاب اذ ظلت الدولة الاسلامية حتى نهاية عهده دولة برية تحارب جيوشها برا ، ولم يشتبك المسلمون حتى ذلك الوقت فى موقعة بحرية ، ولم ينشئوا اسطولا بحريا لهم • ولقد تغير الوضع اثناء خلافة عثمان بن عفان حيث بدأت الدولة فى انشاء قوة بحرية كبيرةوما محاولات معاوية للسيطرة على مدينة القسطنطينية منذ سنة ٤٧ هـ حينما ابحر اليها فضالة الانصارى ثم حصار المسلمين لها فى الفترة من (٥٤ـ٦٠ هـ) الا دليل على الاستراتيجية الجديدة للعرب والتى سيظهر أثرها فى مدن شمـــال أفريقيا والاندلس ففى شمال افريقية بسط الامويون نفوذهم فى ارجـــاء بلاد المغرب سنة ٩٠ هـ واتخذ طارق بن زياد طنجة وهى قصبة تلك البلاد مقرا لحكمه ، كما دعم مركزهم العسكرى فى سبته وكلا المدينتين تطل على ساحل البحر المتوسط(١٩) •

ولقد انشأ عبيدالله بن المهدى مدينة جديدة فى تونس ذات موقـــع ساحلى هى مدينة المهدية لتكون عاصمة للفاطميين ولقد نمت هذه المدينة وأصبحت مرفأ هاما بين الشام ومصر من جهة ، وصقلية والمغرب والاندلس من جهة أخرى وبنى المهدى فيها دارا للصناعة تتسع لاكثر من مائتى مركب(٢٠) •

واضح اذن تغير قيمة مواقع المدن فبينما كانت المواقع البرية للمدن هى المرغوبة حتى عهد عثمان بن عفان نجد أنها منذ ذلك العهد أصبح هناك أيضا مواقع بحرية ذات قيمة • ومع ذلك ينبغى أن نشير الى أن المديـــنة الاسلامية لم تكن فى كل الاوقات بديلا لمدينة قديمة تعرض عن الموقع القديم دون وعى ، ولكنها ورثت مواقع كثير من المدن القديمة وان كانت قد غيرت مواضعها ، فلقد ورثت مدينة بغداد موقع بابـــل الى حد ما وان لم ترث موضعها(٢١) كما ورثت الفسطاط والقاهرة موقع أون وهليوبوليس وبابليون وان كانت قد تجاوزت موضعها •

---

(١٩) على ابراهيم حسن • المرجع السابق • ص ٢٤٧ •

(٢٠) نفس المرجع • ص ٣١٠ •

(٢١) جمال حمدان : المرجع السابق • ص ١١٠ •

٢ ـ الموضـــع :

تخير المسلمون مواضع مدنهم كي تحقق الدافع الى انشاء هذه المدن ولهذا كان العامل الحربى أكثر العوامل تأثيرا على مواضع المدن ، فقد راعى عمرو بن العاص فى اختياره موضع الفسطاط أن يجعلها فى مأمن من هجمات العدو اذ كان المقطم يحدها من جهة الشرق ويوفر لها الحماية من هذا الجانب كما يحدها النيل من جهة الغرب كما زاد من القيمة الاستراتيجية للموضع وجود ، جزيرة الروضة الحالية فالى هذه الجزيرة يمكن الالتجاء وقت الخطر ومن ثم يمكن قطع الطريق على الاعداء القادمين عن طريق النهر ٠ ولم يخف على المسلمين حين اختاروا المكان وفرة احجار البناء فى المقطم ، وارتفاع الموضع الذى بنيت عليه فوق مستوى فيضان النيل ، مما يوفر الحماية من اخطار الفيضان ويجعل تربتها جافة صالحة لدفن الموتى ٠ كما أن وقوع المدينة على مقربة من المزروع من الارض مما يسهل وصول المؤن والاقوات اليها وتحقق كل هذه المزايا لذلك الموضع قيمته الحربية ٠

ويظهر اهتمام المسلمين بتخير المواضع الملائمة عند انشائهم للمدن من اكتشافهم لعدم صلاحية موضع البصرة كمدينة تتجمع فيها جنود المسلمين وتدير شئون الحكم فى فارس وذلك بسبب كثرة ما يحيط بها من مستنقعات مما جعل العرب ينقلون مقر حكومتهم فى فارس الى الكوفة بعد سنة واحدة من تأسيس البصرة بل اتخذ على بن أبى طالب الكوفة مقرا للخلافة الاسلامية بدلا من المدينة المنورة أثناء خلافته وذلك لتمتع الاخيرة بموضع جيد فضلا عن قيمة موقعها المتمثل فى عدم وجود الفاصل المائى بينها وبين مقر الخلافة الاسلامية فى المدينة ، هذا الى جانب توسطها الدولة الاسلامية ٠

وقد بلغ من اهتمام المسلمين بمواضع مدنهم أن الخليفة العباسى المنصور حينما شرع فى بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ اهتم أولا بالبحث عن موضع ملائم لانشاء هذه العاصمة الجديدة فبعث رجالا يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك ، فدلوه على موضع قريب من نارما(٢٢) فى جنوبى الموصل وفى هذا

---

(٢٢) موقع بين الموصل وتكريت الى الشرق من نهر دجلة (معجم البلدان لياقوت الحموى مج ١ ٠ ص ٣٢٠) ٠

الموضع أقام المنصور يوما وليلة فى فصل الصيف لتكوين رأى نهائى عنه فأعجب به(٢٣) • حقيقة أنه لم يتخذ هذا الموضع لبناء المدينة ، ولكن ذلك يوضح مدى اهتمام المسلمين باختيار المواضع الملائمة من الجوانب المختلفة •

بقى أن نشير الى أن كثيرا من المواضع فى الدولة الاسلامية كان لها قداستها مما أدى الى اختيارها كي تقوم فيها مدن ذات قداسة تؤدى الوظيفة الدينية ومن أمثلتها مكة المكرمة التى قامت فى موضع بواد غير ذى زرع ويرجع ازدهار هذه المدينة الى قيمة الموضع •كما كان لقداسة بعض المواضع ولاهميتها التاريخية دورا بارزا فى النمو العمرانى لكثير من المدن التى أصبحت تؤدى وظيفة دينية ومن هذه المدن النجف وكربلاء فى العراق وطنطا فى مصر كما قامت بعضها فى مواضع حصينة ينطلقون منها للغزو والجهاد مثل زوايا السنوسية فى الجغبوب وسيوه والكفرة ومثل الرباط فى المغرب التى كان يرابط فيها الشيوخ المجاهدون (المرابطون) كما قامت مدينة تازة فى وادى نهر سيبوع عند ممر جبلى ضيق لا يتجاوز اتساعه الميل وهى منطقة حصينة أيضا •

٣ ـ حجم المدينة :

لا تتوافر احصاءات دقيقة عن عدد سكان المدن أو مساحتها أو عدد ما بها من مرافق ولكن ما ورد من احصاءات فى كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين أرقام جزافية لا تخلو من المبالغة ، ولكن ما ذكر من أرقام يعبر عن الانطباعات التى تتركها أحجام المدن وما بها من مبانى ومرافق ، فى نفس الرحالة والكاتب عند زيارة هذه المدن • ولو أنه بالرغم من عدم الدقة فى تلك الارقام الا أننا يمكن الاسترشاد بها لمعرفة أحجام المدن ومدى ازدهارها•

وكثيرا ما وصف حجم المدينة دون الاشارة الى أية احصاءات فنجد الاصطخرى مثلا عند وصفه لبعض المدن المغربية يقول « فأما برقة فانها مدينة وسطة ليست بكبيرة •• وأما المهدية فانها مدينة صغيرة استحدثها عبدالله••

---

(٢٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ـ جـ ٩ ص ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ •

وتونس مدينة كبيرة خصبة واسعة المياه والزروع ... وطبرقة مدينة صغيرة وبيه وبيها عقارب قاتلة»(٢٤) .

كما نرى المقدسي عند وصفه لمدن العراق يقول « الكوفة قصبة جليلة خفيفة حسنة البناء جليلة الاسواق كثيرة الخيرات ... البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر ... واسط قصبة عظيمة ذات جانبيين وجامعين وجسر بينهما كثيرة الخير .. وحلوان قصبة صغيرة سهلية جبلية يحيط بها بساتين وأعناب وتين قريبة من الجبال »(٢٥) .

ويظهر من الاحصاءات التي وردت في كتابات جغرافي القرنين الثالث والرابع والتي اهتموا فيها بذكر عدد المرافق دون عدد السكان أن المدينة الاسلامية تميزت بالضخامة اذا قورنت بمدن العالم في تلك الفترة . فقد قدر الخطيب البغدادي عدد سكان بغداد في القرن الثالث اعتمادا على عدد الحمامات والتي قيل أنها ستون ألف حمام ، فقد قدر أن كل حمام يخصه خمسة مساكن وكل مسكن يسكنه خمسة أشخاص في المتوسط وذلك يعني أن عدد سكان بغداد بلغ مليون ونصف مليون نسمة(٢٦) . ولو صح هذا لكانت بغداد « عاصمة العالم » في حينها ، بل لكانت مدينة سبقت عصرها لان التاريخ لم يسجل مدينة مليونية قبل الفترة الحديثة(٢٧) .

كما ذكر آدم متز نقلا عن ابي عذاري المراكشي أن قرطبة في سنة ٣٥٠هـ كان بها مائة وثلاثة عشر ألف دار وأن بها ثلاثة آلاف مسجد . واذا ما أخذنا بما قدره الخطيب البغدادي بشأن بغداد وهو أن كل مسكن يضم خمسة أشخاص فيكون عدد سكان قرطبة في القرن الرابع يزيد على نصف مليون نسمة(٢٨ .

---

(٢٤) الاصطخري : مسالك الممالك . ص ٣٨ .

(٢٥) المقدسي : المرجع السابق ص ص (١١٦ ـ ١٢٣) .

(٢٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . الترجمة العربية . محمد عبد الهادي أبو ريدة . ص ٢٧٢ .

(٢٧) جمال حمدان : المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٢٨) آدم متز : المرجع السابق . ص ٢٧٢ .

أما مدينة البصرة ، وهى أول مدينة بنيت فى الاسلام فيقال ان عدد سكانها بعد نصف قرن من انشائها قد بلغ ما يقرب من ثلاثمائة ألف نسمة ، وكانت حاضرة العالم الاسلامى التجارية خلال تلك الفترة(٢٩) .

والقاهرة التى ظلت حتى أواخر عهد الدولة الفاطمية لا يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة ، قد ازداد حجمها فى عهد الدولة الايوبية فوصل عدد سكانها الى ١٥٠ ألف نسمة ولم يحل القرن الثالث عشرالميلادى حتى كانت القاهرة قد وصل عدد سكانها الى نصف مليون نسمة(٣٠) .

ومدينة فاس التى أسست فى سنة ٨٠٦ م لم يمض ثلاثة قرون حتى أصبح عدد سكانها نحو أربعمائة ألف نسمة(٣١) .

وفى نفس الفترة وصل الحجم السكانى لمدينة دمشق ما يتراوح بين ٣٠٠٫٠٠٠ ـ ٤٠٠٫٠٠٠ . ومن الامثلة المتقدمة لاحجام المدن الاسلامية سواء الجديد منها أو ما جدد فى الاسلام يظهر أن هناك عددا كبيرا من المدن الاسلامية جاوز بعضها المليون نسمة ووصل عدد منها الى النصف مليون أو يزيد . ويدل ذلك على ضخامة المدينة الاسلامية وخاصة اذا قارناها بمدينة باريس فى نفس الفترة اذ لم يصل عدد سكانها الى ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة الا فى القرن الرابع عشر الميلادى(٣٢) . واذا قورنت بمدن ايطاليا التى بلغ عدد سكان أكبر مدنها فى بداية القرن الحالى(١٩٠١) وهى مدينة نابلى نحو ستمائة ألف نسمة ، ولم يكن هناك سوى مدينتين فقط يزيد عدد سكانهما فى تلك السنة على نصف مليون نسمة وهما نابلى وميلانو(٣٣) .

---

(٢٩) أنور الرفاعى : المرجع السابق . ص ٣٤٥ .
(٣٠) عبد الفتاح وهيبه : (١٩٧٣) ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .
(٣١) Fitzgerald, W. (1955) P. 410 .
(٣٢) محمد . ا. سناسير (١٩٧٨) ص ٤ .
(٣٣) محمد السيد غلاب ، محمد صبحى عبد الحكيم : (١٩٧٤) ص ٥٧٧ .

٤ ـ عناصر المدينة الاسلامية :

(أ) المباني والشوارع

تطورت المباني في المدينة الاسلامية مع مراحل التطور التى شهدتها الدولة الاسلامية ففى أول الامر كان المجتمع الاسلامى الجديد يمنع المغالاة والاسراف في المبانى والتطاول فيها ، فعمر بن الخطاب ينصح بعدم المطاولة فى البناء في الامصار(٣٤) • وكانت مساكن الخلفاء الراشدين مجردحجرات قليلة لا تختلف عن سائر مساكن المسلمين الا بما فيها من دواوين • ولقد كانت مبانى المدينة الاسلامية فى الاقطار المفتوحة تشيد من الحجر أو الاجر ، ولو أن بعض المدن كانت عند انشائها متواضعة فى مواد بنائها • فلقد شيدت البصرة فى أول الامر من الغاب والخيام ، وكانت اشبه بالقرية منها بالمدينة ، ثم بنيت باللبن حينما وجد أن الغاب لا يقاوم النيران ، ثم بنيت بالحجر حينما ازدادت ثروتهم(٣٥) • أما فى البادية فكانت المساكن من الوبر ، ولذلك سمى البدو بأهل الوبر ، وسمى الحضر « الحجر » • وهو تعبيرء ن مادة البناء المستخدمة فى كل منهما •

وفى عهد بنى أمية ظهر ميل الولاة لاقامة المبانى الشامخة ، ففى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ٩٦هـ) (٧٠٥ـ٧١١٥ م) بنيت الكثير من المبانى الفخمة مما كان لها أثرها على تطور المدينة الاسلامية ، ولقد ازداد اهتمام الولاة بانشاء المبانى الضخمة فى تلك المدن التى انشئت لتكون مقرا لهم ، فظهرت العمائر الضخمة ، ويذكر الرحالة ناصر خسرو أن احدى العمائر فى القاهرة تسع خمسين وثلاثمائة ساكن ، وانه رأى بيوتا مكونة من أربعة عشر طابقا(٣٦) • وغالبية مساكن القاهرة تتراوح بين خمسة وستة طوابق •

وكان ارتفاع المبانى وتعدد الطوابق فى مدينة القاهرة يعطى انطباعا

---

(٣٤) عبد المنعم ماجد : (١٩٧٣) • ص ٩٣ •

(٣٥) على ابراهيم حسن : المرجع السابق • ص ٢٣٨ •

(٣٦) ناصر خسرور : سفرنامه • الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب • (١٩٤٥) • ص ٤٨ •

بأن مباني المدينة متقاربة وشوارعها ضيقة ومظلمة · ويروى ناصر خسرو أن شوارع القاهرة كانت توقد فيها القناديل لان ضوء الشمس لا يصل الى أرضها · وتتكرر هذه الصورة في معظم المدن الاسلامية التى تحتفظ بطابعها الاسلامى فى الوقت الحاضر · ففى فاس التى تبدو بشوارعها الملتوية التى تصطف على جوانبها دكاكين الحرفيين وتظلل كثير من الشوارع بالبوص المجدول(٣٧) · ويستدل من قدرتهم على تسقيف الشوارع بالبوص على أنها كانت ضيقة ، ويزيد ذلك السقف من ظلمتها · ولا يخفى علينا مـــا ينبعث من هذه الشوارع من روائح تختلف باختلاف السلع التى تباع فى محلاتها المتراصة على الجانبين · فأحياء القاهرة القديمة تتميز بروائحمميزة، ففى شوارع الغورية الضيقة تنبعث روائح التوابل التى تملأ جو المكان · كما أننا نجد بعض المدن الاسلامية التى حاكت فى تخطيطها التخطيط الاغريقى والرومانى ذات شوارع متسعة فمدينة سامراء يبلغ اتساع الشارع الاعظم فيها ما يزيد على مائتى ذراع(٣٨) ·

(ب) الاسوار والقلاع :

لقد أثرت العوامل المختلفة التى كانت وراء قيام المدن الاسلامية فى عناصر المينة الاسلامية وتخطيطها وقد جعل العامل الحربى السور من أهم عناصر المدينة · وقد أشرنا من قبل الى أن نشر الاسلام اقتضى قيام نقط ارتكاز يتجمع فيها الجند وتنزل فيها الجاليات العربية الفاتحة ولكى يتحقق هذا الهدف لزم أن تكون المدينة الاسلامية محصنة يسهل الدفاع عنها والانطلاق منها · فأحيطت بالاسوار المزودة بالبوابات الضخمة ، وقد تصل الرغبة فى زيادة تحصنها الى حد انشاء أكثر من سور فقد تحاط بسورينأو ثلاثة(٣٩)، وتزود الاسوار بالابراج والشرفات والقلاع ، كما كانت تحفر حولها الخنادق فى كثير من الاحوال · ولقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك حينما حصن المدينة لحمايتها من مشركى قريش · كما تدفع الرغبة فى

---

(٣٧) يوسف ابيش : الحفاظ على مدينة فاس · (١٩٧٨) ص ١١ ·

(٣٨) آدم متز : المرجع السابق ص ٢٧٤ ، أنور الرفاعى : المرجع السابق ص ٣٥٢ ·

(٣٩) ناصر خسرو : المرجع السابق · ص ٤ ، ص ٨ ·

زيادة منعه المدن الى ملء هذه الخنادق بماء البحر فى وقت الضرورة(٤٠) ٠ ومن المدن الاسلامية المسورة وهى كثيرة الفسطاط ، العسكر ، والقطائع ، ثم القاهرة ، وبغداد ، والقيروان ، والمهدية والرقة ، والرصافة ، وسامراء ، وفاس ، والرباط ٠٠٠ وكثير غيرها ٠ وكما هو الحال فى مدن فارس ، فقد كانت المدينة الفارسية تتألف من قلعة (قهندز) تشرف على المدينة ويحيط بها سور ٠ ويظهر ذلك من وصف الاصطخرى مدن رفارس اذ يذكر أن فيها ما يزيد على خمسة آلاف قلعة ، وبلغ من كثرة المدن المحصنة أنه لا يستطيع حصرها الا بالرجوع الى الدواوين ٠ وفى ذلك يقول « وأما القلاع فانه فيما بلغنى أن لفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة مفردة ، فى الجبال ، وبقرب المدن وفى المدن ولا يتهيأ تقصيها الا من الدواوين ، وكذلك ماذكرناه من المدن المحصنة فانى لا أقدر على تقصيها وانما أذكر جوامع ما أعرفه من ذلك » وفى وصفه لمدينة اصطخر وبعض المدن المجاورة يقول « اصطخر بها حصن حواليه ربض ، ومدينة كثة بها حصن وربض ٠٠٠ والسر مق بها حصن وربض وقهندز »(٤١) ٠

ومن أمثلة المدن الاسلامية المحصنة مدينة بغداد التى بلغ قطرها عند انشائها ثلاثة آلاف متر كان يحيط بها سوران ، أما الداخلى منهما فيتكون من حائطين سميكين وأما الخارجى فيبلغ ارتفاعه ١٧٫٥ مترا ، وسمكه عند قاعدته ١١٫٥ مترا ٠ وحوله من الخارج خندق عميق (٤٢) ٠ وقد قسمت المدينة الى أربعة أقسام متساوية ، ولها أربعة أبواب هى :

باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام ٠

كذلك كانت مدينة الفسطاط محاطة بسور ، كما احيطت العسكر والقطائع ثم القاهرة بالاسوار ، وربما اعتبر خليج أمير المؤمنين (خليج القاهرة) الذى أحاط بالمدينة من جهة الغرب يمثل الخندق الذى يحيط بالسور ، بل ذهب البعض الى أن تسميتها فسطاطا مأخوذة عن الكلمة

---

(٤٠) ابن شاهين : زبده كشف الممالك (١٨٩٤) ٠ ص ٣٩ ٠

(٤١) الاصطخرى ٠ المرجع السابق ٠ ص ١١٦ ٠

(٤٢) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ٠ ص ، ص ٩٣ ـ ٩٦ ٠

اللاتينية فساتون Fassaton ، ومعناها ماهو محاط بخندق(٤٣) ٠

بل زاد من رغبتهم فى تحصين المدينة أن كان لشوارع القاهرة ودروبها بوابات تغلق ليلا ولها حراس ٠ ولا تسمح السلطات الحاكمة للاجانب بدخول المدينة الا بعد الحصول على اذن خاص يذكرون فيه هويتهم وسبب حضورهم(٤٤) ٠

وبلغ من أهمية السور أن كان أول ما بنى ادريس الثانى عندما انشأ مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ السور الحجرى ٠ حقيقة لم يكن العامل الحربى وراء انشاء هذا السور ، ولكنه ارادها أيضا مدينة محصنة تضم أشياعه ومريديه خاصة وانه جاء هاربا بعد هزيمته فى موقعة «فخ » أمام الخليفة الهادى حيث أثبت والده قرابته من الرسول ، وحقه فى الخلافة فبايعه البربر والتفوا حوله(٤٥) وانشاء السور هنا ربما كان بتأثير العامل النفسى، ولقد حصنت المدينة بعد ذلك فى القرن السابع الهجرى سنة ٦٧٥ هـ ٠ وبناء القلاع والحصون ٠

ومع أن السور كان أهم عناصر المدينة الاسلامية فى فترات الفتوح الاسلامية ، ولكنه بعد أن ثبتت الدولة الاسلامية أركانها وحلت فترات الاستقرار السياسى أرجاء الدولة الاسلامية ، لم يعد السور من بين العناصر الرئيسية للمدينة ٠ ففى الوقت الذى شرع المعتصم فى تخطيط حاضرته (سر من رأى) سامراء سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦م) اهتم بسائر عناصر المدينة ولكنه لم يؤكد على بناء الاسوار بسبب استقرار الدولة وثبوت أركانها(٤٦) ٠

ثم ازداد اهتمام المسلمين ببناء الاسوار والابنية الحربية حينما أحدقت الاخطار بالعالم الاسلامى خلال القرنين التاسع والعاشر أثناء حروبهم مع

---

(٤٣) انور الرفاعى : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٦ ٠
(٤٤) نعيم زكى : المرجع السابق ٠ ص ١٢٨ ٠ حاشية رقم ١٩ ٠
(٤٥) على ابراهيم حسن : المرجع السابق ٠ ص ، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ ٠
(٤٦) انور الرفاعى : المرجع السابق ٣٥٢ ٠

البيزنطيين ، ثم خلال فترات الحملات الصليبية ، ثم أثناء موجات المغول والتتار • ولقد اقتبس الصليبيون الكثير من أساليب التحصن كالمشربيات وهى البروز المغطى فى سور القلعة لرمى المهاجمين •وكان أكثر سلاطين المسلمين اهتماما ببناء الاسوار والقلاع سلاطين المماليك خلال الفترة (ق ١٣ـ ق ١٦) • ومن المدن التى حصنت فى هذه الفترة بالخنادق والاسوار والقلاع مدينة حلب التى جددت أسوارها خلال القرون(١٤ ، ١٥ ، ١٦) • كما حصن صلاح الدين القاهرة بقلعة الجبل ، كما حصن المرابطون مدينة مراكش ببناء قلعة سور الحجر سنة ١٠٦٢ م • كما الحقت بالمدينة الاسلامية الرباطات وهى نوع من المبانى العسكرية والدينية ، ولقد انشئت بكثرة فى شمالى افريقيا لصد محاولات الغزو البحرى الاوربى ، وأكثر الرباطات كان فى تونس ومنها رباط مدينة سوسة الذى انشأه الاغالبة سنة٨٢١م ويشتغل المرابطون بحراسة الثغور من منارة الرباط حيث يراقبون قدوم اسطول العدو • ويعمل بقية سكان الرباط فى الاعمال اليومية حيث يؤمنون الطعام والشراب والسلاح للمقاتلين(٤٧) •

ج ـ المسجد :

كانت المدينة الاسلامية فى نشأتها متأثرة بالطابع الدينى لمدينة النبى صلى الله عليه وسلم • ويعد المسجد أهم عناصر المدينة بل هو النواة التى تقوم المدينة من حوله ، ويرجع ذلك الى الدور الضخم الذى يضطلع بــه المسجد ، فهو مكان العبادة ، ومعروف ان شعائر الاسلام تقام فى جماعة • ولقد كان المسجد فى أول الامر مكانا تناقش فيه كل أمور المسلمين ، فهو ندوة للنقاش السياسى ومجلس للقضاء ، كما قام أيضا بدور المدرسة ، ولهذا أصبح المسجد يعرف بالجامع • وأول مدينة كان المسجد يمثل نواتها هى المدينة المنورة حيث كان المسلمون قبل الهجرة يصلون فى شعاب مكة ، أو فى جانب للكعبة(٤٨) • ولهذا لم يكن فى أول الامر فى المدينة الاسلامية سوى مسجد كبير واحد تقام فيه الجماعة ويسمى بالمسجد الجامع ، فلم يكن فى المدينة أو البصرة أو الكوفة أو بغداد أو الفسطاط عند نشأتها غير

---

(٤٧) نفس المرجع : ص ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ •

(٤٨) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ، ص (٩٣ ـ ٩٦) •

مسجد جامع واحد ٠

ولقد كانَ بمدينة بغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ ما يقرب من سبعة وعشرين ألف مسجد ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام الا فى المسجد الجامع فى كل من جانبى بغداد ، وكان بالفسطاط مسجدان للجمعة ٠ أما البصرة فكان بها فى القرن الثالث للهجرة سبعة آلاف مسجد وكان بها ثلاثة جوامع ٠

ومنذ القرن الرابع الهجرى بدأ أولو الامر فى جعل عدد المساجد متمشيا مع حاجات الناس ومطالبهم(٤٨) ٠ وأيا كان مدى الثقة فى هذه الارقام الخاصة باعداد المساجد الا أنها توضح أن المسجد كان أحد العناصرالرئيسية بل أهم العناصر فى المدينة الاسلامية ٠

واذا تتبعنا نشأة المدن الاسلامية لوجدناها جميعا نشأت من حول المسجد الجامع ٠ فمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام يتوسطها المسجد الذى يعدا أهم معالم المدينة ونواتها ٠ وكذلك الحرم المكى يتوسط مكة وهو نواتها وقلبها النابض ، بل قلب العالم الاسلامى كله ٠ وعندما أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط أقام فى وسطها المسجد الجامع ، وهو ما عرف باسم جامع عمرو أقدم جوامع مصر الاسلامية ٠ فقد بدأ انشاءالمدينة سنة ٢٠ هـ ، وانتهى من بناء المسجد سنة ٢١ هـ ، ويدل ذلك على أنالمسجد من أقدم المنشآت فى المدينة ، وبلغ من اهتمام عقبة بن نافع بالمسجد الجامع عند انشائه لمدينة القيروان الذى فاق اهتمامه به كل أحياء المدينة حتى قيل « لم يبن عقبة مدينة لها جامع بل بنى جامعا له مدينة » ، وقصده عقبة أن يكون الجامع قيروانا تؤدى فيه كثير من الوظائف(٥٠) ٠ وكذلك الحال فى مدينة البصرة أول مدينة بنيت فى العصر الاسلامى سنة ١٦ هـ ٠ كان أول بناء اقامة فيها عتبة بن غزوان هو المسجد الجامع ثم دار الامارة(٥١) ٠

وما يقال عن الفسطاط والبصرة ينسحب على كل المدن الاسلامية بدون

---

(٤٩) آدم متز : المرجع السابق ٠ ص ، ص (٢٦٩ ــ ٢٧٠) ٠

(٥٠) انور الرفاعى : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٨ ٠

(٥١) نفس المرجع : ص ٣٤٥ ٠

استثناء حتى المدن التى كانت فى البلاد التى فتحها المسلمون ، حينما ولى المسلمون أمرها كان أول المعالم التى حرص المسلمون على وجودها المسجد· فمدينة قرطبة التى كانت عاصمة للاندلس فى زمن القوط وهى من أقدم مدن شبه جزيرة ايبريا ان لم تكن أقدمها حينما اتخذها موسى بن نصير قاعدة له ثم اتخذها عبد الرحمن الداخل مقرا للدولة الاموية الاندلسية · وقد أقام فيها عبدالرحمن الداخل الكثير من المساجد التى بلغ عددها ما يقرب من ثلاثةآلاف · ويعد المسجد الجامع الذى بناه فيها من النماذج البديعة لما وصل اليه الفن العربى · وقد حول جامع قرطبة فيما بعد الى كنيسة سميت « الجامع الكتدرائية » (لاميثكيتا كاتيدرال) (٢٥) وهى أغرب تسمية لكنيسة فى العالم ·

د ـ الخانقاة :

كان فى عهد الدولة الاسلامية العديد من الخنقاوات ، وقد وجدت فى مدن ايران ، وفى بيت المقس ، وفى الفسطاط · ويذكر المقدسى انه كان بالمغرب سبعمائة خانقاة(٥٣) · وكان للصوفية فى خنقاواتهم مجالس ذكر· وقد سبق انشاء الخنقاوات قيام المتصوفة على الذكر فى بيوت صغيرة مخصصة لذلك تقام فى ظاهر المدن · وقد كانت توجد أيضا فى الرباطات التى استخدمت فى أغراض حربية(٥٤) ·

هـ ـ دار الامارة (قصر الامارة) :

من المعالم الهامة التى صاحبت انشاء المدن الاسلامية انشاء دارللامارة، وكانت تواجه المسجد · ويحيط بها وبالمسجد مساكن الجند فى كثير من الاحيان · وقد عرفت هذه المساكن باسم القطائع أو الحارات أو الخطط · وكان الهدف من احاطة مساكن الجند لدار الامارة تأمين حكام المسلمين وتحقيق الاستقرار لحكمهم · ولقد تدرجت دار الامارة من البساطة فى أول الامر الى الفخامة خصوصا حينما تعددت دول الاسلام وتنافس الحكام فى البناء ،

---

(٥٢) انور الرفاعى : المرجع السابق · ص ٣٦١ ·

(٥٣) المقدسى : المرجع السابق · ص ٣٨ ·

(٥٤) نفس المرجع · ص ٢٠٢ ·

وأصبح يعرف من دون المباني الاخرى باسماء تدل عليه وتميزه · ففي قاهرة الفاطميين عرفت قصورهم بالقصور الزاهرة ، وأشهرها القصر الكبيرالشرقي، والقصر الصغير الغربى ، وقصر الذهب ، وقصر الشجرة ، وقصر الحريم ، وفى بغداد العباسيين عرف من قصورها : قصر الذهب ، المسمى بالقبة الخضراء ، وقصر الخلد · وفى قرطبة الاموية قصر الزهراء وفى غرناطة قصر الحمراء(٥٥) ·

وعند بناء سعد بن أبى وقاص لمدينة الكوفة بنى منزله مواجها للمسجد واتخذ فيه بيت المال وتحول الى قصر الامارة · وقد شيد هذا القصر من الاجر المحكم التشكيل والجص(٥٦)· كما أن بغداد كان يتوسطها الجامع وقصر الخليفة ثم دار حرسه ومنازل أولاده ومن يقومون على خدمتهم(٥٧) · وتتكرر هذه الصورة فى كل من القيروان ودمشق والقاهرة المعزية ، ثم فى قرطبة حيث كان الجامع يطل على نهر الوادى الكبير ويواجهه قصر الامارة الذى تحول الى القصر الاسقفى بعد تحول المسجد الى كنيسة ·

أما مدينة سامراء التى انشئت كمعسكر لقواد المعتصم الاتراك فلم يكن لها من خصائص المدينة الاسلامية الا القليل · ولو أنها فى عهد المتوكل بنى فيها المسجد الجامع الذى بلغت مساحة صحنه الداخلى ٤٤ ألف مترمربع ، كما بنى فيها دار الخلافة ودار العامة ، واتخذت طابع المدينة الاسلامية · كما بنى فيها العديد من القصور منها قصر الجوسق · كما ضمت بعض المنشآت منها حلبات ثلاث للسباق وحديقة للحيوان ·

وقد ألحقت بالقصور الحدائق التىتفنن المسلمون فى زراعتها والتى أصبحت نمطا معروفا من الحدائق سميت بالحديقة الاسلامية ، والتى كانت تتميز بزروعها ، والمعتقد أن الحديقة الاسلامية تأثرت بحدائق الشعوب المفتوحة من المصريين والفرس ومن الحدائق التى بقيت الى الان جنة العريف

---

(٥٥) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق · ص ١٠١ ·

(٥٦) انور الرفاعى : المرجع السابق · ص٣٥٠ ·

(٥٧) على ابراهيم حسن : المرجع السابق · ص ٣٠٧ ·

الملحقة بقصر الحمراء بالاندلس والتى نسقت على شكل مدرجات(٥٨) ٠

و ـ السـوق :

ولوقوع المسجد فى وسط المدينة غالبا احيطت به الاسواق التى تحتاج اليها المدينة ومن المعروف أن المسجد لعب دورا هاما فى ايواء المسافرين الى جانب الفنادق ومن المصطلحات التى نطالعها فيما كتب عن أسواق المدن الاسلامية الفندق والخانة والرباع ، والوكالة ، والقيسارية ، وكانت الفنادق تعنى مكان التجار الاجانب وتتكون من غرف متعددة وصحن مكشوف ومخازن وهذه كانت واسعة الانتشار فى المدن المصرية ٠ أما الخانات فهى ساحات واسعة ٠ واما القيسارية فلعل اسمها محرف عن الكلمة اللاتينية Caesarea التى كان الرومان يقيمونها فى مدنهم كمستودع للبضائع وكانت القيساريات كثيرة فى مصر ٠ ولا تزال هناك أماكن الاسواق المسقوفة فى كثير من المدن المصرية ، ويطلق عليها القيساريات ، وعادة ماتحيط بالمسجد ٠ وقد كانت معظم الاسواق مبلطة أو يبنى على جانبيها افريزان يمشى عليهما الناس فى زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا(٥٩) ٠ ويصف المقريزى هذه الاسواق بأنها مغطاة بالسقائف وبعضها يضاء ليلا ونهارا بالقناديل لان الضوء لا يصل الى داخلها ٠

ولقد كان بالقاهرة أسواق متخصصة ٠ كسوق العطارين ، النحاسين وغيرها ، وبالاسواق وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحـــرير والاحجار الكريمة ٠ ولكل طائفة وكالة ٠ كما كان للاجانب من التجار وكالات منها : وكالات الاتراك ، واليمنيين ، والفرس ، والمغاربة ، والهنود ، ولقد كان بالمدينة اسواق فرعية تسد احتياجات السكان اليومية (٦٠) ٠

وقد اعتاد المسلمون خلال العصور الوسطى ان يسكنوا فى أماكن عملهم مما أدى الى خلق نظام الطوائف الحرفية ٠ فحول الاسواق امتدت الازقة

---

(٥٨) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ٠ ص ٣٥٠ ٠

(٥٩) ناصر خسرو : المرجع السابق ٠ ص ٥٨ ٠

(٦٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : (١٩٥٧) ص ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ٠

والشوارع التى تصطف على جانبيها دكاكين ذات واجهة مفتوحة تضم طوائف الصناع الذين يمارسون شتى الحرف كالنسيج ، والحفر والطرق على النحاس ٠ والمنطقة التى يتوسطها المسجد وما يحوطه من طوائف حرفية هى أكثر اجزاء المدينة حركة ونشاطا وتماثل حى الاعمال المركزى فى المدن الحديثة ٠ ولقد كان لهذه الطوائف أثرها فى اعطاء المدينة الاسلامية طابعا مميزا ٠ كما كان تأثيرها على ادارة المدن ونظامها الاجتماعى ، حيث ظهرت شخصية المحتسب الذى الذى كان رمزا لسلطة البلدية ، وكان مستندا الى القاعدة الدينية « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » فلقد كان يراقب الاسعار ، ويفتش على الموازين والمكاييل ويراقب المخابز والمصانع والحمامات العامة ، وكان هذا النظام معروفا فى أسواق القاهرة وفاس وبغداد وغيرها من المدن الاسلامية ٠ كما كانت الطوائف الحرفية تخضع لنظام اجتماعى وفكرى ذى صلة وثيقة بالطرق الصوفية ٠ ولم يكن فى المدينة الاسلامية ثمة فاصل بين النشاط الدينى والنشاط الدنيوى(٦١) ٠

٧ ـ الحمامات العامة :

من عناصر المدينة الاسلامية الهامة الحمامات العامة ٠ وليست الحمامات من ابتكار المسلمين ولكنها أخذت عن الشعوب التى سبقتهم ٠ فلقد كانت الاسكندرية البطلمية تحتوى على آلاف الحمامات العامة عندما فتحهاالعرب، وكل ما حدث بعد الفتح الاسلامى أن أخذ الحمام الطابع الاسلامى ، فأزيلت منه الصور والتماثيل ٠ ولقد عرفت آداب اشبه ما تكون بتلك التى تتبع عند ارتياد حمامات السباحة فى الوقت الحاضر فهناك آداب معينة فى دخول الحمام ، كما يمنع دخول ذوى الامراض المعدية كالمجذوم والابرض ٠

وقد كثرت الحمامات العامة خلال العصر الاسلامى ، فلقد بلغ عددها فى الجانب الشرقى من بغداد خمسة آلاف حمام(٦٣) ، وفى قسمى بغداد بلغ عددها فى القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف كما وجد بالفسطاط ألف

---

(٦١) يوسف ابيس : المرجع السابق ص ، ص ١٩ ١٠ ، آدم متز : المرجع السابق ص٢٨٠ ٠

(٦٢) على ابراهيم حسن : المرجع السابق ٠ ص ٣٦٠ ٠

(٦٣) عبد المنعمماجد : المرجع السابق ٠ ص ١٧٠ ٠

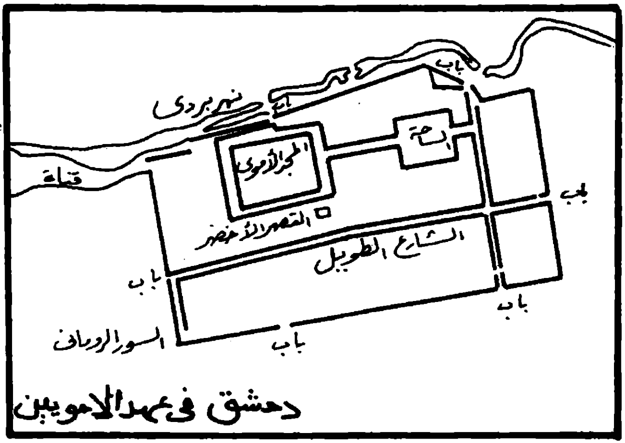
ومائة وسبعون حماما • ويذكر انه كان فى قرطبة فى الاندلس ثلاثمائة حمام(٦٣) • ومهما كان فى هذه الارقام من مبالغة الا أنها تشير الى أن الحمام كان من المرافق الهامة التى اشتملت عليها المدينة الاسلامية •

٤ ـ تخطيط المدينة الاسلامية :

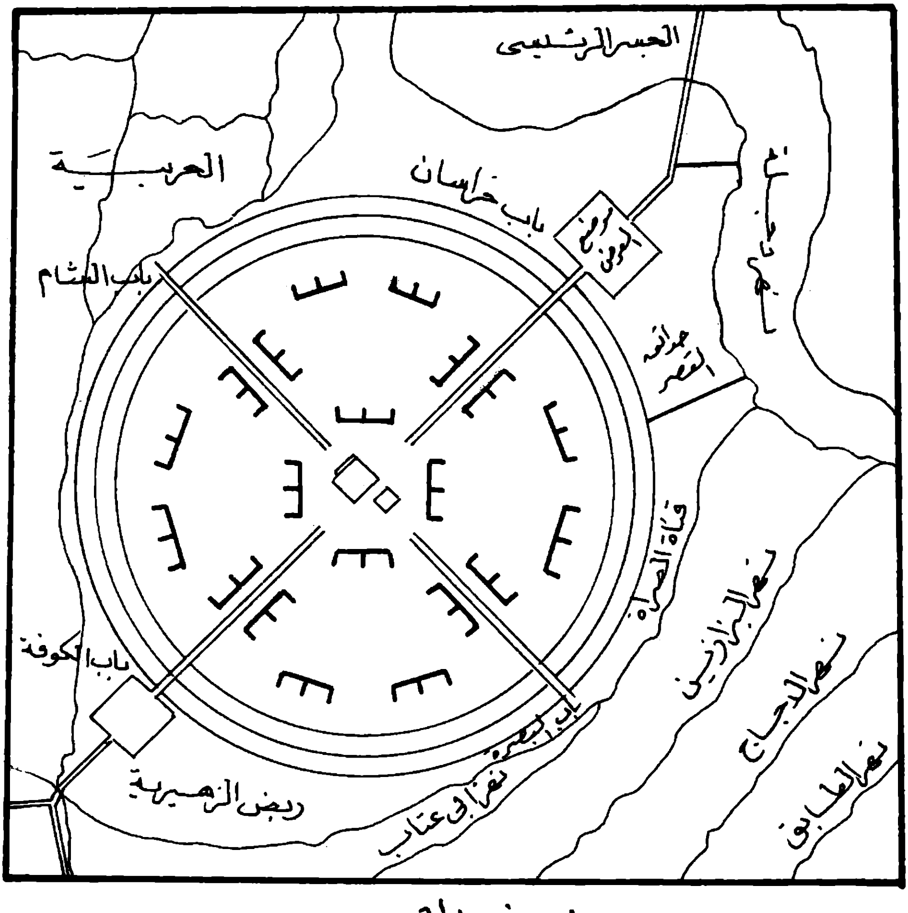
من تتبع الخطط التى انشئت عليها المدن الاسلامية نلحظ ما ياتى :

١ ـ أن المدن القديمة التى أحياها العرب وعملوا على ازدهارها احتفظت بسابق خطتها فلقد احتفظت كل من الاسكندرية ودمشق وقرطبة وغرناطة بخططها الشبكة وبتأمل خريطة دمشق رقم (٤) بعد انتقالها الى الحكم الاسلامى نجدها وقد احاط بها السور الرومانى الذى يضم ستة أبواب ، ويخترق المدينة شارعان رئيسيان يتقاطعان وينتهى كل من الشارعين الى بابين فى سور المدينة ، ويتوسط المدينة المسجد الاموى الذى يقابله القصر الاخضر• وكذلك مدينة الاسكندرية التى كانت شوارعها تتقاطع بزوايا قوائم ولم يغير دخولها تحت الحكم الاسلامى من هذا التخطيط وكان الشارعان الرئيسيان فى الاسكندرية كانوب الذى يصل بين باب الشمس فى الشرق وباب القمر فى الغرب وشارع السوما الذى يتقاطع مع شارع كانوب • ويمثل التقاء الشارعين الميدان العام • ولقد كان التغيير الذى طرأ على الاسكندرية بعد الفتح الاسلامى ظهور المسحة الاسلامية على المدينة فقد بنيت بها العديد من المساجد والزوايا •

أما سامراء فهى نموذج للمدينة التى اسست خلال الدولة الاسلامية• وقد انشئت لتكون مقرا للجنود الاتراك وقد شيدت على صفة نهر دجلة الشرقية ، وامتدت زهاء عشرين كيلومترا متخذة الشكل الشريطى وكانت شوارعها متوازية تتقاطع بزوايا قوائم ويتوسطها على طول المدينة الشارع الاعظم الذى بلغ عرضه مايزيد على مائتى ذراع • وهى فى ذلك تذكرنا بالتخطيط الاغريقى والرومانى للمدن ولو انهاتحمل السمات الاسلامية اذ كانت تتوسطها دار العامة وبيت الخلافة وقصر الجوسق على نهر دجلة وقصر لؤلؤة كما بنى فيها المسجد الجامع الذى أسلفنا الحديث عنــه كما اشتملت على حلبات للسباق وحديقة للحيوان وهى فى ذلك تشبه المدن الاغريقية والرومانية بمسارحها وحمامات السباحة التى كانت تقام بها •



(خريطة رقم ٤)



بغداد
في عهد المنصور

أما القاهرة فقد شغلت فى أول الامر رقعة مربعة من الارض بلغت مسحتها ٣٥٠ فدانا بنى حولها سور منخفض من اللبن له ثمانية أبواب • ويبدو أن جوهر الصقلي كان يحمل معه خطة ذات طابع اغريقي رومانى وكان أهم معالم هذه الخطة شارع رئيسى يمتد من الشمال الى الجنوب وتتقاطع معه شوارع عرضية متوازية تمتد من الشرق الى الغرب وهى تشبه فى خطتها مدينة سامراء ولقد ظلت القاهرة حتى أواخر الدولة الفاطمية مدينة مخططة قليلة السكان لا يزيد سكانها على ١٠٠ ألف نسمة وباستيلاء صلاح الدين على مقاليد الحكم فى مصر بدأت مرحلة جديدة فى حياة القاهرةفتغيرت خطتها(٦٤) •

٢ ـ من الخطط التى اتبعت فى انشاء المدن الاسلامية الخطة الحلقية الاشعاعية والمتأمل فى تخطيط مدينة بغداد عند انشائها (انظر الخريطة رقم ٥) يلحظ أن المدينة مستديرة الشكل يبلغ قطرها ما يقرب من ثلاثة الآف متر اذا اعتبر السور الخارجى للمدينة حدا لها • وقد قسمت المدينة الى أربعة أقسام متساوية وفى وسطها قصر الخليفة والمسجد ودار حراسه ومنازل أولاده ومن يقوم بخدمتهم وقصور الامراء ورجال الدولة • ومن قلب المدينة حيث المسجد الجامع وقصر الخليفة والدواوين والثكنات تتشعع أربعة شوارع رئيسية يصل أولها الى باب خراسان ومنه الى خارج الاسوار الى موضع تقام فيه العروض ويحيط به الحدائق ، ويمتد الى الجسر الرئيسى عبر نهر دجلة • ويصل ثانيها الى باب الشام حيث توجد فى خارجه بعض المنشآت كالسجن وبعض الرحبات والقصور • أما الشارع الثالث فيصل الى باب الكوفة الى خارج الاسوار حيث يوجد مسجد ودار للحرس وديوان للصدقة واسطبلات وثكنات للهجانة والشارع الرئيسى الرابع يصل من قلب المدينة الى باب البصرة وينتهى خارج الاسوار الى الجسر الجديد حيث يوجد عدد من المساجد والقصور • وبتتبع نمو المدينة نجد أن المبانى امتدت حلقاتها حتى وصلت الى أسوار المدينة فلما ضاقت المدينة بسكانها اقطع المنصور قواده وعماله قطائع وارباضا خارج الاسوار وامتد العمران على الضفة اليمنى حيث شيدت الرصافة التى كانت مقراً لثكنات الجند ثم شيدت الكرخ الى جنوبها • وبامتداد الرصافة على الجانب الايمن للنهر والكرخ فى

---

(٦٤) عبد الفتاح وهيبة : المرجع السابق • ص ٢٦٠ •

الجنوب أصبحت المدينة مجمعا مدنيا متعدد النوى ·

٣ ـ أما المدن الاسلامية التى لا تخضع لتخطيط أو التى ضاعت معالم خطتها مع النمو غير المنتظم العشوائى ·· فمنها مدينة «فاس» التى كانت ولا تزال ذات شوارع ملتوية يحتشد على جانبها اعداد كبيرة من أصحاب الحرف ، كما أن كثيرا من هذه الشوارع التجارية والقيساريات مسقوفة بالبوص المجدول كما سبق ان أشرنا(٦٥) ولا تزال هذه المدينة تحتفظ بطابعها رغم مرور ما يقرب من اثنى عشر قرنا على انشائها بل وتعمل الحكومة المغربية على المحافظة على طابعها الاسلامى التاريخى الى جانب الاخذ بالاساليب الحديثة فى تخطيط المدن(٦٦) ·

ومدينة القاهرة فى عهد صلاح الدين أى منذ سنة ١١٧١م أصبحت مدينة مفتوحة للكافة وازداد عدد سكانها الى نحو ١٥٠ ألف نسمة بعد أن كانت مدينة ملكية خاصة بالوالى وحاشيته وجنده · وكان من اثر ذلك ازدحام المينة وتغير ملامحها وخططها فتحولت البساتين الى حارات وشوارع ومسالك وأزقة · كما بلغت القاهرة غاية ازدهارها فى العهد المملوكى خلال الفترة (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) وقد سمى المماليك فى هذه الفترة « السلاطين البناؤون » وكان من نتيجة تزاحم المبانى بغير نظام ان ضاقت السبل وكثرت الازقة والدروب المسدودة واتصل عمران الفسطاط بعمران القاهرة وأصبحت مدينة واحدة(٦٧) ·

كيف واجهت المدينة الاسلامية مشكلاتها اليومية ؟

تظهر شخصية المدينة الاسلامية اذا تتبعنا كيفية مواجهتها لمطالبها اليومية من غذاء ومياه الشرب والتخلص من الفضلات والنقل فى المدينة واتصالها بغيرها من المدن فكل هذه مشكلات تظهر مع التحضر وزيادة احجام المدن وقد اتبع المسلمون أسلوبا معينا فى تلبية احتياجات مدنهم اليومية ·

---

(٦٥) يوسف ابيش : المرجع السابق · ص ١١ ·

(٦٦) نفس المرجع : ص ١١ ·

(٦٧) عبد الفتاح وهيبه : المرجع السابق · ص ٢٦٧ ·

فمن حيث الحصول على مياه الشرب :

نالت مشكلة الحصول على مياه الشرب فى المدن الاسلامية اهتماما كبيرا فقد نظر المسلمون الذين وفدوا من بيئة صحراوية الى ماء الشرب بعين البدوى الذى يعانى من شح الماء فضلا عما يدعو اليه الدين من عدم الاسراف فى كل شيء حتى الماء • ولهذا لم تبلغ مجارى مياه الشرب من الكبر مابلغته مجارى المياه عند السابقين • ولهذا كانت مجارى المياه فى قرطاجنة من المستغربات لدى المسلمين بسبب ضخامتها(٦٨) وقد عرفت سمرقند كيف توزع ماء الشرب فيها بواسطة شبكة متكاملة من الانابيب التى تأخذ مياهها من خزانات كبيرة • ويصف لنا الاصطخرى كيف يوزع ماء الشرب فى مدينة سمرقند فيقول « وقل ما رأيت خانا أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس الى حائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل ، وذكر لى من يرجع الى خبره أن بسمرقند فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على الفى مكان يسقى فيه الماء الجمد مسبلا عليه الوقوف من بين ساقيه مبنية وجبات منصوبة»(٦٩) •

أما مدن ايران فكانت تعتمد فى حصولها على ماء الشرب على تلك القنوات المحفورة فى باطن الارض • ويصف لنا الاصطخرى هذه القنوات التى كانت تغذى نيسابور بماء الشرب فيقول « وأكثر مياهها قنى تخرج تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد فى ضياعهم ولها قنى تظهر فى البلد وتجرى فى دورهم وبساتينهم داخل البلد وخارجا عنه»(٧٠) كما كانت قرطبة تجلب المياه من جبالها على مسافات بعيدة عن طريق قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع فى جوفها انابيب الرصاص لتحفظها من كل دنس(٧١) وكان امداد مدينة مكة بالماء يتم عن طريق تلك القناة التى أمرت بانشائها السيدة زبيدة • وقد بذلت الجهود لصيانة هذه القناة والعناية بها وحفر مزيد من

---

(٦٨) ياقوت الحموى : المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٨ •

(٦٩) الاصطخرى : المرجع السابق • ص ٢٩ •

(٧٠) نفس المرجع : ص ٢٥٥ •

(٧١) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق • ص ١٠٥ •

الابار التى تزودها بالماء .

وقد استطاعوا رفع المياه الى الاجزاء المرتفعة من المدن والى القلاع بواسطة الدواليب التى تديرها الابقار كما هو الحال فى مدينة القاهرة حيث توجد قناة فى السطح العلوى لقناطر معلقة « مجرى العيون » تمتد من النيل الى القلعة . وكانت ترفع اليها المياه من النيل كى تزود القلعة بالماء .

أما المدن التى كانت تحصل على مياه الشرب من الانهار فمن أمثلتها القاهرة وبغداد ويصف لنا المقدسى توزيع الماء فى مدينة القاهرة فيقول «ولهم مشارع على الشط يحملون منها الماء فى الروايا ويصعدون كل طبقة بنصف دانق » ويستخدم ماء النيل بعد تخليصه مما يعلق به من شوائب باستخدام نوى المشمش ويواصل المقدسى حديثه عن ماء النيل كمصدر للشرب فى القاهرة فيقول « ويكدر ماؤه أيام زيادته فيلقون فيه نوى المشمش المرضوض ليصفو» (٧٢) .

وفى بغداد كان أهلها يشربون من نهر دجلة ، وكان السقاؤون يأخذونه اما من النهر مباشرة ويحملونه الى دور أهل اليسار أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة بل كانت هناك قناتان يجرى فيهما الماء الى المدينة ، وكلاهما مغطاه ومحكمة العقد(٧٣) . ويصف لنا الاصطخرى كيفية تزويد بغداد بمياه الشرب فيقول « وأما الاشجار والانهار التى فى الجانب الشرقى ودار الخلافة فانها من ماء النهروان وتامرا وليس يرتفع اليها من ماء دجلة الا شىء يسير يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب ، وأما الجانب الغربى فانه قد شق اليه من الفرات نهر عيسى ... وينتهى آخر نهر عيسى الى دجلة فى جوف مدينة بغداد »(٧٤) كما اعتمدت بعض المدن الاسلامية على مياه المطر فى الشرب حيث كانت تقام أحواض تعرف باسم « مصانع »

---

(٧٢) المقدس : المرجع السابق . ص ٢٧٦ .
(٧٣) ادم متز : المرجع السابق . ص ٢٧٦ .
(٧٤) الاصخرى : المرجع السابق . ص ٨٣ .

لجمع مياه المطر مثل تلك المصانع الباقية بالقرب من مدينة القيروان ·

وواضح مما سبق ان المدن الاسلامية روعى عند انشائها ان تتوافر موارد مياه الشرب وان يؤمن احتياجات سكانها من الماء بتنظيم عملية توزيع المياه · ولقد استغلت مخلفات المدن من المياه والفضلات فى التسميد · ولهذا كان للفضلات تجار يزايدون عليها ولقد كان بالبصرة تجار للمخلفات الآدمية (٧٥) ·

النقل :

أشرنا الى اتساع المدينة الاسلامية وضخامتها فى العصور الوسطى بالمقارنة بمدن أوربا ، فمدينة الفسطاط كانت تمتد على ضفة النيل الشرقية قرابة الخمسة كيلومترات وبعرض كيلومتر واحد · ومدينة سامراء التى بنى لها امتداد فى شمالها يتمثل فى المدينة المتوكلية بلغ امتدادها طوليا ما يقوب من عشرين كيلو مترا · كما أن قطر مدينة بغداد المستديرة الشكل نحو ثلاثة كيلو مترات ولهذا ظهرت مشكلة الحاجة الى وسائل النقل فى المدن الاسلامية ، حقيقة كانت أساليب النقل بدائية فى القرون الوسطى فلقد استخدمت الحمير كوسيلة للانتقال تستخدمها الطبقة الوسطى من أهل المدن · ففى بغداد كان الحمارون يتجمعون عند باب الكرخ وهو مدخل القسم التجارى · كما استخدمت الحمير أيضا كوسيلة للانتقال فى الفسطاط خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (٧٦) ·

أما المدن التى تقع على الانهار كالفسطاط وبغداد والبصرة فقد استخدمت القوارب أيضا للانتقال فيها · ويحدثنا الاصطخرى عن استخدام السفن فى التنقل فى بغداد والمدن القريبة منها فيقول « وينتهى آخر نهر عيسى الى دجلة فى جوف مدينة بغداد وأما نهر عيسى فان السفن تجرى فيه من الفرات الى أن يقع فى دجلة واما الصراة فان فيها حواجز تمنع من جرى السفن فتنتهى السفن منها الى قنطرة الصراة ثم يحول مافيها ويجاوز به ذلك

---

(٧٥) آدم متز : نفس المرجع · ص ٢٧٨ ·

(٧٦) آدم متز : المرجع السابق · ص ٢٧٨ ·

الحاجز الى سفن غيرها » (٧٧) ويظهر من النص أنه رغم وجود الحواجز فى المجرى المائى الا أنه امكن التغلب على تلك المشكلة بأن يتم النقل على مرحلتين على جانبى الحاجز ٠

وقد كان للقاهرة ميناؤها الهام على النيل فى بولاق والذى ظل الميناء الرئيسى للقاهرة حتى أواخر العصور الوسطى ٠ وترتبط القاهرة بغيرها من المدن بل بغيرها من الاقاليم عن طريق هذا الميناء فضلا عن دوره فى الملاحة المحلية والنقل على امتداد شاطىء النيل فى القاهرة ٠ وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب فتصله السلع من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ومن موانىء الشام وتركيا عن طريق فرع دمياط ٠ ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة (٧٨) ٠

وبعد فيبدو واضحا أن المدينة الاسلامية ذات شخصية واضحة لم تذب أو تطمس فى شخصية المدن الاخرى ولو أنها افادت كثيرا من المدن السابقة فبالرغم من اشتمالها على كثير من عناصر المدينة الاغريقية الا أنها كان لها طابعها وشخصيتها التى ظهرت فى هذه العناصر فأسوارها تختلف عن أسوار المدن الاغريقية وقد أوضحنا ان الصليبيين أخذوا عن العرب نظام الابراج المقامة على الاسوار للدفاع عنها كما ادخل المسلمون الحمامات العامة الى مدنهم لكنها كانت ذات طابع مختلف عن الحمامات الاغريقية وازيل ما بها من تماثيل وصور ووضعت لها القواعد التى تتفق مع مبادىء الدين الاسلامى ، كما الحقت البساتين بكثير القصور كما كان سائدا فى مصر وبلاد فارس ولكن المسلمين استطاعوا ان يطوروا هذه البساتين بطريقة جعلت البساتين فى المدن الاسلامية يطلق عليها البساتين الاسلامية لما تميزت به من مزروعات وتنظيم لم يعرفه الا العرب ٠ وفى تخطيط المدن أخذ المسلمون عن الاغريق والرومان خطة الزوايا القوائم ، ولكن من المعالم الرئيسية التى اشتملت عليها المدينة الاسلامية المسجد الذى أقيم فى ملتقى الشارعين الرئيسين فى المدينة كما ظهرت الخوانق والرباطات كما كانت المدينة الاسلامية أسبق فى بلوغها

---

(٧٧) الاصطخرى : المرجع السابق ٠ ص (٧٤ ـ ٨٥) ٠
(٧٨) نعيم زكى : المرجع السابق ص ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠

حجما كبيرا لم تبلغه أى مدنية سابقة وتعددت طوابق مبانيها بشكل واضح وكان للعمارة الاسلامية شخصيتها التى أخذت عنها كثير من الامم بعد ذلك .

ونستطيع أن نجمل صورة لمورفولوجية المدينة الاسلامية خلال فترة ازدهارها والتى نلمحها فى كل المدن الاسلامية سواء فى آسيا أو شمالى افريقية :

١ ـ مركزية المسجد الجامع فى المدينة وتوسطه لاقدم أحياء المدينة ، اذ يمثل المسجد نواة المدينة .

٢ ـ احاطة السوق للمسجد الجامع ، مع وجود الخانات والوكالات مجاورة للاسواق ووجود مقار الطوائف الحرفية فى هذا النطاق . وشيوع ظاهرة التخصص فى بيع سلعة واحدة ، وتجاور أصحاب السلع المتشابهة .

٣ ـ وجود الاحياء السكنية المنفصلة عن بعضها (قطائع) بسبب صلة القرابة أو المهنة .

٤ ـ وجود الشوارع الضيقة والازقة المغطاة التى اطلق عليها السقائف ، وخاصة فى مناطق الاسواق لحماية المارة ورواد السوق من أشعة الشمس ومن المطر وتكاد تتشابه كل المدن الاسلامية فى ذلك .

٥ ـ وجود الاسوار حول المدينة ، بل كثيرا ما ازدوجت الاسوار واحيطت بالخنادق التى تملأ بالماء وقت الحاجة . كما ظهرت البوابات الضخمة التى تقفل على الاحياء وازداد انتشارها فى فترات اختلال الامن والفتن والصراع بين الطوائف .

بعض المراجـــع

١ ـ ابن شاهين :
زبدة كشف الممالیك تحقیق رافایسیة طبع باریس ١٨٩٤ ·
٢ ـ آدم متز :
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى · الترجمة العربية لمحمد عبد الهادى أبو ريده دار الكتاب العربى بيروت ط ٤ ١٦٩٧ ·

٣ ـ الاصطخرى المعروف بالكرخى :
« مسالك الممالك » نشر ديجويه من منشورات مكتبة الصدر · طهران االطبعة الثانية ١٩٢٧ م ·

٤ ـ أنور الرفاعى :
الاسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية والادبية والعلميـــة والاجتماعية والاقتصادية والفنية · دار الفكر بيروت ١٩٧٣

٥ ـ جلال مظهر :
حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى · مكتبة الخانجىالقاهرة١٩٧٤م

٦ ـ جمال جمدان :
جغرافية المدن الطبعة الاولى · القاهرة · بدون تاريخ ·

٧ ـ · · · · · ·
دراسات فى العالم العربى · القاهرة ١٩٥٨ ·

٨ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور :
المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك · القاهرة ١٩٥٧ ·

٩ ـ الطبرى : ابوجعفر محمد بن جرير :
«تاريخ الرسل والملوك » طبع بريل ليدن ١٨٧٩ ـ ١٨٩٨ (١٨مجلدا)·

١٠ـ عبد الفتاح وهيبه :
« فى جغرافية العمران » دار النهضة العربية · بيروت ط ١سنة ١٩٧٢

١١ـ عبد المنعم ماجد :
« تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور والوسطى » مكتبة الانجـــلو المصرية » القاهرة المطبعة الثالثة ١٩٧٣ ·

١٢ـ على ابراهيم حسن :

« التاريخ الاسلامى العام » مكتبة النهضة المصرية القاهرة١٩٧٢·

١٣ ـ محمد · أ · سناسير :
« مدن ازدهرت فى الصحراء » مجلة رسالة اليونسكو العدد١٩٩ · فبراير ١٩٧٨ م ·

١٤ـ محمد السيد غلاب ـ محمد صبحى عبد الحكيم :
«السكان ديموغرافيا وجغرافيا» مكتبة الانجلو المصرية القاهرة · الطبعة الثالثة ١٩٧٤ م ·

١٥ـ المقدسى المعروف بالبشارى :
« أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » طبع بريل · ليدن الطبعة الثانية ١٩٠٦ م

١٦ـ ناصر خسرو :
« سفرنامة » الترجمة العربية · يحيى الخشاب · الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٥ م ·

١٧ـ نعيم زكى :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها · الهيئة المصرية للكتاب · القاهرة سنة ١٩٧٣ م ·

١٨- ياقوت الحموى - شهاب الدين أبى عبد الله :
« معجم البلدان » دار صادر ، دار بيروت ٠

١٩- يوسف أبيش :
الحفاظ على مدينة فاس التاريخية مجلة رسالة اليونسكو ٠ العدد ١٩٩ ٠ فبراير ١٩٧٨ م ٠

٢٠- ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
اخوان الاسواق « نظام الطوائف الحرفية » مجلة رسالة اليونسكو العدد ١٩٩ فبراير ١٩٧٨ ٠

٢١ - Fitzgerald, W., "Africa" London., 1955

الحركة الأدبية والفكرية في قطر

محمد عبد الرحيم كافود
مدرس مساعد بقسم اللغة العربية

في بحثنا هذا للحياة الأدبية والفكرية في قطر في العصر الحديث يحتم علينا المنهج العلمي السليم ان نقسم هذه الدراسة للحياة الأدبية الى مرحلتين :

مرحلة ما قبل ظهور النفط وهي المرحلة التي تبدأ تقريبا منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الحالي حين دخلت قطر حياة جديدة

أما المرحلة الثانية فهي المرحلة التي تبدأ منذ بداية النصف الثاني من القرن الحالي وحتى وقتنا الحاضر · وسوف يكون هذا التقسيم متمشيا مع التطور الفكري والأدبي الذي تشهده البلاد ، وان كنا في تقسيمنا هذا لانعني ان كل مرحلة منفصلة عن الاخرى أو مباينة لها تماما ، لان ذلك لايتفق وطبيعة الحياة الأدبية والفكرية من حيث التداخل بين المراحل الزمنية وتأثر أو تأثير كل منهما في الاخرى ·

وقبل الحديث عن الحياة الفكرية والأدبية في قطر لابد من الاشارة الى بعض الظواهر التي كان لها أثرها في مسار الحركة الأدبية والفكرية ·

أولها : موقع قطر الجغرافي حيث تتجاذبها بيئتان : بيئة الصحراء وبيئة البحر ، وكان لصلة الانسان القطري بالبحر من ناحية وبالصحراء من ناحية أخرى أثره في ذلك التمازج الذي ظهر أثره في آدابه وفنونه ·

وثاني هذه الظواهر ان قطر ومنطقة الخليج العربي بأسرها ظلت وحتى نهاية القرن التاسع عشر في حالة عدم استقرار بسبب الغزو الاستعماري الغربي ، ثم تلك الخلافات المحلية والقبلية التي عاشتها المنطقة في الماضي ·

مما ظهر أثره السلبى على الحياة الفكرية والادبية خاصة فى القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين ٠

كما ان هناك ظاهرة أخرى كان لها أثرها على مسار الحركة الفكرية والادبية فى قطر والمنطقة بأسرها وهو عدم تبلور الكيانات السياسية بصورة واضحة حتى نهاية القرن التاسع عشر مما جعل الحياة الفكرية والادبية وحدة مشتركة بين شعوب هذه المنطقة فى الماضى ومن الصعوبة تخصيصه باقليم بعينه كما سوف يتضح لنا من خلال الصفحات القادمة ٠

ومن الظواهر التى كان لها أثرها السلبى على الحياة الفكرية والادبية الحالة الاقتصادية المتدهورة فى الماضى فقد كان للفقر وجرى الانسان وراء لقمة العيش التى ينتزعها من بين امواج الخليج ، أثره السلبى فى تدهور الحياة الفكرية والثقافية ٠ فنحن لو نقبنا وبحثنا فى المرحلة الاولى التى اصطلحنا عليها فى بحثنا هذا وهى المرحلة التى تمتد حوالى قرن ونصف من عمر الزمن (١٨٠٠ ـ ١٩٥٠ م) لفوجئنا بذلك النضوب الفكرى والادبى فى هذه المرحلة ٠ وذلك راجع الى تدهور الحالة الاقتصادية فى البلاد والى عدم الاستقرار السياسى حتى بداية القرن الحالى ٠

لهذا لم نجد للتعليم مكانة فى المجتمع القطرى حتى النصف الثانى من القرن الحالى حيث بدأ الاهتمام بالتعليم الحديث ٠ اما ما قبل ذلك فقد كان التعليم لايتجاوز « الكتاتيب » أو ما عرف فى المنطقة باسم « المطوع » وهذه الحلقات أو المدارس كانت محدودة ومقصورة على ابناء الموسرين ـ ولكن يجب ان نشير هنا الى مدرسة ظهرت فى النصف الاول من القرن الحالى وهى المدرسة « الاثيرية » التى اسسها (الشيخ محمد بن مانع)(١) ٠ وكان لها أثرها فى بذر بذور الحياة الثقافية والفكرية ليس فى قطر وحدها وانما انتشرت شهرتها فى المنطقة باسرها ، وامها الطلبة من البلدان المجاورة ٠ وقد اتسمت الحياة الثقافية والفكرية فى تلك المرحلة بالركود والجمود ،

(١) انظر كتاب الادب القطرى الحديث ص ٥٩

وهكذا فنحن لو تتبعنا الحركة الادبية فى تلك المرحلة فاننا لا نتوقع ان نجد حركة نشطة كالتى نجدها فى الدول الخليجية المجاورة وذلك راجع للاسباب السالف ذكرها • فالشعر فى هذه المرحلة ـ الاولى ـ قد اتسم بالجمود والركود ، وغلب عليه الطابع التقليدى •

ومعظم نتائج تلك المرحلة هو الشعر النبطى (الشعبى) ولعل أول شاعر قطرى نظم بالفصحى هو الشاعر عبد الجليل الطباطبائى وان كنا لانستطيع ان نقصر هذا الشاعر على قطر بالذات فهو شاعر الخليج عامة حيث ولد فى البصرة وعاش فترة من الزمن فى قطر فى مدينة الزبارة ابان ازدهار هذه المدينة فى اوائل القرن التاسع عشر • وسجل فى شعره بعض الحوادث المعاصرة فىهذه المنطقة • ثم انتقل بعدها للبحرين وعاش فيها فترة من الزمن ، ليغادرها بعد ذلك الى الكويت ويستقر فيها حتى وافته المنية عام ١٨٥٣ م(٢) •

فمن اشعاره التى نظمها فى تلك الفترة التى عاشها فى قطر وصور فيها الحوادث المحلية قصيدة نظمها فى الحصار الذى ضربه سلطان مسقط على المدينة •

لك الله انى من فراق الحبائب   لفى لاعج بين الاضالع لاهب

أكابد اشواقا يكاد لفرطها   توقد فى جنبى نار الحباحب(٣)

ومنها القصيدة التى نظمها فى مدح آل سعود عندما دخلت القوات الوهابية مدينة الزبارة بقيادة سليمان بن طوق عام ١٨٠٩ م • ومطلعها(٤) •

---

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٠٢
(٣) ديوان الطباطبائى ص ١
(٤) ديوان الطباطبائى ص ٨

تباركت يامولى الملوك الاعـاظم وعزيت يامبدى الجميل وراحمى

لك الحمد اذ اوليتنا منك انعما يضيق لها ذرعـا يراع لراقم

وبعدها ينتقل لمدح محمد بن عبد الوهاب ثم أمير الدرعية من آل سعود ·

أما أول شاعر قطرى نظم بالفصحى فهو الشاعر ماجد بن صـالح الخليفى من ١٨٧٣ ـ ١٩٠٧م(٥) وهو شاعر لم يكن متمكنا من اللغة الفصحى بسبب تأخر التعليم والجمود الفكرى والثقافى الذى عاصره فى تلك الفترة ، فاتسم شعره بالضعف والركاكة ، كما انه كان يتكىء على معانى القدمـاء وصورهم ومجاراتهم فى معظم قصائده · واستمع اليه فى احدى قصائده وهو يجارى ابن ابى ربيعة حين يقول الخليفى فى احدى غزلياته(٦) :

وجه المليحة ذاك أم بدر السما وذوائب أم تلك ليل أظلمـا

....

لكننهـا محجوبة بكـتائب ونجائب يحملن اسدا غشـما
عجبا لقلبى يالهـا من جسرة فى خيمة فيها الأعـادى جثما
فى ليلة قـد غيهبت وتجلببت بظلامها وسماؤها قـد غيما
فاجبتها فتنبهت فى دهشـة وتزفرت لمـا رأتنى قائمـا
قالت الا ليت المحبة لم تكن اذ جئتنى والناس حولى نوما
ارخصت نفسك فى الهوى وتركتنا غرضا لقول الحاسدين اللوما(٧)
فاجبتهـا الموت أهون فاعلمى من نار شوق فى الفؤاد تضرما
قالت ، اذا قد نلت مـا املته انت الحبيب فقر عينا وانعما

فالخليفى هنا يجارى ابن ابى ربيعة فى قصيدة التى يقول فيها(٨) :

---

(٥) الادب القطرى الحديث ·
(٦) ديوان الخليفى ص ٩
(٧) اللوما : خطأ الصواب اللوم
(٨) ديوان ابن ابى ربيعة ص ١٤٦

فجئت امشى ولم يغف الا لى سمروا ... وصـــــاحبى هندوانى به أثـــر
فلم يرعها ، وقد نضت مجاسدها ... الاســـــواد وراء البيت يستتر
فلطمت وجهها ، واستنبهت معها ... بيضاء آنسة ، من شـــأنها الخفر
قالت : أردت بذا عمدا فضحيتنا ... وصرم حبلى ، وتحقيق الذى ذكروا
فقلت داع دعـــا قلبى ، فارقــه ... ولا يتابعنى فيكـم ، فينزجـــر

ومجارات القدماء عند الخليفى لم تتوقف عند الشعر الفصيح بل تعدته الى الشعر النبطى وان كان فى شعره النبطى أقرب الى تصوير واقع الحياة والبيئة التى عاشها • ونحن مع ذلك يجب ان لاننسى لهذا الشاعر فضله فى انه كان له فضل الريادة فى محاولاته النظم بالفصحى فى وسط صحراء قاحلة فقيرة بالثقافة والمعرفة فى تلك الفترة •

ويفد على قطر فى تلك الفترة الشاعر النجدى المعروف محمد بن عثيمين فيستقر فى قطر ويلازم حكامها ، ويدبج بعض قصائده فى مدحهم • ومما لاشك فيه انه كان لابن عثيمين دور فى ايقاظ الحركة الادبية فى البلاد •

ومعظم شعر ابن عثيمين فى المديح سواء فى حكام قطر أو غيرهم من حكام المنطقة كآل خليفة فى البحرين ، وآل سعود • وشعر ابن عثيمين شعر تقليدى سواء من حيث النهج العام للقصيدة أو من حيث المعانى والصـــور والاوصاف النى يتداولها فى قصائده ، الا انه امتاز بمتانة الاسلوب وقوة التراكيب ، وحسن الصياغة • يقول فى احدى قصائده التى قالها فى مدح الشيخ عبد الله بن قاسم حين بدأها بالغزل ثم انتقل الى المديح(٩) •

نعم هذه اطلال سلمى فسلم ... وارخ بها سيل الشؤون واسجم
وقف فى مغانيها وعفر بتربها ... صحيفة حر الوجه قبل التندم
فثم مقيل الوجه لا بل مقامه ... وثم هوى نفس المشوق المتيم
ومسحب اذيال لغزلان جـــيرة ... سقونى سلاف الوصل غير المفدم
....
وقائلة لى والركاب مناخـــة ... وقد رقرقت دمع الحزين المكتم

---

(٩) ديوان ابن عثيمين ص ٣٩٥

الى كم بها ترمى الفجاج مخاطرا وللرزق اسباب بدون التجشم
فقلت لهـا مهلا فــان تقلقلى الى كعبة يهوى لها كل معدم
وينتابها قوم كــرام اعـزة ففيها ابن عكاز وفيها ابن ضيغم
مناسك حج قد اقيمت فروضها خلا ان من يسعى بها غير محرم
....

ومن شعراء المرحلة الاولى الشاعر محمد حسن المرزوقي وهو شاعر مقل ، ومعظم اشعاره لم نقف عليها حيث انه لم يدونها ولم نعثر له الا على قصيدتين احداها في المدح والاخرى في الرثاء ۰ وقصيدة المديح قالها في مدح الشيخ عبد الله بن قاسم ومطلعها(١٠) :

تدوم بالعز والاقبـال والظفر في نعمة الله تبقى مدة العمر
لازلت ترقى وقدرى عندكم ابدا يرقى الى غارب السعدان والقمر

والقصيدة معارضة ومجاراة لقصيدة أبي العلاء المعرى التى قالها في مدح القصيصى وتهنئته ومطلعها(١١) :

ياساهر البرق ايقظ راقد السمر لعل بالجزع اعوان على السهر
وان بخلت على الاحياء كلهم فاسق المواطر حيا من بنى مطر

أما قصيدة المرزوقي الاخرى فهي في الرثاء وهي قصيدة طويلة قالها في رثاء الشيخ قاسم بن محمد تتبع فيها سيرة المرثى واعماله ودوره في بنـاء الدولة الحديثة ومطلعها (١٢) :

ايا عين فابكي واسبلى عبرات وجودى بقانى اللون لا الدمعات
لعل فؤادى ثم ينجو من الردى ويذهب وسواس لدى الصلوات
....

---

(١٠) نزهة الابصار بطرائف الاخبار والاشعار لابن درهم جـ ٣ ص ٩٤٨
(١١) المرجع السابق ص ٦
(١٢) درر المعانى فى مدح آل ثانى جـ ١ ص ٢٣٢

ويغلب على شعر المرزوقي الطابع الديني وسمات الفقهاء وقد كـــان متأثرا بالمذهب الوهابي ومناصرا له ٠

ومن شعراء المرحلة الاولى الشاعر عبد الرحمن بن درهم وله مصنف يقع في ثلاثة اجزاء اسماه « نزهة الابصار بطرائف الاخبار والاشعار » وقد جمع فيه مختارات من الشعر العربي قديمه وحديثه(١٣) وألحق به بعضا من اشعاره ٠

ومن شعراء المرحلة الاولى كذلك الشاعر عبد الرحمن الخليفي وهو شاعر مقل وهو الآخر له مصنف صغير جمع فيه مختارات من الادب العربي شعره ونثره تحت عنوان « بستان الاكياس والافراد من الناس » وألحق به بعضا من اشعاره ٠

أما بقية شعراء المرحلة الاولى فأغلبهم من شـــعراء الشـــعر النبطي (الشعبي) واشهر شعراء الشعر النبطي في قطر : الشيخ قاسم بن محمد من ١٢٤٨ ـ ١٣٣١ هـ ومعظم اشعاره في الفخر ووصف الحروب والمعارك التي خاضتها قطر في عهده ٠ ويغلب على شعره الطابع الديني ٠ فمن قصيدة له يصف فيها احدى المواقع التي خاضها ضد الاتراك العثمانيين يصور فيها ان حربه لهم انما هي حرب بين الاسلام والكفر ٠ يقول فيها(١٤) :

ثلاثين ليلة ما غمض الجفن الكرى	اعـــالج بهـــا للنايبات افكـــار
....	....
فسبحانك اللهم مالك كل من ملك	شـــديد عقـــابك قـــادر قهـــار
تعز بالطاعة ضـــعيف لجـــابك	وتـــذل بعزك طـــاغي جبار
ولك حكمة ما تبلغ الناس كنهها	ولك في عبادك خافيـــات اسرار
فنرجوك يا اللي عزنا وانتصر لنا	كما عز من هاجر مع الانصار(١٥)
عساك تجعلنا من انصـــار دينك	وتعلي بنـــا لنسلمين منـــار
وعساك يا اللي عاون الشرك والكفر	دمار وعار مقتفيهن نـــ-ار(١٦) ـ

(١٣) الادب القطرى الحديث ص ٧٩

(١٤) ديوان الشيخ قاسم بن محمد ص ٣٠

(١٥) يا اللي : يا الذى ٠

(١٦) مقتفيهن : اى يعقبهن ٠

ومن أشهر شعراء النبط في المرحلة الاولى الشاعر محمد بن عبد الوهاب الفيحاني ١٩٠٧ ـ ١٩٣٤ م ويمتاز شعر الفيحاني بعمق التجربة وصدقها ، وأغلب شعره في الغزل ويتسم غزله بطابع خاص فهو دائما يتحدث عن آلامه واحزانه وسوء حظه ، فقصائده كلها بكاء وألم وحسرة ، وقلما يتطرق الى وصف الحبيبة بتلك الاوصاف الحسية المعروفة لدى غيره من الشعراء ، فاغلب قصائده تتسم بالشكوى والانين مما يقاسيه من ألم الفراق وعدم اجتماع الشمل بالحبيب (١٧) :

شبعنا من عناهم وارتوينـــا	وعند رسوم منزلهم بكينـــا
....	....
وثرنـا في محبتهم ســـكرنا	وتيهنا وثرنـــا مهتدينا(١٨)
وفيهـا آه ، واويلي غرقنـــا	وهدينا الجداوبها سنينا(١٩)
تـكلفنا وهم عنـا براحـــة	وذبنـا وهم عنـا غافلينـــا
وناموا وارقدوا واحنا سهرنـا	عليهم وهم رويـــوا والتظينا
....	....
وهذا الحب بالزفرات يشـوى	الا ياويلـكم يا عاشـــقينا
وانـا من حـــر فرقاهم عليهم	تعلمت النياحـــة والحنينـــا
تحملنـا الهـوى حتى هلكنـا	ولولا الحب واللـه ما لعينـــا

والفيحاني يسلك مسلك القدماء في النهج العام للقصيدة فغالبا ما يبدؤها ببكاء الاطلال ، وينتقل بعدها للغزل . ونحن لانستطيع ان نعتبر ذلك مجرد تقليد ، بل سببه ايضا ذلك التشابه في البيئة واساليب الحياة ووســـائل العيش التي كان يعيشها الانسان القطري في تلك الفترة وقربها من حياة البداوة في عهودها السابقة .

أما عن النثر الفني في المرحلة الاولى فانه لايكاد يوجد شيء من النثر

---

(١٧) من الشعر القطري ص ١١

(١٨) وثرنا : أي بمعنى ترانا .

(١٩) هدينا : القيناه ورميناه ، الجدا : حبل يشد به الغواص في البحر ـ سنينا : اغمي علينا .

الفني بمعناه الدقيق وكل ذلك يعود الى الجمود والركود الفكرى الذى عاشته البلاد فى المرحلة الماضية • فتاخر ظهور التعليم الحديث بالاضافة الى عدم ظهور الوسائل الاعلامية ، كالصحافة والنشر كل ذلك ادى الى تأخر ظهور النثر الفني في الماضي ، وادى الى تقلص الشعر وجموده وركوده •

واذا انتقلنا الى المرحلة الثانية وهى المرحلة التى بدأت مع اشراقة عهد جديد وبداية نهضة شملت جميع نواحى الحياة المادية والمعنوية منذ منتصف هذا القرن ، وذلك حين تفجرت آبار (النفط) نجد أن هذه الانتقالة الكبيرة من حياة تقليدية الى حياة عصرية تغيرت فيها معظم المفاهيم والاعراف التى كانت سائدة فى مجتمع ما قبل النفط •

ففى المرحلة الثانية وهى بداية الخمسينات انتشرت المدارس الحديثة وبدأ التعليم منذ عام ١٩٥١ م واخذت المدارس تعم جميع المناطق فى قطر ، وصحب ذلك ظهور المكتبات الحديثة وتوفير الكتب لجميع المواطنين بالمجان حيث أخذت دار الكتب القطرية التى انشئت فى تلك الفترة (١٩٦٢ م) تقوم بنشر الكتب وتوزيعها بالمجان كما توافد على قطر العديد من الشعراء والادباء واخذوا يدبجون المدائح فى حكام قطر واخذ الحكام بدروهم يطبعون هذه الدواوين وينشرونها مما شجع بعض شعراء قطر على اقتفاء اثرهم • وادى كل ذلك الى ايقاظ الحركة الادبية والفكرية فى البلاد(٢٠) •

ومما ساعد على نمو الحركة الادبية فى المرحلة الثانية بالاضافة الى العوامل السابقة نظام البعثات سواء أكانت بعثات الشباب القطرى الى خارج الوطن لاستكمال دراساتهم أم كانت بعثات وافدة الى قطر من مدرسين وموظفين ونحوهم من المتعلمين والمثقفين الذين اسهموا فى انعاش الحركة الفكرية والادبية فى البلاد •

ومما ساعد على نمو الحركة الادبية وتطورها فى المرحلة الثانية أيضا ظهور الصحافة المحلية التى كنا نفتقدها فى المرحلة الاولى فالصحافة المحلية لم تظهر فى قطر الا فى أواخر الستينات وذلك حين صدرت أول مجلة قطرية

---

(٢٠) الادب القطرى الحديث ص ٨٤ ومابعدها •

هى مجلة العروبة فى ١٩٦٩/٢/٥ ٠ ثم توالى صـــدور المجلات والصحف المحلية كمجلة الدوحة التى تصدرها وزارة الاعلام (صدرت عام ١٩٦٩ م) ومجلة العهد التى صدرت عام ١٩٧٤ ومجلة الخليج الجديد عام ١٩٧٦ ، وغيرها من المجلات والصحف المحلية (كجريدة العرب) وجريدة (الراية) ٠

وقد ادى ظهور الصحف والمجلات المحلية الى ظهور النثر الفنى بانواعه المختلفة من قصة قصيرة الى مسرحية ، الى مقالة ٠

ومما يجب الاشارة اليه هنا ٠ ان الحركة الادبية لازالت فى طور النمو ولم تبلغ ما بلغته الحركات الادبية فى الاقطار الاخرى من تطور وقوة اندفاع والسبب الرئيسى فى تأخر ظهور حركة ادبية نشطة فى قطر راجع كمـــا ذكرنا الى تأخر ظهور العوامل التى تساعد على ازدهـــارها ، وهى التعليم الحديث ، ثم الاندية الادبية ، والمراكز الثقافية ، والمكتبات العامة ، والصحافة المحلية ، فتأخر هذه العوامل أدى الى تأخر ظهور الحركة الادبية النشطة وعدم مسايرتها للحركات الادبية فى الدول الخليجية المجاورة ٠

وما يزال النثر الفنى فى المرحلة الثانية بجميع فنونه فى مرحلة النمو وبداية الطريق ، ولعل أشهر كتاب القصة القصيرة ممن نشر انتاجهم للجمهور هما كلثم جبر فى مجموعتها القصصية « انت وغابة الصمت والتردد »(٢١) وخليل الفزيع فى مجموعتيه «الساعة والنخلة»(٢٢) و «الحب والنسا»(٢٣) ويمكننا القول بان القصة القصيرة أوفر حظا فى نموها وتطورها بالنســـبة للفنون النثرية الاخرى (٢٤) ٠

اما بالنسبة للادب المسرحى فانه لازال متعثرا كما هو حاله فى معظم انحاء الوطن العربى فأكثر النصوص المسرحية اما ان تكون اقتباســـا عن مسرحيات عالمية ، أو ان تكون نصوصا هابطة ومعظمها باللهجة المحلية ، وكل

---

(٢١) نشرت فى الدوحة ١٩٧٨

(٢٢) نشرت عام ١٩٧٧

(٢٣) نشرت عام ١٩٧٩ وكلها صادرة عن مؤسسة العهد ٠

(٢٤) الادب القطرى الحديث ص ١٦٦ ومابعدها ٠

ما وجد حتى الآن من مسرحيات لا يتعدى كونه محاولات وخطوات أولى فى بداية الطريق الذى نأمل ان تحدد معالمه بمسرح قطرى يأخذ مكانته اللائقة فى المجتمع وأهم الموضوعات التى تدور حولها المسرحيات التى ظهرت حتى الآن هى : ارتفاع الاسعار وغلاء المهور ، وفكرة الصراع بين القديم والحديث وغير ذلك ٠

الشعر فى المرحلة الثانية : يراد بالمرحلة الثانية هى المرحلة التى بدأت مع الانتقالة الكبيرة من حياة تقليدية الى حياة عصرية حديثة ، ونتيجة لهذا التغير الكبير الذى شمل الحياة المادية والفكرية ، فقد أخذ الجيل المعاصر يتأثر بالحياة الثقافية المعاصرة بجميع فروعها ومن ضمنها تلك المذاهب الفنية والاجتماعية التى ظهرت فى فن الادب ، فاخذ الشباب يتمثلونها ويحاولون تقليدها والجرى على منوالها ٠ وفى الوقت نفسه ظلت طائفة من الادباء تحاول الالتزام بالموروث القديم والتمسك به ، وان قبلت بالتجديد فعن تحفظ وحذر بحيث لايمس جوهر الموضوع ، فكان تجديدها فى الموضوعات والمعانى ــ بالقياس للمرحلة الاولى ــ ٠

أما من الناحية الفنية والشكل الخارجى للقصيدة فقد التزمت بالموروث القديم وكان أن ظهر نتيجة لذلك اتجاهان :

١ ــ اتجاه محافظ : وهو ما يمكن ان نطلق عليه الكلاسيكية الجديدة حيث ان اصحاب هذا الاتجاه جددوا فى المعانى والموضوعات نوعا ما اذا ما قسناه بالنسبة لشعراء المرحلة الاولى ٠ واشهر شعراء هذا الاتجاه :

١ ــ أحمد يوسف الجابر (١٩٠٣) وهو شاعر مخضرم عاش المرحلتين وأغلب نتاجه الشعرى كان فى المرحلة الثانية ٠ وأهم الموضوعات والاغراض التى طرقها شعر المناسبات كالمناسبات الدينية والاعياد القومية والاخيرة غالبا ما يطغى عليها المديح مصطبغا بالنصح والارشاد والدعوة الى الاصلاح ٠

يقول فى احدى قصائده التى انشأها فى التهنئة بولاية الامارة للشيخ على بن عبد الله(٢٥) :

---

(٢٥) درر المعانى فى مدح آل ثانى جـ ص ١١

وانفذ الحق بين النـــاس مرتقبا   يوم الجزاء كما للنـاس اعمـــال
اوارحم شبيبة شعب ضاع اولها   مرت عليها من الاهمـال اجيـــال
انظر اليها بعطف منك ينشلهـــا   من هوة الجهل ان الجهل اضلال
وارفع لـــواءك بالتعليـم مجتهدا   ورد حياض المعالى فهى سلســـال
واحذر بجهدك جار السوء ان لــه   بوائقـــا همهن المـال والحـــال

وللجابر بعض القصائد التى تعالج واقع المجتمع ومنها هذه القصيدة التى يمكن ان تدخل ضمن النقد الاجتماعى حين يرصد الشاعر المجتمع ومافيه من قيم وصفات فيحث عليها ، ويبرز مافيه من مثالب ، وتقاليد زائفـــة ، وعادات دخيلة غير صالحة فيحاربها ، ويوضح مضارها ٠ فالشـــاعر فى القصيدة التالية يهاجم صنفا معينا من الشباب خرج على التقاليد العربية الاسلامية وتشبه ببعض الشباب الغربى : يقول الجابر :(٢٦) ٠

عذارى الحى تشكو حر شكوى   شبابا جار ظلما واغتصابـــا
حقوقا لا ترى فيهـا شريـــكا   يشاركـهن تستلب اســـتلابا
اغـار على انوثتها شـــباب   شـــباب بيننا فقد الشـــبابا
تراه معقرب الصدغين يغـــدو   اسيل الخد ينســاب انسيابا
وقـد عقد الخنـافس فى جبين   وارخى من أنوثتـــه حجـابـا
وغرز المشط وسط الرأس شرط   اذا خاض الخنافس فيـــه غابا
متى جمع الزقاق لهن سربـــا   فما يـدريك ايهما الـــكعابا
وقد ناطوا السلاسل وسط عنق   كذا ارساغهم والرشد غابـــا
غزانا الغرب غزوا بعـــد غزو   فلما شارف الاخلاق طابـــا
وقال رضيت بالاخـــلاق منهم   متى ذهبت تكون لهم ذهابـــا
....

عبد الرحمن المعاودة : وهو الآخر شاعر مخضرم عاصر المرحلتين ولكنه فى المرحلة الاولى كان يقطن البحرين موطنه الاصلى ولم يفد على قطر الا فى الخمسينيات أى بداية المرحلة الثانية لذلك لايعتبر شعر المعاودة فيما قبل

---

(٢٦) مجلة العروبة العدد (١٤٢) فى ١٩/١٠/١٩٧٢ م ٠

ذلك من الشعر القطرى الحديث • وانما نعتبر نتاجه الادبى من ضمن الادب القطرى منذ المرحلة الثانية وهى الفترة التى استقر فيها فى قطر استقرارا دائما(٢٧) •

وشعر المعاودة يغلب عليه الطابع الوطنى والقومى وقد ساعد على تقوية هذا الجانب ما كانت تشهده المنطقة فى تلك الفترة من تخلف فكرى واقتصادى ، ثم رضوخها للاستعمار البريطانى الذى فرض سيطرته عليها وحاول عزلها عن العالم العربى ، فأخذ الشعراء ينادون بالاصلاح والتخلص من الاستعمار ويتغنون بماضى العرب والمسلمين وامجادهم السالفة ، ليتخذوا منها منطلقا لايقاظ الهمم والعمل على استعادة مجدهم القديم • وقد سخر المعاودة شعره فى خدمة امته(٢٨) :

واوقفت اشعارى على نصح امتى	ولم ابتذل فى مقال ولا قصد
فكان جزائى ان أكون كما أرى	احاول غرس الزهر فى الحجر الصلد

ويضيق بواقع الامة فيعلو صوته قائلا :(٢٩) •

يا خير هاد لقد تاهت مواكبنا	وقادنا بمهاوى الذل كل غبى
تراثنا الضخم لم نحفظ نفائسه	وما اخذنا الى التجديد من سبب
ضعنا وضاع الذى قد خلفوه لنا	وما اضعنا سبيل اللهو واللعب
حتى غدونا اذلاء مقسمة	اوطاننا واكتسبنا حلة الرهب
ويح العروبة ان لم يحمها رجل	لم يغره المال أو زيف من الرتب
مجاهد فى سبيل الله ليس له	غير العلا وبناء المجد فى ادب
تبا لكل انانى يعيش كما	قد شاء والغير فى جوع وفى سغب
ان ذل قومك فالذل الثقيل على	كتفيك رغم العقار الضخم والذهب
افلاذ اكبادنا ضاقت بلا دهمو	عليهم وجناها كل مغترب

---

(٢٧) الادب القطرى الحديث ص ٢٤٣
(٢٨) لسان الحال ص ٨
(٢٩) القطريات ص ١٥٢

حتى غدت بابل تكتظ اربعها ... بكل وجه غريب النطق والنسب
ان السياسة قد اضحت فضائحها ... مكشوفة لم تغب عن عين مرتقب

ويضيق الشاعر بواقع امته وماهى فيه من تخاذل فيحمل على الجامعة العربية الممثلة للانظمة العربية فيقول :(٣٠)

تمخضت عن فأر فلاكنت ياجبل ... ولاجادك الغيث الهتون اذا هطل
بنى العرب ما قول لديهم بنافع ... اذا لم يؤيد منكم بعد بالعمل
وليس الانانى بالزعيم وان غدا ... بالقابـه يزهو ويختال بالحلل
وجامعة فى مصر للعرب اصبحت ... لها صوتها الداوى ولكن بلاعمل
....
وفى كل خطبـة بعـد خطبـة ... لعزام فى جمع بعزام يحتفل
وفى كل قطر للعروبة مشكل ... وجيش ولكن دهره يشتكى الشلل

ويفرض (برنادوت) في الشرق حكمه ... ولا ناقة كانت له فيه أو جمل
وما كان (برنادوت) الا صنيعة ... فكيف على امثاله يعقد الامـــل
ويخلفه (الزنجى) من بعد قتله ... وعمن تسود (الزنج) في الناس لاتسل
ارى ديما حطت على كـــل مربع ... من الشرق لكن غيثها قط ما هطل
فهذا نصيب العاجـــزين وحظهم ... من العيش والمجد العظيم لمن عمل

وهكذا نجد ان معظم اشعار المعاودة تدور حول القضايا الوطنيـــة والقومية وحتى فى قصائد المديح لايلبث الا ان يعرج على ماضى امته ويشيد به ويبكى حاضرها ، وينعى واقعها وماهى عليه ٠

ومن شعراء المرحلة الثانية : الشاعر الدكتور / حسن على نعمة وهو شاعر مقل ـ حسب ما نشر علما بان له الكثير من الاشعار وفى مختلف الموضوعات ولكن لم تنشر ـ وكان حكمنا على قصائده وتصنيفه فى هذا الاتجاه حسب

---

(٣٠) لسان الحال ص ٧٤

القصائد التى نشرت حيث يغلب عليها طابع المحافظة»(٣١) ٠

ثانيا : الحركة التجديدية : وهى تمثل الاتجاه الآخر فى شعر المرحلة الثانية لقد كان للتغير الاقتصادى الكبير الذى تشهده البلاد وما ترتب عليه من طفرة اقتصادية ، ادت الى حركة ثقافية وادبية نشطة ، أثره فى تكوين ثقافة الجيل الجديد ، ثقافة حديثة ، فحملت اليه مختلف المذاهب الادبية والفكرية وكان من نتائجها ان تأثر هؤلاء الشباب ببعض هذه المذاهب وظهر أثرها على نتاجهم الادبى ٠

ولكن قبل الخوض فى نتائج هؤلاء الشباب لابد من الاشارة الى بعض الملاحظات :

أولها : ان الفترة التى شهدت بدء دخول الحياة الثقافية الحديثة فى قطر فترة قصيرة نسبيا بحيث لا يمكن ان تتضح كل ثمارها ونتائجها ، لذلك فلم تظهر آثارها واضحة خاصة فيما يتعلق بالحياة الادبية والفكرية ٠

وثانيها : ان هذا الجيل من الشباب لم يزل فى مرحلة التكوين وبداية الطريق ، ولم يكتمل النضج فى نتاجه بعد ولم تتضح سمات معالمه ، ولم تتحدد اتجاهاته ٠

ولكن عندما نعرض لدراسة نتاج هؤلاء الشباب نجد ان النزعـــــة الرومانسية هى الطابع الغالب على نتاج هذه المرحلة حتى الآن ، وذلك يعود الى سببين رئيسيين :

اولهما : هذه النقلة المفاجئة التى شهدها المجتمع القطرى على اثر ذلك التغير الاقتصادى الكبير الذى غير الكثير من القيم والمفاهيم التى كانت سائدة فى هذا المجتمع المحافظ ، الذى يقدس الاعراف والتقاليد القديمة ، ويتشبث بها ٠ وعندما انفتح هذا المجتمع على الحياة الجديدة ، واخذ يتأثر بها فى

---

(٣١) الادب القطرى الحديث ص ٢٢٢

جميع أوجه النشاط ماديا وفكريا ، فكان لابد ان يظهر هناك نوع من الصراع بين القديم والجديد ، وان يكون هناك جيل محافظ يتشبث بالموروث ، وجيل جديد ينزع الى التغير وينشد التجديد •

ولكن هذا الجيل الجديد رأى ان الواقع بموروثاته يقف فى سبيل تحقيق هذا الطموح الذى يسعى الى تحقيقه ، ووجد الفرق شاسعا بين ما يحلم به ، ويتصوره من خلال تأثره بالثقافة الحديثة ، وبين الواقع الذى يعيشه فعلا • فادى ذلك الى صراع نفسى عند شباب هذا الجيل ظهر أثره على ادبهم شعره ونثره •

والسبب الثانى : ان الادب العربى الحديث تغلب عليه النزعة الرومانسية التى استمرت الى عهد قريب وذلك بفضل (مدرسة الديوان) و (جماعة ابولو) حيث تأثر بهما أكثر شباب هذا الاتجاه • ولم يقتصر التجديد عند هؤلاء الشباب على الموضوعات الشعرية ، والافكار والمضامين فحسب ، بل تعداه الى الشكل الخارجى للقصيدة ، فظهر هناك مايعرف بالشعر المرسل أو المطلق والشعر الحر • وأغلب شعر هؤلاء الشباب يمكن ان تضعه تجاوزا فى عداد الشعر الوجدانى حيث انه فى معظمه يعود الى تصوير الماضى واجتراره بآلامه واحزانه ، فهو ذو طابع رومانسى يعبر عن وجدان الشاعر وتصوراته وذكرياته •

استمع الى الشاعر (مبارك بن سيف) وهو يصور ضيقه بالواقع ، ويتمنى عودة الماضى بما فيه من شقاء وعناء ومع ذلك فهو أفضل لديه من واقعه (٣٢) •

ياضفاف الشط
هل أشكوك ما بى من حنين
أم اداري ما بقلبى من جوى
ودموع همس الجفن لها الا تبين

---

(٣٢) الادب القطرى الحديث ص ٢٥٢

قد دفنت الآه اجلالا لها
وكذا الآلام اقساها الدفين
كم مضغت الحب آلاما
وفى القلب عتاب
كم تراءى لى انا العطشان ماء
فاذا الماء سراب
. . . .
ياهجيرا كنت اشكو لفحه
أين منى حلوذياك النسيم
يانجيمات الدجى ردى الجوابا
لى فؤاد كلما طافت به الذكرى اثابا
يستلذ البعد والحرمان فيه والعذابا
لم يعد لى يا فؤادى
غير ذكراها مثابا
كلما قلت تلاشت
كشف القلب عن الجرح النقابا
هل ترانى فى متاهاتى
اضعت اليوم دربى
يطحن الليل امانى وقلبى
واذا لاحت تباشير اللقاء
دارت الدنيا باحلامى وحبى
. . . .

وعبد الرحمن المناعى فى المقطوعة التالية يصور لنا الماضى وقضيـــــة الصراع بين الانسان القطرى والبحر باسلوب رومانسى يصور فيها آلام الغواص وما يلاقيه من اهوال ومشاق فى سبيل حصوله على لقمة العيش(٣٣) ٠

لاتشق الجيب أمى   ان اتوك واجمين

---

(٣٣) مجلة الدوحة العدد (٣٤) يوليو ١٩٧٢ م ٠

فانا في البحر الهو	منذ آلاف السنين
ارتقى الامواج اما	هجم (الدول) اللعين(٣٤)
فاذا مزق صدري	يطلق (السيب) الانين(٣٥)
لاتقولي ضاع ابني	في عداد الغائبين
صرختي ضربة مجداف	وقبري (بو الحنين)(٣٦)

وقضية الغوص والصيد وعلاقة الانسان بالبحر من القضايا التي شغلت الاديب القطري المعاصر في شعره ونثره ، حتى طغت على الاحداث المعاصرة •

وقضايا الساعة التي يعيشها الانسان القطري وهو بأمس الحاجة الى معالجتها • نقول مع ذلك فقد احجم الشباب عن معالجة مثل هذه الامور ، وذهبوا الى الماضي يجترون آلامه واحزانه وان هم لم يشهدوا تلك الايام ولم يكابدوا شيئا مما تكلفوه في شعرهم ونثرهم •

فهذه قصيدة للشاعر مبارك بن سيف يصور لنا عملية الغوص وتلك المآسي التي يكابدها الغواص في البحر فيقول من قصيدته : سفن الغوص البائسة •

ايه ياماء الخليج
كم شربنا ماءك المالح
في لهب السموم
وسمعنا آهة النهام اعيتها
جبال من هموم
وتراءت للعيون الغائرات •••
عند شط قد تركناه شهورا

---

(٣٤) الدول : نوع من اسماك البحر ـ حيوان هلامي ـ يلتصق بجسم الانسان فيؤذيه •

(٣٥) السيب : هو الشخص الذي يقوم بمراقبة الغواص في البحر ، كما يقوم بسحبه من الماء عند ما تأتيه الاشارة من الغواص •

(٣٦) بو الحنين : اسم موضع في الخليج لاحدى مغاصات اللؤلؤ •

عند شط قد تركنا فيه احبابا
وحطمنا الجسور
ايه ياماء الخليج
كم عيون مزقتها الشمس
اضناها السهاد
. . . .
كم جميل انت من خلف الشطوط
انك الخدر الذى يحجب فى الاستار
آلاف المآسى
ظالم انت وجبار وغدار وقاسى
تزرع اللؤلؤ فى الاعماق
كالصيد الدفين
وهى لاتعدو سرابا أو كمين
. . . .

وعلى أية حال فان الحركة الادبية والفكرية فى قطر فى العصر الحديث قد مرت بمرحلتين :

المرحلة الاولى : وقد اتسمت بالركود والفتور بسبب تأخر التعليم نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى عاشته المنطقة فى الماضى ٠

أما المرحلة الثانية : وهى التى بدأت باكتشاف النفط فقد شهدت نمو الحركة الادبية والفكرية فى البلاد بعد انتشار التعليم الحديث ، وظهور وسائل النشر ، وانتشار المكتبات والمراكز الثقافية ، ولكن الحركة الادبية والفكرية لازالت فى بداية الطريق وطور النمو ، والتى نأمل أن تواكب ذلك التطور المادى الذى تشهده البلاد ٠

المراجع :

١ ـ الادب القطرى الحدث : محمد عبد الرحيم قافود : ط٠ القاهرة١٩٧٩م

٢ ـ ديوان الطباطبائي:عبد الجليل الطباطبائيم٠ دولةقطر طالقاهرة١٣٨٥هـ

٣ ـ ديوان الخليفى : ماجدبن صالح الخليفى م٠ دولة قطر ط قطر ١٩٦٣م

٤ ـ ديوان ابن عثيمين : محد بن عثيمين م٠ دولة قطر ط الدوحة ١٣٧٦هـ

٥ ـ ديوان الفيحاني:محمدعبدالوهابالفيحانى م٠دولةقطر طالدوحة١٩٨٦هـ

٦ ـ ديوان قاسم بن محمد آل ثانى م٠ دولة قطر ط الدوحة ١٣٧٩هـ

٧ ـ ديوان المعاودة ط ٠٠٠ ١٩٤٢م

٩ ـ دوحة البلابل ط بيروت ١٩٦٠م

١٠ـ القطريات ط بيروت ١٣٧٧هـ

١١ـ درر المعانيفيمدح آل ثاني ـ اربعة اجزاء ـ منشورات دار الكتبالقطرية

١٢ـ نزهة الابصار بطرائف الاخبار والاشعار ٠ عبد الرحمن درهم ط دمشق

١٣ـ ديوان عمر بن ابى ربيعة ط بيروت١٩٥٢م

Is Ripeness all ? Shakespeare's Tragic Vision in "King Lear"

by

A.M. Kinghorn

The animating principle of Shakespearean tragedy is recognition that man is open to radical change, for better or for worse, and that, even at his deepest levels, he is unstable. What should interest a modern audience is the line of inter-communicaton which makes Shakespeare's tragic vision comprehensible to us now, rather than the tracing of historical connections back to the Elizabethans. " Vision " implies "sight" - not ordinary sight but "insight", mystical or prophetic, a revelation, abnormally obtained, or a mental conception of a profound meaning or scheme of things involving the true nature of Man. Philosophers talk of "human nature" as though it possessed something fundamental, but usually fail to define it except in general terms as a constant, while writers of tragedy seek a model of human greatness, expressed in a "hero" with whom the audience is expected to sympathise, a "high - mimetic" counterpart of the type of individual whom they have been educated to admire, or possibly condemn. On the stage they are permitted to see their ideal in action, that is, «dramatised» , and watch how he behaves under stress from various forces, human or divine, political or fateful.

Through the ideal revealing itself in action, Shakespeare poses questions. How does Fate work ? Does it rule the world ? Does it work according to Gospel ethic, summed up in the **Beatitudes,** which claim that the poor in spirit, the meek and the merciful are blessed ? Or is it rooted in obedience to "natural law," especially as summed up in the Ten Commandments ? Is it totally indifferent to Man ? Does no comprehensible ethic exist ? Do only human strength, political acumen, consistent atheism and acceptance of blind Fate as arbiter of all earthly action have value ? Is Man's tragedy the irony of the Universe ? Is it all seeming and being ? Do we seem to be alive but are really dead ? Is death and what lies beyond an improvement on life ? Is "read-

iness" or "ripeness" all, or just all that we can ever know ?

Of the four major tragedies, Hamlet and Othello place the human perspective foremost. **Macbeth** emphasises the dramatic, which gives confidence in Man's ability to live and make the most of what Fate puts in his path, **Lear** climbs to the ideal, the divine or philosophical. **However, Hamlet, Othello and Lear all dramatise themselves, turn into occasional play-actors, while Macbeth perceives the whole world as no more than a stage.** As Shakespeare presents it, his tragic vision scorns **divinity and is extinguished by his human enemies in the summit of conflict. Hamlet, again, muses over the "divinity that shapes our ends" but, as Kierkegaard perceived, never gets close to it - his concerns are solely with human nature and its vagaries and with the mystery of** this world, a play-within-a-play . Othello is hardly concerned at all with the abstract. His enemies, like Hamlet's and Macbeth's, are human - and in fact his worst enemy is himself. His one ideal is his own honour, his weakness, the **hamartia,** that he believes what Iago tells him. He is a man of action first to last, unable to contemplate "visions", who loves honour more than he does his wife .

Lear touches all perspectives, but mostly concerns itself with the divine, which etymologically relates to God, but for Shakespeare usually **means** power from world-ruling Fate, though he is never certain where the divine is to be found . The focal point of this tragedy is Act IV, **scene vi,** when we encounter Edgar leading his father, the blinded Gloucester, to "Dover Cliff". The cliff-edge symbolizes the edge of life, the outer limit of existence before death, but Gloucester is not **actually standing on the edge of the abyss and only thinks that he is** because he cannot see. In **Lear,** human, dramatic and divine perspectives merge and Shakespeare makes this particular scene the play's dramatic centre, though the philosophical focus is conveyed in III, vi, 102 - 5, when Edgar refers to solitary suffering :

> **Who alone suffers most i' the mind,**
> **Leaving free things and happy shows behind;**
> **But then the mind much sufferance doth o'er-skip'**

When grief hath mates, and bearing fellowship.1

He continues the same theme in IV, i ' 25-8, when he says in an aside

O gods! Who is't can say, « I am at the worst » ?
I am worse than e'er I was ...
And worse I may be yet; the worst is not
So long as we can say "This is the worst",

realising that there is no known limit of human suffering which cannot be endured, and in V,ii,9-11 utters the summation of human wisdom as stated in the play :

Men must endure
Their going hence, even as their coming hither;
Ripeness is all.

Suffering of the kind portrayed in Lear was outside the experience of Shakespeare's audience, the members of which, with some high-born exceptions, were during their lives never subjected to more than petty iniuries, appropriate to petty actions and politically insignificant careers. Concentration-camps and ideologically - inspired atrocities committed on a large scale were then still four centuries in the future. Personal experience, therefore, was not likely to yield the Elizabethan theatre-goer more than a glimpse of part of the tragic vision. He accepted Lear as "great" because he was a king, a classical stereotype, but soon discovered that in this particular instance the king is irritable, petulant and lacking in judgement, and because he is senile, his physical and mental powers are diminished to such an extent as to make him unable to fulfil his traditional role as decision-maker and leader of men. It is much later, when Lear is stripped of his born greatness and the visible trappings of kingship, that the spectator recognises that Lear is "every inch a king". Even as he is cast down to the lowest depths of human degradation, to become a tragic figure in the classical sense, he achieves true greatness by his intense suffering. The psychological perspective in the play brings the audience to understand Lear as a man and, in particular, as an old man, in his eighties -" a very foolish fond old man,/Fourscore and

upward" as he tells Cordelia in the reconciliation scene (IV,vii, 60-1).

Edgar's conclusion that "ripeness" is apparently the only aim available in life is open to interpretation on several levels. Ripeness means maturity, and so to be mature a man must suffer; because of this moral philosophy, known as Stoicism, he must learn to bear hardship. Qualities like fidelity, sacrifice, love, devotion ti duty are, in the sight of the Stoic, moral truths and on that account worth-while. Without them the phenomenon of human existence has no value, Stoicism provided Man with a reason for existence in the midst of a cloud of unreason and grotesquerie and thus made it possible for him to put up with the load of life. Hamlet asked : "Who would fardels (burdens) bear ?" and in **Lear** Shakespeare provided an answer - namely, a man, because it is in his nature. The ethics of **Lear** are those of the Stoic.

Other tragic heroes adopt related postions. Macbeth, wondering if honour were pointless, sacrificed it for material gain, and gained nothing. Othello, a real Stoic, sacrificed all for honour, and gained nothing. Hamlet eventually finds the Stoic posture satisfactory, and his words prefigure those of Edgar :

> If it be now, 'tis not
> to come; if it be not to come, it will be
> now; if it be not now, yet it will come :
>
> (**Hamlet**, V,ii,218 - 20)

In **Lear**, however, Shakespeare makes his tragic hero accept both honour and not-honour, because they both exist; some people are guided by the moral law, others are not. Man has to endure both kinds of people, saints and sinners, and when he has clear vision of things as they really are, and not just as he would like them to be, he is "ripe" . To understand life, he must attain knowledge of all this, and the only way to do it is by experience, that is to say, suffering or endurance of a physical or mental burden. Lear's tragedy is caused by insufficient knowledge - he has not ripened enough, or rather, he is over-ripe. A second meaning of "ripeness" is a state of mellowing,

like a fruit just before it drops off the tree, like Lear in his old age.2 Can "a very foolish fond old man" still be capable of achieving "ripeness", even when he has lost his sanity? Shakespeare seems to think so. When Albany tells Lear and his companions that order shall be restored and justice dispensed :

> During the life of this old Majesty,
> To him our absolute power : You, (Edgar and Kent)
>   to your rights,
> With boot and such addition as your honours
> Have more than merited . All friends shall taste
> The wages of their virtue, and all foes
> The cup of their deservings

Lear responds immediately with a brief final speech denying human - and divine - justice. At the end of it, he dies, so unobtrusively that Edgar thinks he has only fainted and tries to arouse him. The death of this hero is quite different from those of Hamlet, Othello or Macbeth, who play their roles to the very end. Lear slips away, his earthly sojourn over. Kent speaks his epitaph : "The wonder is he hath endur'd so long" (V,iii, 315 - 6).

The personages (types rather than characters) in the play together make up an idealised cross-section of humanity - good, bad and a mixture of both . Lear starts off by showing that he is unable to tell the self - seeking and calculated untruthfulness of Goneril and Regan from the naive honesty of Cordelia.3 In the same manner Othello, the gullible soldier, was deceived by "honest" Iago, but whereas Othello was inclined to jealousy and worshipped an abstract "honour" more than he loved his wife, Lear is an old man, long past his best . Goneril and Regan emphasise this - Goneril talks of her father's "poor judgement" in dismissing Cordelia and refers to "the unruly waywardness that infirm and choleric years bring with them" ; Regan agrees that " Tis the infirmity of his

age" but adds that "he hath ever but slenderly known himself". Her sister concurs with "The best and soundest of his time hath been but rash". Evidently Lear's judgement has always been affected adversely by his temper - his senility has merely made it worse .

Later, Lear banishes Kent, an old and faithful servant, because he stood up for Cordelia and spoke the truth too plainly. Both daughter and loyal retainer are rejected by the king, whose age has so affected his strength as to make him unable to control his own actions completely. Because the audience is made to realise in the very first scene that what Lear does is not entirely his fault, patience and sympathy are preserved for him from the start, and the conclusion that the old despot deserved what he got can never be drawn, though it must be admitted that Goneril and Regan did have provocation and that their father's behaviour, as described by Goneril in I, iii and iv, had become hard to endure. Endurance is not their strong point, but Shakespeare gives his audience no chance to build up sympathy for them :

> I would breed from hence occasions, and I shall,
> That I may speak : I'll write straight to my sister
> To hold my very course

says Goneril at the end of end of I, iii and in I, iv she tells Lear to his face what she thinks he has done to the court because he cannot control his hundred knights and squires :

> ... epicurism and lust
> Makes it more like a tavern or a brothel
> Than a grac'd palace
>
> (241 - 3.)

Her solution, to reduce the number of retainers and get rid of the younger men, is harsh but practical, and Lear's reaction is to abuse her in the lowest terms, calling her "degenerate bastard" and "detested kite" - terminology which suggests a lack of control. He is less immediate in his response to Regan when she supports Goneril's policy towards him in

II, iv, concentrating his insults on the latter -

> thou art a boil,
> A plague-sore, embossed carbuncle,
> In my corrupted blood
>
> (221 - 3,)

but later launches into a vague threat, pathetic in its very impotence:

> ... you unnatural hags,
> I will have such revenges on you both
> That all the world shall - I will do such things -
> What they are yet I know not, - but they shall be
> The terrors of the earth .
>
> (276 - 80)

Lear's chaotic speech, so different from the formal rhetoric of his initial addresses, reflects his mental disorder or his frustrated rage, and finally childlike wonder as he comes to realise his fate. This is a gradual process, on which the commentator is the Fool, first introduced at the beginniing of Act I, scene v. He is the only one who tells the King the truth about himself, after Kent's banishment, and makes the audience less critical of Lear's absurd behaviour by evoking laughter. He is base while Lear is noble; he is full of common - sense while Lear is foolish - the Fool is no fool, while the King is . In the storm scene in Act III, the Fool seems the closest to sanity of the four personages who take part; he is assuredly the only member of the quartet still in the position which he normally occupies, and even he is a paradox, wise when one expects him to be "foolish" or "clownish" . His death is the last straw for Lear, after that of Cordelia, and his last coherent thoughts find agonized words, "Thou'lt come no more". Then Lear dies imagining that he is seeing Cordelia's lips move - surely somebody whom he loves has been preserved after all ? Hope is with him to the end, in spite of the horrors; the human spirit is not to be crushed, even though the hope is fantasy, for in the real world, Cordelia, like the Fool, is hanged and dead, acts without conceivable meaning.

Judged realistically, the skeleton of the plot is inclined to absurdity, though the figures who move through it are too much "drenched in flesh and blood" to permit Lear to be considered simply as myth or as an allegory about the seeming thanklessness of children and their desertion of their parents.The quarrelling is reflected in civil war, and the conflict is illuminated by the storm scenes, which shatter the peace of the universe. However, the difficulty of seeing the play at any one level or in any one context makes it appear very large in conception - "too huge for the stage", in Bradley's words.4 It also deals with kingship and the way in which power tends to corrupt. As the drama proceeds, Lear gradually realises the terrible mistake he has made and undergoes a change, firstly by admitting that he had been wrong in expelling the one daughter who did love him without hoping for private profit. In this stage of change he is still a proud monarch, who thinks only of himself, and it is not until the storm scenes, when he finds himself in the same plight as the poor wretches on the blasted heath, that Lear recognises the common humanity which he shares with them.

Finally, he loses his reason as his world is destroyed, and a fresh Lear emerges. This Lear knows that a king is really only a man after all. He talks about justice and authority, and when he meets Cordelia again he is resurrected, a completely new human being. He has shed the trappings of kingship which prevented him from attaining his full stature as a mature man and made him reject love and humility. Now at last he has found his soul - charity, clear vision, sins forgiven, in a world of lust, cruelty and greed, with extremes of wealth and poverty. What a man needs in such a world is not material but spiritual props, that is to say, the traditional idea of Heaven.5 Lear finds this traditional Heaven, but here on earth:

> We two alone will sing like birds i' the cage :
> When thou dost ask me blessing, I'll kneel down,
> And ask of thee forgiveness : so we'll live,
> And pray, and sing, and tell old tales, and laugh

At gilded butterflies, and hear poor rogues
Talk of court news : and we'll talk with them too,
Who loses and who wins; who's in, who's out;
And take upon's the mystery of things,
As if we were God's spies : and we'll wear out,
In a wall'd prison, packs and sects of great ones
That ebb and flow by th'moon

(V,iii,9-19)

though it is ephemeral and only in his imagination in any case, like his final joy when he thinks that Cordelia is not dead after all .

The two most obvious conclusions to be drawn about the Lear universe are either that suffering produces goodness or that life is cruel and unreliable, with nothing to recommend it.6 All the principal characters talk about the powers which rule the world, asking themselves whether these are interested, disinterested, or actively hostile to Man's aspirations to good. The wicked characters, Goneril, Regan, Edmund, say little about ruling powers or supernatural control of men's actions; the good characters all talk about the "Gods" who are kind and just, and the play reveals that evil IS quickly punished and that everyone gets a mixture of harsh and merciful treatment, or sometimes simply harsh, according to his or her just deserts - there does appear to be some connection, however vaguely stated, between what these people do, or have done, and what happens to them.7 Nowhere in the play is "Fate" actually mentioned, nor is there any sense of a divine plan or ordered universe where everyone has a place.

The high point or climax of Lear, unlike those of the other tragedies, is not easy to detect. It may come in III, vi, 105-110, a passage, previously noted, in which Edgar offers a short soliloquy after Kent, Gloucester and

the Fool have carried the sleeping Lear away, enjoining men to share burdens because this is the only way to make them lighter. But dramatically this is a "low" point and encourages the critic to seek alternatives. The summit of Lear's emotional performance seems to be reached in the opening lines of III, ii, when he defies the elements.

> Blow, winds, and crack your cheeks ! rage ! blow -
> You cataracts and hurricanoes, spout
> Till you have drench'd our steeples, drown'd the rocks!

and dares the thunder to

> Strike flat the thick rotundity o' th' world !

but this is a rhetorical and not a dramatic climax. Closer to the heart of the matter is Lear's realisation, shown in III, iv, 28 - 36, that others suffer as well as he, those

> Poor naked wretches, whereso' er you are,
> That bide the pelting of this pitiless storm,
> How shall your houseless heads and unfed sides,
> Your loop'd and window'd raggedness, defend you
> From seasons such as these ? Oh ! I have ta'en
> Too little care of this. Take physic, pomp;
> Expose thyself to feel what wretches feel,
> That thou mayst shake the superflux to them,
> And show the Heavens more just .

Shakespeare seems to be suggesting that the meaning of life may only be revealed through charity (i.e. love, as defined by St. Paul in the **Epistle to the Corinthians**), love of neighbour, the antithesis of pride and pomp. Later, Edgar is made to say,

> Do poor Tom some charity, whom the foul fiend vexes
> (58 - 9).

and in the last Act he tells Edmund, "Let's exchange charity" (iii,165), which means, in this instance, let's exchange forgiveness, an exchange which, it must be said, is dependent on a blood equality between the two. Thus, although the ending of the play is utterly miserable, with no material hope visible or conceivable, the sense of a justice somehow connected with charity in these two definitions makes the final scene less intolerable.

It may be, however, that although this last was Shakespeare's view capable of being imaginatively reconstructed as an historical inheritance handed down by way of Graeco-Roman and late mediaeval European traditions, it cannot be ours. Christian influence demanded that fiction should uphold principles of moral judgement and just reward or punishment.[8] On the stage, at any rate, a man ought to get what he deserves. The great Christian tragedy was that of Man's Fall - he had perfection bestowed upon him, but threw it away by trying to deceive God and ever since has been trying to get it back. The world was to be seen as a stage, on which is being played out a great drama of Good versus Evil, often with unexpected results but tending to moral goodness. This was the mediaeval inheritance and, on the whole, Elizabethan playwrights (and Victorian critics) accepted it . But after the frightening first three-quarters of the twentieth century and our greater knowledge of human biological functions, it is difficult for a modern audience to swallow Bradley whole.

Lear certainly gets nearer than the other tragedies to the general nastiness of human existence, largely because it is less specific and more of a myth. Throughout the play the central idea of endurance, patience and sufferance is stressed, so that abstract qualities like justice may be considered according as they are exemplified in the relations of one character with another. Is it just to treat a man like a beast ? Why

should a bastard not be treated as a legitimate son ? Why should guiltless people be mistreated ? In this atmosphere death is not something to be feared, as the mediaeval man feared it, but to be welcomed as a relief from pointlessness and black unfathomable boredom - what the Italian poet Leopardi later called "noia" - Shakespeare's "ripeness is all" urged men to endure the flat, stale, unprofitable and the savagely cruel.

Is this the limit of the poet's tragic vision ? Is there learning in suffering ? Has a man missed something when he lives a soft life ? If so, what has he missed ? Is it worth having ? John Stuart Mill posed the problem in terms of a graphic image asking whether it was better to be Socrates dis-satisfied or a pig satisfied ?'9 Over 2300 years earlier Sophocles in Antigone stated the Stoic view - "For mortals there is no escape from the Misery that is in store for them". Mill decided that the nature of the individual determined the answer, and that Socrates and a pig had different natures. The views of Sophocles, Shakespeare and Mill are here similar, and the modern Existentialists 10 tend to recommend a Stoic position. They see men as existing out of place in extreme situations, all displaced persons, unsheltered and exposed, like Lear on the blasted heath, and compelled to strive against the enticement of comfortable solutions. Man's Essence is nothing but his Existence - Being (which requires the predicate IS), can only be approached if it is related to a concrete "being" and only Man can ask questions because he is an exceptionally privileged being, capable of relating himself to other beings. The inroad into the totality of Being is therefore through Man and only through Man. It he wills it, Man may withdraw from his own Being by suicide and self-sacrifice - animals are part of their own Being and cannot withdraw but Man can be concerned since he must bear the burden of his own Being though he is unable to break out without self-destruction . His advantage over

the brute lies ironically in his capacity to make his own quietus, a rational decision to escape.11

Man's Essence is to be comprehended from his Being in the world - for him Existence is prior since he is IN the world, that is to say, he is thrown right into the world and feels the brute fact of his own being. In spite of the unintelligibility of Being he has freedom to will his own finiteness, to project his own death and thus attain ultimate nothingness. This is positive experience which makes an individual aware of Being itself, i.e. that there is something and not nothing, and this is the wonder which transcends all wonders. Greek thinkers, on the other hand, held that out of nothing nothing comes. The Greeks understood Being only in relation to the cosmos, the ultimate totality, and had no place for Man's contingent existence; the Christian tradition of ontology is similar, transplanted as it in the doctrine of the Creation.12

Lear's attitude is conventional - when he asks Cordelia to speak of the extent of her love for him, the answer is beyond his capacity to grasp :

Cor. Nothing my lord .
Lear. Nothing ?
Cor. Nothing .
Lear. Nothing will come of nothing : speak again.

(I, i, 86-9)

Macbeth is sure that he understands that nothing IS and what it means for him, for he describes life as "signifying nothing" (V,v,28) and chooses, though reluctantly (and ironically, since he has only the illusion of choice left to him), to fight to the death, that is, exchanging one form of nothing for another. Macbeth, therefore, has answered one

of Hamlet's questions, what Hamlet called **the** question - "To be or not to be ?" Ripeness IS all, and a man in fact is lucky if circumstances provide him with the ripest moment for shuffling off this mortal coil . Of the four heroes, only Macbeth departs at the right, or "ripe", time - Hamlet might have been a good king "had he been put on", Othello "was great of heart" and might have served the state further, Lear might have retired in his dotage and died respected in his bed, but Macbeth had reached his absolute limit13 - the "brave Macbeth" and "Bellona's bridegroom" of Act I is "the dead butcher" of the final speech of the play. Like Macbeth, "his fiend-like Queen" chose her own moment to die, "by self and violent hands" . Macbeth is what Kierkegaard described as an "aesthetic" hero, but Lear's failure is closer to life as the modern existentialist perceives it - "nothing" is endowed with a creative signifcance, for from possible nothingness all Being as such emerges.14

NOTES

1 — All quotations and textual references to **King Lear** relate to the Arden edition, ed. Kenneth Muir (London 1972) .

2 — **Romeo & Jul, II, ii, 121; Ant. & Cleo, II,** vii, 103 (to develop into something) . Ripe/-ness, as used by Shakespeare elsewhere, e.g. **Hen VII, IV, ii, 51 : Two G ntlemen of Verona, II, iv, 70** (maturity of judgement); **Hen V,I,II,121** (quite prepared for action) : **Jul Caes**, IV,III,215 (arrived at a fitting stage for some particular purpose) . Cf . **OED**, vol . VIII (rev . edn . 1970) .

3 — Lear's attitude to his children is paralleled by Gloucester's attitude to his, Both Lear and Gloucester receive kindness from the child

whom they have wronged and abuse from the child they favoured. A second parallel between Lear's madness and Gloucester's blindness is likewise obvious - physical loss of sight enables Gloucester to learn about Edmund's perfidy, just as Lear, driven mad, gains a clear vision of humanity. Like Othello, both Lear and Gloucester learn the truth too late. (Cf. also n. 7, **infra**) .

4 — A.C. Bradley, **Shakespearean Tragedy** (London, 1932 edn.) 247.

5 — cf . G . L . Bickersteth , **The Golden World of 'king Lear'** (Lonodon 1947) noted by Muir, **ed.cit., introd., 1**

6 — 19th-century assessments of **Lear**, like Bradley's, argue that it takes a poetic imagination to appreciate the mass and variety of intense experience contained in the play. Edward Dowden, an Irish Victorian whose 1875 study of Shakespeare is still valuable, said that Shakespeare sees men "walking in a vain shadow; groping in the mist; committing extravagant mistakes, wandering from light into darkness, stumbling back again from darkness into light, spending his strength in barren and impotent rages; man in his weakness, his unreason, his affliction, his anguish, his poverty and meanness, his everlasting greatness and majesty" (**Shakspere : his Mind and Art**) .

7 — Deception is another strongly-defined pattern in **Lear** (and in the other tragedies and "dark comedies" where "seeming and being" puzzle the protagonists. Lear's daughters deceive him, Edmund deceives Edgar and Gloucester, Goneril and Regan mistrust each other and Edmund deceives both of them. Goneril deceives her husband, Albany, and her steward, Oswald, is disloyal to her. Cornwall's seemingly faithful servant turns on his master and

slays him as he is about to put out Gloucester's eye. The blinded Gloucester is deceived into thinking that he is on the edge of Dover cliff, and Lear deceives himself into believing that Cordelia is still alive during the final moments of his own life. The contrast between professed or false love and true affection is made by Cordelia, Kent, Edgar and the Fool, who denote a pattern of fidelity. False love, with gain as its object, is seen in Goneril and Regan for Lear, Burgundy for Cordelia, true or disinterested love in Cordelia for Lear, France for Cordelia .

8 — Graeco-Roman notions of tragedy were not primarily associated with crime and punishment; for the Greeks, man was fated to commit certain acts and did so because he could not help himself and inevitably received his divine punishment. The Romans viewed the matter more simply; man received what Fate had in store for him, had good or bad luck, and nothing he might do could possibly change it. Fortune's wheel might spin favourably for an evil man, and bring disaster on a good man. But this was not "tragedy" in our (modern) sense of the word but instead just an appalling piece of ill-luck - dramatic art requires the relationship of cause and effect here, otherwise the result is crude satire.

9 — in **Utilitarianism** (1861).

10 — " La première démarche de l'existentialisme est de mettre tout homme en possession de ce qu'il est et de reposer sur lui la responsibilité totale de son existence" (Sartre) .

11 — In **Lear**, the symbol used to denote the savagery in man is that of the beast, and for a century critics have been pointing the significance of this feral symbolism in **Lear, Othello, Timon of Athens**

and elsewhere. Cf. Muir, **ed. cit.** introd. liv and Wolfgang H. Clemen, **The Development of Shakespeare's Imagery** (London, 1953), 148-50

21 — Modern existentialists (e.g. Heidegger) talk of the "abyss"(**Abgrund**), for freedom is itself bottomless, and reject both Greek and Christian ontological traditions. But one must really start with Pascal, for whom man's thought was becoming non-individual, Kierkegaard, who complained that Hegel's system made *thinking* impersonal, and Husserl, a scion of the Lutheran Church, who distinguished between ethical arguments and action, demanding in the cause of Truth not merely reflection but also suffering .

31 — **Macbeth** is the only one of Shakespeare's tragedies wherein the hero achieves a balance between the physical and the mental. Hamlet's reason fails and he brings himself to act only through his emotions - a blind leap in the dark. Othello is no thinker and through his own pig-headedness and gullibility allows himself to be led astray . Lear is physically too weak to translate his passions into violent action. Macbeth is not led astray by voices, suspicions or the pressure of traditions, nor is he in any sense weak. He moves towards the proper balance desirable in a man. Because he is at the peak of his bodily and intellectual powers he requires no ceremonial or other props, and, as he gradually advances along his ordained path, he ceases to regard external influences. From the very beginning he is ready to accept full responsibility for his own actions, wants to know the answers from the witches, notes the literal meanings of words and questions every step (I,iii,70;87; 109). He finally believes what he is told only when he is in possession of confirmation and is reluctant to come to conclusions prematurely; his letter to Lady Macbeth (I,v) imparts the literal truth. It is true that his strategy becomes narrower and more

and more limited to violence, but his logic accompanies him all the way to the very end, until there is nothing left for him but to fight his last fight in the heroic manner.

14 — Heidegger held that everything **Is**, but without having consciousness of Being, thus allowing Maritain to refer to "the existentialism of St.Thomas", which is confusing when one considers Sartre's atheistical position. Heidegger, however, believed that language was the whole of Being - words are tools for Man, who is the only being who knows his own Being and can question it.

WILLIAM LITHGOW, THE SINAI PENINSULA AND THE SEARCH FOR PARADISE

by

Shaun McCarthy

William Lithgow's **Adventures** are rarely read these days; the most recent full edition - published in Glasgow in 1906 - is something of a rarity. (1) But in the years following its first publication in 1614 it was a well-known and in some ways an influential book; it was republished in 1616, anthoiogised in **Purchas His Pilgrimes,** and the later complete version (including Lithgow's Second and Third Journeys) went through three further editions before the turn of the century. It is the First Journey, however, which is of interest to us here, and in particular that final section which describes his trek from Jerusalem towards Cairo across the Sinai Peninsula. The word "trek" is chosen advisedly, since - if his word is to be believed - he walked every step of the way, and this in the month of May ! Since the other members of his party were furnished with "Camels or Dromidories to ride upon ... for nineteene Piasters the man." his persistent adoption of what he calls the "pedestrial" mode should probably be attributed to sheer meanness. Certainly, he gives no other reason.

Apart from contributing in this way to the legend (for such it must be accounted) of Scottish parsimoniousness, Lithgow's accounts of his journey are remarkably factual ; for this reason, here as elsewhere, his word is indeed to be believed. Such errors as he falls into can generally be indebted to the obvious difficulties of keeping accurate written notes while engaged on hazardous and exhausting journeys - never to a wish to romanticise or dramatise their background. The **Adventures**, therefore, mark a significant break with the great travel chronicles of the Middle Ages and with such "histories" as those of Joinville, which characteristically record fact and fantasy with equal diligence and make little effort to distinguish between the two (revealing in this way the close etymological links between the English words"story" and "history.") Though certain passages show him to have been, by modern standards, somewhat over-credulous, Lithgow reveals, in contrast, the new scientific spirit of the seventeenth century, properly mingled with a traditional Scottish "canniness" - Erasmus had remarked, a century earlier, on the "logical sense" of the Scots - and describes virtually nothing that he has not seen for himself; this, indeed, he claims in his preface to be his book's chief merit. His narrative has for the most part the plainness and clarity that we now associate with the "scientific" prose style advocated by Thomas Sprat in his famous address to the Royal Society, (2) though rather interestingly linked with frequent attempts at a more ornate and Latinised vocabulary - "pedestrial, " "umbragious," "ruvidous," "sequestrate," are among his favourite and typical pre-Miltonisms. Such infelicities - if as such we regard them - may today amuse us, but do not, of course, detract from the accuracy of his descriptions .

Lithgow was in no way an "explorer" - he was simply an inquisitive and observant traveller, and sometimes, like the hero of Nashe's novel, an unfortunate one. He never strayed very far from well-known and

recognised commercial routes. But the Middle East he visited was that dominated by the Ottomans, at a time when Islamic civilisation and culture had reached, perhaps, its lowest ebb. Contemporary European records of this scene are not very numerous, and to compare Lithgow's with other accounts will not be very profitable. It will be of much greater interest to see how his recordings stand in relation to the general European concept of Arabia, as such popular ideas have developed between Lithgow's time and the present day.

The seventeenth century is the period in which one can first detect, in European thought, a movement from the pastoral ideal towards Romantic primitivism. The pastoral idea attributes all manner of human virtues to the members of non - and never-existent societies, flourishing in an imaginary "Golden Age"; the primitivist ideal attributes such virtues to existent but technologically backward societies, usually subsisting on an agricultural or a pre-agricultural economy. (It can hence be viewed as part of the Romantic reaction to the industrial revolution, and may require quite as strenuous an act of the imagination as does the other.) The nomadic life-style of the desert-dwelling Arabs, their physical hardiness, chivalric traditions and generous hospitality have often aroused the admiration of European nations - especially the British and the French - and constitute (like the comparable qualities of Fenimore Cooper's American Indians) an ascetic primitivist ideal assimilable, in many ways, by the puritan philosophy. Such admiration - though no doubt flattering - can be a considerable embarrassment to the modern Arab, who may well be on the one hand aware that the sophistication of his native cultures is every whit as complex as the European, and - on the other hand - conscious of the extent to which Western romanticism may hinder much-desired technical advances in regions where human life may tend to be - as a clearer-sighted and pre-Romantic philosopher once described it - "nasty, brutish and short." (3)

"The philosophes," as Crane Brinton has said, "loved to invent wise Persians, Chinese, Hindus, Hurons and South Sea Islanders who, coming in contact with European ways, brought to the criticism of Europe the wisdom of their own points of view . The trouble is ...... these non -Europeans are no more than fictions, straw men, sticks with which to beat something Western, and no proof at all that we Westerners have really learned at high ethical and metaphysical levels from other peoples. "(4) Lithgow is laudably little concerned with "invention" of this kind. Himself a man of abnormal physical toughness, he would have been temperamentally unlikely to concede to any man, Arab or European, a hardihood greater than his own ; as for ethics and metaphysics, these are matters outside his sphere. It is all the more interesting to observe what must be one of the first hints of the modern primitivist fallacy in his description of the cave-dwelling Arab women of the Northern Sinai and his comparison of them with the pampered ladies of Western Europe :-

... Their beds were made of soft Sand, and over-spread with leaves a foote thicke; whose new borne Babes lying in their armes, were swadled with the same Leaves . And for all their Sicknesse, which was very small, they had none of our Wives sugred sops, burnt Wines, Venison pasties, Delicate fare, and great Feasting, not a moneths lying in, and then Churched, putting their husbands to incompatible charges. No, no, their food is onely Bread, Garlicke, Hearbes, and Water, and on the third or fourth day, in stead of their Churching, they goe with Bowes and Arrowes to the fieldes againe, hunting for spoiles and booties from passing Caravans ......

(171)

Again one may suspect that it is not the stoicism of the women so much as their admirable avoidance of needless expense which appeals

to Lithgow, but the implied rejection of what we would now call a "consumer society" is clear enough . His view of the Sinai Arabs is otherwise highly uncomplimentary, and his blunt characterisation of them as "Savages" might be thought offensive, were it not clear that his encounters were uniquely with small nomadic communities living in pre-Islamic conditions and dedicated to brigandage . He confirms, both here and elsewhere, that the bow and arrow (as Walter Scott suggests in **The Talisman**) is the characteristic Arab weapon ; but it is a little surprising to learn that the women of the tribes participated in caravan raids, and probably as effectively as the men . Lithgow's narrative is generally enlivened by the description of a whole series of such attacks :-

We incountered with such deep sandy ground, that the Mulets were not able to carry our Company through : Whereupon they all dismounted, wrestling, and wading above the middle part of their bodies, and sometimes falling in over their heads, they were in great danger of perishing, although the robustnesse of my body carried mee through on my feete ... Even in the middest of this turmoyling paine, (the night being darke) the unwelcomed Arabs, environed, and invaded us with a storme of Arrowes, which they sent from the tops of little hard hils, whereupon they stood, for knowing the advantage of the ground : they tooke opportunity to give the more feareful assaults : yet they prevailed nothing (although they wounded some of our Souldiers) such was the resolute Courage of our valourous Defendants. True it is, that in all my travailles I was never so sore fatigated, nor more fearefully indangered, as I was that night ...

(152)

Though Lithgow was given an equally inhospitable reception in several parts of Europe - notably France and Spain - later in his travels, his final "Epitomised" description of the Arabs of the Sinai may not, in the circumstances, be thought overweighted with prejudice :-

The people generally are addicted to Theft, Rapine and Robberies: hating all Sciences Mechanicall or Civill, they are commonly all of the second Stature, swift on foote, scelerate, and seditious, boysterous in speech, of colour Tauny, boasting much of their triball Antiquity, and noble Gentry ...

(172)

We are certainly in any case far removed from the romanticised "noble Saracen" of Sir Walter Scott and the extravagances of Beckford's **Vathek**.

The Near East was in a certain sense well-known to the average educated Englishman of the seventeenth century, who was acquainted with the geographical background of the Classic authors and to whom the religious controversies of the time had made the topography of the Holy Land and its surrounding regions a matter of interest and concern. Even such an early work as **Tamburlaine** shows, for all its colourful rhetoric, attention to geographical exactitude, (5) and Milton's geographical and astronomical references are notoriously precise. At no time before or since, in all probability, has the Near East of the Bible been more familiar to the English; yet this familiarity is strangely theoretical. Thus it is curious to see (for example) Lithgow refuting the apparently prevalent idea that the Red Sea is really red in colour. And while he is fully aware of the religious significance (to Christians) of many of the towns and sites he visits, his descriptions of them may be called "scientific" also in the sense that they are totally untouched by any kind of mystic awareness. (We may again be reminded here of the close links between rigid Protestantism and the scientific spirit.) Lithgow's interest is that of the intelligent present-day tourist, of a peregrine Pepys; he goes to very considerable (and literal) pains to scale the mountain of Quarantanam (supposedly the scene of Christ's temptation by Satan)

only, on arrival at the summit, to survey the view with the complacent approval of Bouvard and Pecuchet at the seaside :-

... Where after diverse turnings, traversings, and narrow foot passages having come with great difficulty to the top, we entred first into an umbragious Cave, Joyning to, and under the Chapell, where the Frier told us, that in this place Christ did fast forty dayes : and here it was, where he rebuked Sathan . The Chappel which covereth the top of this high and steepy Rocke is covered, and also beautified, with an old Altar : betweene the outward sides whereof, and the craggy face of this mountaine, two men may only go side to side : Here we dined and refresht our selves with water that I carried on my backe hither : From which place we saw the most part of all the Holy Land, except the North parts, and a great way into Arabis ......

(156 - 7)

The description of the mountain climb may recall the most famous lines of Donne's Third Satire (probably composed some ten or fifteen years earlier, but not published till 1633) :-

On a huge hill,

Cragged, and steep, Truth stands, and he that will
Reach her, about must, and about must go;
And what the hill's suddenness resists, win so ...

— but in "Truth"of a transcendental kind Lithgow is not even remotely interested. We may in much the same way compare the great simile in the First Book of *Paradise Lost,* wherein the fallen angels are likened to -

scattered sedge
Afloat, when with fierce winds Orion armed

Hath vexed the Red Sea coast, whose waves o'erthrew
Busiris and his Memphian chivalry ...,

with Lithgow's characteristically prosaic and informative account :-

The Red Sea, which we left to the Westward of us, and our left hand is not red, as many suppose, but is the very colour of other Seas : The reason for which it hath beene called **Mare rubrum**, is only because of the banks, rushes, sands & bushes that grow by the shore side, which are naturally red. Some others have called it so, in respect of the Brookes, which Moses turned to red blood, who misconstruing the true sense, tooke Seas, for Rivers. This Sea is famous for the miraculous passage of the Israelites through it, and the drowning of Pharaoh and his people : and because of Spices that were brought from India and Arabia to Alexandria, from whence the Venetians dispersed the same through all Europe and the Mediterren coasts of Asia and Africa : But this Navigation is now discontinued by the Portugals, English, and Dutch; which bring such Wares to their severall homes bv the backe side of Affricke : So that the Trafficke of Alexandria is almost decayed, and the Riches of the Venetians much diminished; so is the vertue of the Spices much impayred by too much moisture contracted, with the long and tedious carriage thereof ......

(174)

To read Lithgow and authors of a similarly inquiring mind (such as Aubrey and Evelyn and Burton) in conjunction with Milton and the Metaphysicals is to see more clearly how little seventeenth-century writers were affected by what Eliot has called "the dissociation of sensibility" : "in the seventeenth century," Lawson Dick has said, "learning was part of the joy of life, just as much as drinking or love-making ...... and educated men naturally sought their recreation in the study, rather than on the golf-course."(6) Lithgow finds the

movement from Biblical history to political economy so easy and natural as hardly to seem to involve movement at all; it is in just this way that the Metaphysicals achieve their "conceits". And Lithgow's lack of metaphysical concern, the "scientific" bent that I have here tried to emphasise - this often has the paradoxical effect of demonstrating a more basic mental affinity with the habits of poetic thought common in his own age .

Of course his work has very little smack of "the study" in any formal sense, and it may, I suppose, be readily guessed that one great concern of the Metaphysicals finds little echo in his writings :- that interest in Middle Eastern matters which springs, not merely from antiquarianism, but from the idea that the area is peculiarly rich in those "vestiges" of Paradise, of the early days of Creation, that enable the enquiring mind to pursue through the Holy Land the tracks of God .

A Virgin-soile, which no
Rude feet ere trod,
Where (since he stept there) only go
Prophets, and friends of God... (7)

"Man, enlightened by Biblical revelation, can grasp the Vestiges, the "traces," of God in external nature; and from this knowledge he can then turn inward to find the Image of God within himself".(8) This idea, which goes back to the medieval Augustinians, is given clear expression in the Eleventh Book of **Paradise Lost,** wherein Michael reassures Adam of the omnipresence of God throughout "all the earth":-

Yet doubt not but in valley and in plain
God is as here, and will be found alike

Present, and of his presence many a sign
Still following thee, still compassing thee round
With goodness and paternal love, his face
Express, and of his steps the track divine ......

Thus the endeavour of the natural scientist in the seventeenth century would often be to seek for knowledge as Peter Sterry (Cromwell's chaplain and Milton's colleague) defines it : " ... Knowledge, springing in the Soul, seems to be ... an awakening by reason of the primitive Image of pure Nature raising it self by degrees, and sparkling through the Rubbish, the confusions of the present state". (9) From such contentions are derived Wordsworth's theories of childhood, as expressed in the **Immortality Ode,** and the idea that the child - like the primitive - constitutes an "Image of pure Nature" ; while the emphasis on **reason** as the vital agency profoundly affects the religious and philosophical thought of the eighteenth century. Characteristically, Vaughan sees the process in allegorical terms as a journey across desert sands :-

O how I long to travel back
And tread again that ancient track!
That I might once more reach that plaine,
Where first I left my glorious train,
From whence th'Inlightened spirit sees
That shady city of Palm trees ...... (10)

Lithgow's was an eagerly inquiring yet not a speculative intellect ; but in undertaking precisely such journeys, he supplied through his records material to those more studious-minded souls who, seeking for the earthly Eden, sought it inevitably in the image of a miraculously fructiferous garden. "Paradise," Sterry wrote, "was the Similitude and Presence of God in the whole Creation. The Creation was a Garden."(11)

And precisely so, of course, does Milton describe it. As for Lithgow,

... The next day we travailed through a fruitful planure, fraught full of fruite Trees, and abounding in Wheate, Rye, and Barley, being new cut downe, May 14.For this was their first Harvest, the Land yeelding twice a yeare Cornes ; and the latter, is in our December recoiled. The Land hath as it were a continuall Summer, and notwithstanding of the burning Heate it produceth alwayes abundance of Fruites and Hearbes for all the Seasons of the yeare : So that the whole Kingdome is but a Garden, having ever one Fruite ready to be plucked downe, and another coming forwards ......

(175)

Lithgow may have been aware how closely his description parallels those of the Earthly Paradise in Ariosto, Tasso, and in Spenser :-

There is continuall spring, and harvest there
Continuall, both meeting at one time ......

and Andrew Willet in 1608 - the year before the commencement of Lithgow's journey - had suggested in his **Hexapla** that in Eden "in the beginning trees did beare fruit in the yeare more than once." (12) Lithgow's confirmation of these hypotheses, as can be seen, is severely factual, even to the detailed noting of the precise date of his observations ; yet here again we may sense how far this interaction of documentary recording and traditional poetic imagery is characteristic of the seventeenth century mind. A new **Road to Xanadu** remains to be written about the influence of the great travel writers of the immediately precedent age upon Milton, the Metaphysicals and the Augustans. (13) Mention therein might also be made of their influence upon the development of the novel, which in its early form reflects with clarity the patterns and movement of the travelogue .

"This laborious worke of mine," Lithgow stated in the Prologue to his **Adventures,** " is only composed of mine own eye sight, and ocular experience ...... To the wise I know it will be welcome, to the profound Historian, yeeld knowledge, contemplation, and direction, and to the understanding Gentleman, insight, instruction, and recreation. " He imposed limitations upon himself that (as Leavis said of Jane Austen) it is his distinction to have kept ; yet in his later career the strange many-sidedness of the seventeenth-century Briton is manifestly revealed - he was a poet of a kind, (an atrocious kind, admittedly,) an effective military historian, (14) a polemical theologian (and author, as such, of **The Gushing Tears of Goodly Sorrow, containing the Causes, Conditions and Remedies of Sinne,)** and is also the probable author of the anonymous **Scotland's Paraenesis to her dread Sovereign king Charles the Second** (published in 1660) . All these other and varied literary achievements have been for the most part, and very properly, forgotten ; yet it will be a pity if the **Adventures** suffers a similar neglect, for reasons that I have here tried to show . At his best, Lithgow links the manic energy of the Elizabethan pamphleteers to that wider and profounder, if more ponderous, mode of thought characterising the prose of Milton and of Hooker. "If good Bookes may be termed wise guides, then certainly true Histories may be termed perfite Oracles, secret Counsellors, private Schoolemasters, familiar friends to cherish knowledge, and the best Intelligencers ; being duely pondered, and rightly used." Only, perhaps, in the **Areopagatica** is the seventeenth-century attitude to learning - and, by implication, to foreign travel as a mode of education - been better summarised .

NOTES

1 — The full title is **The Totall Discourse of the Rare Adventures and Painfull Peregrinations** by William Lithgow. The most easily available edition is the abridged version edited by B.I. Lawrence

and published by Jonathan Cape (1928) ; this, for the sake of convenience, is followed here. Page references are placed in brackets at the end of each citation, and I abbreviate the title to **Adventures** throughout .

2 — The Royal Society was of course formed in 1662, fifty-odd years later. Sprat urged its members to adopt "a close, naked, natural way of speaking in positive expressions, clear senses, a native easiness, bringing all things as near the mathematical plainness as they can ; and preferring the language of artisans, countrymen and merchants before that of wits and scholars".

3 — Hobbes, **Leviathan**, pt.1, chap. 13 .

4 — Crane Brinton, **The Shaping of the Modern Mind**, (1953), p. 243.

5 — A pioneering study here is that of Ethel Seaton, "Marlowe's Map," **Essays and Studies**, (1924), which shows his familiarity with Ortelius' **Theatrum Orbis Terrarum** and other geographical authorities of the time.

6 — Oliver Lawson Dick, intro. to Aubrey's **Brief Lives**, (Penguin, 1972), p. 34 .

7 — Henry Vaughan, "The Match."

8 — Louis L. Martz, **The Paradise Within**, (1964), p. 18.

9 — Sterry, **A Discourse of the Freedom of the Will**, (1675), p.99.

10 — Henry Vaughan, "The Retreat."

11 — Sterry, cit. de Sola Pinto, **Peter Sterry, Platonist and Puritan,** (1934), p. 161.

12 — The whole controversy stems from **Genesis,** i. 12, in which God commands the earth to bring forth simultaneously "the bud of the herb" **(herbam virentum)** and trees bearing fruit. Hence Eve's rejoinder to Adam in **Paradise Lost** - "Small store will serve, where store, / All seasons, ripe for use hangs on the stalk ..." But from very early times the Christian concept of Paradise had been confused with the pagan and Classical concepts of Arcadia and of the Golden Age (mentioned earlier in this paper) ; thus Lactantius, writing in the 4th century A.D., may have inspired the author of the Anglo-Saxon poem **The Phoenix** :-

Harvests never fail, the gleaming fruits,
but trees stand ever green, as God commanded.
Winter and summer alike the trees are hung with fruit ...

Milton, of course, takes advantage of this time-honoured confusion to introduce references that might seem, in the context of **Paradise Lost,** quite inapposite :-

... universal Pan
Knit with the Graces and the Hours in dance
Led on the eternal spring ...

but which were fully acceptable to a seventeenth century audience familiar with this kind of interaction of pagan and Christian imagery. This is not the place to develop this subject further or to outline the heated contemporary arguments as to Eden's exact location; but I am grateful to Prof. Christopherson for amplifying this note.

13 — John Livingston Lowes' classic study **The Road to Xanadu** explicates many mysterious references in Coleridge's **Kubla Khan**

MANSFIELD PARK - A FLAWLESS MASTERPIECE

by

P.J.M. Scott

"My Mother - not liked it so well as P. & P. - Thought Fanny insipid. - Enjoyed Mrs. Norris". 1

Many and various are the opinions of **Mansfield Park** which the author herself collected just after its first publication, but we can now look back upon Mrs Austen's reaction as prophetic of the majority view in most of the 165 years which have passed since that date. Even committed Austenians have shaken their heads over this book. It was indeed Lord Macaulay's favourite, but he is an exception which probes the rule. Reginald Farrer calls it "Jane Austen's **gran rifiuto** ... alone of her books ... vitiated throughout by a radical dishonesty, that was certainly not in its author's own nature".2 D.W. Harding speaks of "The priggishness of **Mansfield Park**" which "is the inevitable result of the curiously abortive attempt at humility that the novel represents". 3 And Edmund Wilson's defence of it is of a sort that leaves all the objections unanswered :

"It is true that I have not read it for thirty years, so that I have had time to forget the moralizings that bother Miss Kaye-Smith and Miss Stern, but the sensations I remember to have had were purely

aesthetic ones : a delight in the focussing of the complex group through the ingenuous eyes of Fanny, the balance and harmony of the handling of the contrasting timbres of the characters, which are now heard in combination, now set off against one another. I believe that, in respect to Jane Austen's heroines, the point of view of men readers is somewhat different from that of women ones. The woman reader wants to identify herself with the heroine, and she rebels at the idea of being Fanny. The male reader neither puts himself in Fanny's place nor imagines himself marrying Fanny any more that he does the nice little girl in Henry James's **What Maisie Knew**, a novel which **Mansfield Park** in some ways quite closely resembles. What interests him in Miss Austen's heroines is the marvellous portraiture of a gallery of different types of women, and Fanny, with her humility, her priggishness and her innocent and touching good faith, is a perfect picture of one kind of woman". 4

It is not only Kingsley Amis who denounces "that Jane Austen (if she ever existed) who set out bravely to correct conventional notions of the desirable and virtuous. From being their critic (if she ever was) she became their slave. That is another way of saying that her judgment and her moral sense were corrupted. **Mansfield Park** is the witness of that corruption."5 C.S. Lewis, who might be supposed to welcome the book's Evangelical elements and its four-square commitment to a very strict, even narrow interpretation of traditional morality, himself asks "How, then, does Fanny Price fail? I suggest, by insipidity... One of the most dangerous of literary ventures is the little, shy, unimportant heroine whom none of the other characters value. The danger is that your readers may agree with the other characters. Something must be put into the heroine to make us feel that the other characters are wrong, that she contains depths they never dreamed of ... In Anne [Elliott of **Persuasion**] Jane Austen did succeed. Her passion (for it is not less), her insight, her maturity, her prolonged fortitude, all

attract us. But into Fanny, Jane Austen, to counterbalance her apparent insignificance, has put really nothing except rectitude of mind; neither passion, nor physical courage, nor wit, nor resource. Her very love is only calf love - a schoolgirl's hero-worship for a man who has been kind to her when they were both children, and who, incidentally, is the least attractive of all Jane Austen's heroes". 6

It is Fanny of course who is the heart of the problem; so that all agree E.M. Forster (that warm admirer and best disciple of Austen's art) was taking a swipe back at the whole book with his bon mot "I always thought Fanny Price of Mansfield Park a mouse-trap, and that in Edmund Bertram she caught a nice fat mouse ." In making this young woman, who is much the least lively and most introverted,the most censorious and self-pitying of her heroines, the speculum and focus of her novel's debate, Austen can easily by felt to have placed this in a very restricted and imprisoning compass.

In my own view the novel is as perfect as need be and there is not enough space here (or perhaps anywhere) to canvass all its beauties and merits; so I fix upon three major cruxes as a way of opening out what I take to be the issues of the work ond in vindication of the author's handling of these : the theatricals at Mansfield, the Henry Crawford-Fanny Price relationship, and the ending. There are other things in this text which have disturbed or divided the critics, but these sequences have all been deemed the most perplexing or annoying.

Firstly, however, a recapitulation of the story.

Fanny Price, the daughter of a penurious Portsmouth-based Lieutenant of Marines, is introduced at Mansfield Park and brought up, from her tenth year, in this the Northamptonshire house of her

uncle-in-law and her younger aunt, Sir Thomas and Lady Bertram, through the officious charity of her mother's older sister Mrs Norris,who is soon left the widow of Mansfield's vicar and who spends most of her time at the manorial Bertram home. Quietly despised by her two female cousins, Maria and Julia Bertram, and teased by the heir to the baronetcy, Tom, Fanny is lonely until befriended by Edmund, the younger of the two boys of the family (then 16 and on holiday from Eton), for whom ordination and the livings of Mansfield and Thornton Lacey, in his father's patronage, are designed. Fanny is the Cinderella of the family. Mrs Norris turns out to have recruited her only to persecute her with perpetual bad temper, reproofs and aspersions upon her dependent status as a poor relation. In her accommodation and her role she is neither really a servant at the hall, nor a full member if the family. It is rather like that terrible fate, being a governness. When the other girls, as the years move on, go to dances, Fanny is left behind as a companion to the supine and almost mindless Lady Bertram. But this retired and quiet life she prefers to any other.

Sir Thomas's estate in Antigua giving cause for concern (for this - 1800 - is the time of the slave-riots and abolitionist legislation in the British West Indies) he and Tom sail there personally to supervise their holdings. During his absence Maria, now in her twenty-first year, contracts a mercenary engagement to a neighbouring squire whom she does not love or respect, Mr Rushworth (and of whom Edmund rightly remarks "If this man had not twelve thousand a year, he would be a very stupid fellow".) But matters become much livelier with the return of Tom Bertram, a spendthrift playboy, and the visit of Henry and Mary Crawford, the brother and sister of Mrs Grant, the wife of the new vicar of Mansfield, Mr Norris's successor. The Crawfords are witty, handsome, gay young Londoners of property who soon have

developed a busy social life with the siblings of the Park. Both the Bertram girls encourage Crawford to flirt with them - even on an expedition to Sotherton Court, the country mansion of Maria's husband-to-be; and Mary Crawford begins to reciprocate a growing attachment to her on Edmund's side. As they progress through the final summer before Sir Thomas's greatly delayed but now actually promised return in November (1802), Tom and a visiting friend, the Hon. John Yates (who "had not much to recommend him beyond habits of fashion and expense") propose that they recreate with a play. After much squabbling over a choice of vehicle in which each may shine the best, **Lovers' Vows**, a "hit" of the time, is fixed upon, and even Edmund's warmly urged scruples being ultimately overcome, the only thing which intermits the project's entire prosecution to a public performance is Sir Thomas's premature return home.

The theatricals episode has given trouble to every reader. We all know that the teenage Jane Austen herself, her family (a clerical household of strict principles) and friends performed plays in the barn at her home - and some of them plays no less "dubious"than **Lovers' Vows**; she even indeed wrote some for such exhibition. Yet Fanny who at first " looked on and listened, not unamused to observe the selfishness, which, more or less disguised' seemed to govern them all " (14, 131) in the matter of the choice of text, moves from feeling that "For her own gratification she could have wished that sometring might be acted, for she had never seen even half a ply, but everything of higher consequence was against it" (ibid.) to a revulsion of sick indignation at the very idea of this amateur show.

Are her reactions hysterical, are **Austen's** out of scale? Is the author advocating a supremely punctilious decorum for young people of the upper middle class such as never existed in her own life : and if so,

why with such passion?

To this problem Lionel Trilling returned again and again during his career. He deemed **Mansfield Park** one of the works of Literature most seminal to a true understanding of the whole current Occidental cultural phase (the Romantic Era of the eighteenth century to the present day) and yet his defence of Austen's handling of the theatricals has a note of strain. As late as 1970 he speaks of "the unequivocal judgement the novel makes that the enterprise is to be deplored,"8 reiterating the argument of his famous 1957 paper "Jane Austen and Mansfield Park" : 9

> "What is decisive is a traditional, almost primitive, feeling about dramatic impersonation. We know of this, of course, from Plato, and it is one of the points on which almost everyone feels superior to Plato, but it may have more basis in actuality than we commonly allow. It is the fear that the impersonation of a bad or inferior character will have a harmful effect upon the impersonator; that, indeed, the impersonation of any other self will diminish the integrity of real self."10

Yet this is wire-drawn by way of defence, for Plato's argument is unconvincing in itself and what the reader meets with in this text is a repugnance towards the scheme, which seems out of scale with what is proposed. Beginning the theatricals episode, Austen specifies that "a love of the theatre is so general, an itch for acting so strong among young people"(13,121), yet what they are meditating at the Park might, from the attitudes and language of the opposition, be a robbery or a murder. Edmund, who " begins to listen with alarm" to the scheme and, "determined to prevent it" (13,124), says "I think it would be very wrong", (125) speaks of it to Fanny as "a great evil" (adapted from 128). Fanny, conning the chosen text for the first time, is astonished "that it could

be proposed and accepted in a private theatre! " with its two main female roles "so totally improper for home representation" (15,137). Yet the only version of this German play (1791, of which the original title means "The Love-Child",) Austen and the Mansfield personages know and use is Mrs Inchbald's heavily bowdlerized translation of 1798. 11

Kingsley Amis is not irrelevant in reminding us that "a cursory reading will show **Lovers' Vows** is in fact innocuous rubbish", 12 and as R.W. Chapman remarks in the Note prefatorial to his valuable reprinting of the version in question, it "had a great vogue and was frequently reprinted; a twelfth edition is recorded of 1799" (474). If it was so much accepted in Society (with a large "S") generally, if "the Right Hon. Lord Ravenshaw" and his family could have undertaken it at Ecclesford, that peer's Cornish seat and in a company which comprised " a large party assembled for gaiety", not simply the closest blood-relations of his house, it adds to our giddying sense, characteristic of the whole episode, of participating in a moral debate of which some of the terms of reference are occluded, when we are told "Lord Ravenshaw ... is one of the most correct men in England" (13,122). It is as though one were to step into another country where, for example, the marriage of first cousins were deemed a disgraceful perversion, like incest - but only by one-sixth of the population (Edmund and,much more tenaciously, Fanny are here effectually opposed against the three other Bertram siblings, Mrs Norris, Mrs Grant, the Crawfords and Mr. Yates), and where these objectors do not sufficiently amplify and substantiate their case. Faced by Fanny's paroxysms of wretchedness at being pushed into undertaking the small part of the Cottager's wife makes one recall T.S. Eliot's remark about **Hamlet** : "Hamlet (the man) is dominated by an emotion which is inexpressible, because it is in excess of the facts as they appear."13

Of course, just as Queen Gertrude's suspected adultery is very horrible (our problem is that "the guilt of a mother" 14 does not seem to account for all of Hamlet's motivating psychology) so there is here a strong case against this enterprise. Edmund states it early:

> "In a general light, private theatricals are open to some objections, but as we are circumstanced, I must think it would be highly injudicious, and more than injudicious, to attempt any thing of the kind. It would show great want of feeling in my father's account, absent as he is, and in some degree of constant danger; and it would be imprudent, I think, with regard to Maria, whose situation is a very delicate one, considering everything, extremely delicate." (13,125) .

The modern reader must remember the danger of a sea-voyage in those days and across an ocean divided by maritime powers, Britain and France, then at war. It will take the head of the family several weeks to make the crossing and if he meet with mishap, the news of it can arrive no fester. So there is the bad taste of holding high festivity at his home at such a time. (However would they live down the scandal, let alone digest their self-reproach, at having been acting a play, without his known permission, the very day their father was later reported to have died at sea ?!)

Then the choice of play is provocative, and Austen's artfulness in selecting this particular drame - which is, with all her usual marvellous naturalness, the unforced easy likelihood of her supremely substantial realism, one of the recent successes of the London stage (1798-9) has a motive which ramifies. Kotzebue, its author (1761-1819) was a Romantic, one of the early Socialists, and a freethinker. He believed in free love and was only a Deist in religion, if not an atheist outright. Trivial as the play artistically is, therefore, it is unthinkingly treacherous on the part of

these young people to the codes by which they are supposed to live, to have chosen it, and that can so be easily, thoughtlessly disloyal, as Fanny is not, is also of course part of the author's meaning. How much **Mansfield Park is,** at the deepest level, in agreement with the politico-economic basis of the Bertrams' way of life, is a nice question; but Kotzebue's **ethics,** in this play, and still more in his life and other writings, were directly opposed to those Austen - **at** the deepest level - is concerned to justify with this book. One thinks forward to the exchange on Romantic poetry between Charlotte Heywood and Sir Edward Denham in **Sanditon**:

> I have read several of Burn's [sic] Poems with great delight, said Charlotte as soon as she had time to speak, but I am not poetic enough to separate a Man's Poetry entirely from his Character; - & poor Burns's known Irregularities, greatly interrupt my enjoyment of his Lines. - I have difficulty in depending on the **Truth** of his Feelings as a Lover. I have not faith in the **sincerity** of the affections of a Man of his Description. He felt & he wrote & he forgot. 15

The fault in the choice of text is much compounded by the way the four major **dramatis personae** use the play as a means of being dishonest with each other in the real world, of developing covert feelings and **not** making these explicit; of entering upon relationships without being properly committed to and responsible for them. It is (again) of the excellence of Austen's art, her so presenting the episode that no reader misses anything greatly material by not being acquainted with **Lovers's Vows.** Yet many among her contemporaries did know it. That it had been a best-seller in polite society as a printed text and a great success among fashionable theatre audiences not so very long before, made **her** book all the more necessary in refutation.

And many readers would quickly see how badly compromised are Maria and Edmund Bertram, Mary and Henry Crawford by their respective roles of Agatha, Anhalt, Amelia and Frederick.

Fanny has justified misgivings about this. The play, in prolonged rehearsal, carries forward these principals considerably farther in the process of self-deceit and deception of each other. "Frederick"-Crawford meeting "Agatha" Maria, does a iot of warm embracing with her in their extended first scene (hence its being undertaken "so needlessly often" between them, as Fanny perceives:) (18,165). He speaks to her as her natural child; and there is a fine sad irony in the fact that Maria, indulging herself in the role of "Agatha", will like her fictitious counterpart in the end also be a "ruined woman". She addresses him as his poverty-stricken mother. But lines like "I cannot speak, dear son! **[Rising and embracing him.]** My dear Frederick! The joy is too great - "(483), or Frederick's "Ill, and I was not with you ? I will, now, never leave you more. Look, mother, how tall and strong I have grown. These arms can now afford you support. " (484) or accompanying actions as "**[Frederick with his eyes cast down, takes her hand, and puts it to his heart.]**" (487) are being used by this woman who is engaged to marry another man and this man who is only trifling with her affection, for purposes of self-indulgence quite other than the merely Thespian.

In this more advanced degree, then, and under a correspondingly "better" cover, the **Lovers' Vows** rehearsals, like the day-trip to Sotherton earlier (chs.8-10), take Maria's feelings so much the further forward towards a mad passion, while neither compelling an honest proposal from Crawford nor self - knowledge in his acting partner; who "in all the important preparations of the mind" is shortly to be "complete; being prepared for matrimony by an hatred of home, restraint, and tranquillity; by the misery of disappointed affection, and contempt of

the man she was to marry. The rest might wait." (21,202)

The same criticism is to be made of Mary's and Edmund's participation in the treatricals. As Amelia and Anhalt they too can play at being in love, in this case can both fall more deeply for each other, without being obliged rigorously to examine where these feelings are leading them - what real possibility they have of making a happy marriage. The matter is more complex here, since neither is simply trifling with the other, and the role of Amelia in the play, that of a woman who is forward in expressing her feelings and herself proposes to the man she loves, might seem one proper to Austen's sympathy. Mrs Leavis well remarks that she behaves:

> "in defiance of the Richardsonian canon that a lady cannot with propriety entertain a sentiment for a man until he has made her an offer ... the distress of Edmund at finding that the lady he wishes to marry is willing to make Amelia's shameless avowals is well grounded in conventional notions of decorum. We should be resigned to this in Fanny Burney, but Miss Austen is elsewhere noticeably in advance of the conventions - not of course "advanced" like a novelist-philosophe such as Bege but compared with novelists within the pale - and likes to represent such features of the age as cant or unwholesome affectation, as she had in **Pride and Prejudice**."16

Mrs. Inchbald acts as a spokesman for the age's sentiments, when in the preface to her translation she remarks "Amelia's love, by Kotzebue, is indelicately blunt, and yet void of mirth or sadness:" and she congratulates herself upon having, as adapter, made this

> "a very particular object of my solicitude and alteration: the same situations which the author gave her remain,

> but almost all the dialogue of the character I have changed; the forward and unequivocal manner in which she announces her affection to her lover in the original would have been revolting to an English audience: the passion of love, represented on the stage, is certain to be insipid or disgusting unless it creates smiles or tears ... [Do we feel the heroines of, for instance, Shakespeare's late plays to be certainly "insipid or disgusting"?] I have endeavoured to attach the attention and sympathy of the audience by whimsical insinuations, rather than coarse abruptness..." (477-8)

And we may well start at seeing so much of Mary Crawrord's dialogue in **Mansfield Park** inadvertently so well described. Julia Bertram speaks merely out of angry jealousy when she denounces the role - "I am not to be Agatha [which would mean playing opposite the Henry Crawford who has kindled amorous fires in her also], "and I am sure I will do nothing else..." But there is an element of truth in her strictures upon Amelia immediately following:

> "It is of all parts in the world the most digusting to me, I quite detest her. An odious, little, pert, unnatural, impudent girl." (14,136)

Though it may be one of the brightnesses of Mary Crawford that she is willing to take the initiative in this courtship, she does not after all want to be married to a clergyman - upon which career Edmund is resolved. With the **tendresses** her theatre-role permits, Mary prosecutes all the more her basic attempt merely to seduce Edmund from his chosen profession and into a life entirely on her terms; which is dishonest. So that in this case too all the divisions of ethos and ambition between the partners are not aired and resolved by these rehearsals, but rather inspissated under the development of infatuation which the theatricals promote.

In all four main actors, in short, this recreation does not provoke "lovers" vows".

The worst eventually befalls: Maria Bertram is carried off on the wave of one more dalliance, sudden and temporary, with Henry Crawford, into complete and permanent wretchedness; Mary and Edmund achieve only each other's hurt. But all this lies in the unknown future as yet, and therefore by no means fully accounts for the almost morbid detestation with which Fanny reacts to the project as it unfolds at the time. She is "most frightened" (15,145) when the others ask her to participate as Cottager's wife. "To be called into notice in such a manner" is bad enough, yet this has been "but the prelude to something so infinitely worse, to be told that she must do what was so impossible as to act" (16,150) - and this reaction is not specifically repesented simply as a function of her shyness, her social embarrassment. After Edmund has capitulated and, taking on the part of Anhalt, has left her in lone opposition, in "a scheme which ... she must condemn altogether" (17, 160) "it was all misery now." (16,157)

She has now a motive for feeling like this, at this later time, which is not absolutely virtuous - her jealousy of Mary Crawford's opportunities for developing Edmund's attachment in their acting together. But Fanny's - and Edmund's - general objections were so ardent even before he joined the cast, we may indeed feel there was an element of "scrupulousness run mad" in them, as the Bertram sisters expressed it, remonstrating with their brother then. - "There could be no harm in what had been done in so many respectable families, and by so many women of the first consideration..."(13,128)

In fact the concessionary pledges given by Maria, Julia and Tom are not honoured. The project does not ultimately "comprehend only

brothers and sisters, and intimate friends" (adapted, ibid), the alterations and expense to which they put their father's house are not conducted "on the simplest plan" or within a budget of "twenty pounds" (127), and Edmund's earlier remonstrances - "I am convinced that my father would totally disapprove it ... His sense of decorum is strict." (126 - 7) - are proved as totally correct as all inwardly anticipate. Sir Thomas is angered and hurt in his discovery of the venture when he comes home.

Yet what is the value of this disapproval and strict decorum, intrinsically?

> "Sir Thomas's return made a striking change in the ways of the family, independent of Lovers' Vows. Under his government, Mansfield was an altered place. Some members of their society sent away and the spirits of many others saddened, it was all sameness and gloom, compared with the past; a sombre family-party rarely enlivened. There was little intercourse with the Parsonage. Sir Thomas drawing back from intimacies in general, was particularly disinclined, at this time, for any engagements but in one quarter. The Rushworths were the only addition to his own domestic circle which he could solicit." (21,196)

This is pretty damning in itself, but that such sobriety does not feed back into social health we are immediately made to observe in Austen's account of the conference now following between Maria Bertram and her father on the subject of her forthcoming marriage to Rushworth. Faced with the imbecility of his prospective son-in-law and but "little observation being necessary to tell him that indifference was the most favourable state her feelings could be in" towards this man (adapted

21,200), the father does remonstrate with his daughter; yet he is quickly satisfied by her reassurances; "too glad to be satisfied perhaps to urge the matter quite so far as his judgment might have dictated to others." (201) The return of Sir Thomas, in sum, does not make for "a striking change" in the calibre of Mansfield Park's moral life. It is now once again much more dull and gloomy than under the influence of the Crawfords' lively spirits and the play-acting, but ethical compensations do not come forward. The restored baronet presides over one of the saddest pieces of self-delusion in which a parent and child could indulge. The girl persists in, and her father endorses her engagement, on each side from motives very unworthy. Generally Sir Thomas knows himself, by the end of the Rushworth marriage, to be convicted of having been an almost complete failure as a parent.-

> "the anguish arising from the conviction of his own errors in the education of his daughters, was never to be entirely done away.
>
> Too late he became aware how unfavourable to the character of any young people, must be the totally opposite treatment which Maria and Julia had been always experiencing at home, where the excessive indulgence and flattery of their aunt had been continually contrasted with his own severity. He saw how ill he had judged, in expecting to counteract what was wrong in Mrs Norris, by its reverse in himself, clearly saw that he had but increased the evil, by teaching them to repress their spirits in his presence, as to make their real disposition unknown to him, and sending them for all their indulgences to a person who had been abie to attach them only by the blindness of her affection,

> and the excess of her praise." (48,463)

What greater instance of this "stop-go" policy do we find in the whole story but the project of the theatricals during Sir Thomas's and his inability to tolerate them on his return? The suppression of the scheme itself is not the consequence of communicated sentiments between father and children, the reasoned dialectic of people who open their hearts to each other, but another cold fiat in a relationship where so much is outward show.

Our feelings towards the theatre-enterprise should be mixed, therefore; and Fanny's rejection of it, by the same token, also needs a complex response. Indeed that is of the essence of the book, it seems to me. The whole work is a series of complex intuitions - albeit not mediating a paralysed or merely disabling sense of life's alternatives - and we do not pick up more than a small fraction of what it has to offer unless we are willing so to ponder its debate. In Fanny's reaction to the stage-venture at the Park we see yet another function of her dividedness - as partly the healthiest (in the sense of being morally the most responsible) character in this community, partly a personality considerably crippled. But Austen's point is - and it is at least semi-tragic: these are two aspects of one unitary competence; you only find responsibility growing beside or out of disablement.

Before I consider Fanny's role more largely, let me stipulate that, when using the term "Austen" I am doing so in a specialized (though in literary appreciation I think it is the only significant) sense. In "Anonymity : An Enquiry" E.M. Forster has this to say :

> "... modern critics go too far in their insistence on personality. They go too far because they do not reflect what person-

ality is. Just as words have two functions - information and creation - so each human mind has two personalities, one on the surface, one deeper down. The upper personality has a name. It is called S.T. Coleridge, or William Shakespeare, or Mrs. Humphry Ward. It is conscious and alert, it does things like dining out, answering letters, etc., and it differs vividly and amusingly from other personalities. The lower personality is a very queer affair. In many ways it is a perfect fool, but without it there is no literature, because unless a man dips a bucket down into it occasionally he cannot produce first-class work. There is something general about it. Although it is inside S.T. Coleridge, it cannot be labelled with his name. It has something in common with all other deeper personalities... As it came from the depths, so it soars to the heights, out of local questionings; as it is general to all men, so the works it inspires have something general about them, namely beauty. The poet wrote the poem, no doubt, but he forgot himself while he wrote it, and we forget him while we read. What is wonderful about great literature is that it transforms the man who reads it towards the condition of the man who wrote, and brings to birth in us also the creative impulse."17

This, which harmonizes well with Coleridge's own "conclusions on the nature of poetry" (c.f. especially "The poet, described in ideal perfection, brings the whole soul of man into activity"),18 certainly answers to my experience of imaginative writing. So for my own credo about the psychology of creative literature I can do little more than paraphrase these positions. - Our minds are brought to new wakefulness, a hitherto unanticipated amplitude of awareness and discrimination by the **Dichtung, poesis** to which we open ourselves - call

it what you will, since one wants a term for imaginative verse and prose. And it is only logical to assume that the author's powers were similarly stimulated during the act of creation. The physical basis for thinking in this way of the nature and value of the artistic imagination is not hard to guess. Science informs us that an undamaged brain has not only millions of cells it does not utilise, but retains every experience, encoded in "memory-banks", by which the individual is assailed from not long after conception until death - even death at greatly advanced age. We are beings who in ordinary diurnal living are using only a tiny fraction of the capacity for perception and intellection that we possess. The excitement we feel reading **Oedipus at Colonus** (and Sophocles seems to have written that in his ninety-first year) is two-fold. It derives from the sense, is the process of our intellectual faculties being quickened and liberated by the grafting-on of a new limb or organ of perception to the pre-existing range of our sensibility; in this case the new range of the humanly feelable and thinkable into which we are enfranchised is the mental/verbal idiom idiosyncratic to the Sophocles-of-this-play. And it also arises out of the author's resolving - even if such resolutios is "only" the relief afforded by his handling into complete articulateness - the large human problems with which he here engages.

The **afflatus** of inspiration, to which our elation as recipients of the created work is analogous and complementary, brings the whole soul of the writer into activity. Austen the novelist is drawing on vastly greater powers - for vision and discrimination - than the Austen anybody can ever have met; even her so close and beloved confidante her sister Cassandra, even the alter ego who could talk to herself. The full resources of our brains and minds are not mapped out before us in our waking, or our sleeping,hours. "The deep well of unconscious cerebration" as Henry James so finely called it is a huge subterraneous

sea; and into this ocean, of which the riches are far greater than can be seen through its perspicuous upper waters, the artist sends down his "bucket" much deeper than those using words for other purposes.

"The fine delight that fathers thought; the strong
Spur, live and lancing like the blowpipe flame,
Breathes once and, quenched faster than it came,
Leaves yet the mind a mother of immortal song."

Once fired by the initial impulse, "sired"by "the one rapture of an inspiration" as Hopkins thus puts it,19 the artist's "muse" or creative talents jump to a region of power where language is capable of being "esemplastically" deployed (so that Shakespeare can think of light "thickening" as, in **Macbeth,** "the crow/Makes wings to th' rooky wood"20); and where, all the intellectual faculties being so extended and galvanized, **pari passu** the moral sense of the writer, operating from a far more comprehensive view of human experience than he might reach out to at his dinner-table, becomes the much more subtle and refined.

"Peace" says Becket in **Murder in the Cathedal,**" And let them be, in their exaltation./ They speak better than they know..."21 Just as his handling of language is distinguished by an originality he can summon but not himself achieve solely by calculation or taking thought, so this must always be true of the poet/novelist/dramatist's human or social discriminations, when he is creatively employed, (and where his genius is at all impressive, new, richly talented).

In putting forward the argument that follows, then, I am not supposing that Austen herself would have responded, were she to have read my paper, with an "Ah, yes! That is just what I had in mind when I penned this passage!" or "Yes, I fully meant to say that", or "I was quite

conscious of meaning to imply that" as she considered one aspect and then another of my reading of her book. Rather, that neither she nor I nor anyone can do other than look at the finished product, her achieved work, and ask "What, at its most finely discriminative, is this novel saying? When we have fully subjected ourselves to the whole, and carefully pondered all the parts, what intimations - about human life - do we derive?" And the seemingly super-subtle case will be legitimate so long as it is **not** super-subtle, so long as it can be shown substantiated by the novel's every phrase. (I have argued in another place22 that attempts to impose a meaning on Dickens's **Our Mutual Friend** are just that. On its own internal evidence that novel is not a unity.)

Why is Fanny at Mansfield Park at all? We may share the slight surprise of Mrs Price, early in the tale, at the Portsmouth household's domestic economy being relieved by the choice of a girl and not a boy-child to go and live with her highly-placed and well-to-do Northamptonshire relations(1,11). After all, a boy can rise, as does her brother William, by native talent, some little influence and hard work, to a very respectable and well-provided way of life on, as it were, his own terms (in such a manner one of Austen's own brothers became an admiral); but as Sir Thomas conscientiously reflects - "a girl so brought up must be adequately provided for, or there would be cruelty, instead of kindness in taking her from her family." (1,6) Unless in the coming years, with no name or fortune comparable to the Bertram sisters, this woman is lucky enough to make a good marriage during the brief period of female eligibility **de rigueur** in that epoch (look how in **Persuasion** Anne Elliott at 27 and her sister two years older are practically "on the shelf", will they, nill they) her uncle will have to lay aside a small fortune to provide her with such an annuity as will afford her a life less harrowing than that of the poor or a governess. One can think forward to Austen's next novel, **Emma**, and the predicament of Miss Bates.

whose "youth had passed without distinction, and her middle of life was devoted to the care of a failing mother, and the endeavour to make a small income go as far as possible."(3,21)23 - or worse still, to that of Jane Fairfax. -

> " When I am quite determined as to the time, I am not at all afraid of being long unemployed. There are places in town, offices, where inquiry would soon produce something - Offices for the sale - not quite of human flesh - but of human intellect."
>
> "Oh! my dear, human flesh! You quite shock me; if you mean a fling at the slave-trade, I assure you Mr. Suckling was always rather a friend to the abolition."
>
> "I did not mean, I was not thinking of the slave-trade," repied Jane; "governess-trade, I assure you, was all that I had in view; widely different certainly as to the guilt of those who carry it on; but as to the greater misery of the victims, I do not know where it lies."'(35,300-01)

By being brought to Mansfield Park Fanny has been rescued not only from the real squalor and meanness of her childhood home in Portsmouth but also from a probably quite grim future, by her benefactors' generosity. Her debt to Sir Thomas Bertram and his household, therefore, is immense. Yet this household is, like any other human group (and here we have the universality and centrality of Austen's subject-matter) a society of "the bossers and the bossed".24 Mrs Norris, another poor relation and dependant, who has "never been able to attach even those she loved best" (48,466) has brought Fanny in, we can see, to be one notch lower than herself in the pecking-order of this family group. The whole novel is organised around showing us the radical

viciousness and despoliation inherent in a social organism where status and rank exist to make some feel dominant and others dependent; namely, one of the great wounds at the heart of the only world we know. So the aunt's perfect victim in turn is a girl who is neither a fully-fledged member of the family nor of the servants' hall. Fanny is crippled by her lack of status in this ménage. When afflicted with insult or injury from any other inhabitant of the Park or visitor to it, she has no right to react, as with open hostility and criticism, that is recognised either by society or by her own moral sense. She is just too lucky to be here in the first place. When Mrs Norris attacks her frontally with

> " I am not going to urge her ... but I shall think her a very obstinate, ungrateful girl, if she does not do what her aunt and cousins wish her - very ungrateful indeed, considering who and what she is." (5,147).

she is, though cruelly and wrongly, touching upon a bond of obligation which cannot be simply waived away as totally irrelevant.

So Fanny then, and always, is thrown back in upon herself, and retreats once more to her cold East Room to think out the episode, to digest it, assimilate and in that, the only method open to her, mitigate its hurt. In so doing, over the years, she has become morally the conscientious member of the family and aware, as others are not, of many essential features of their relations to their world; because all her intellectual power and emotional energy have been directed into thinking out conduct - the others', her own - on every side. But this same process which makes her the only really responsible person in her social group is also an invidious one. It can, and must, too easily fall over into a mode of revenge, vindication which is also vindictiveness, of defining her own

identity always at the expense of others.

This is the inescapable dilemma not only for Fanny Price but for Everyman. We regularly see resurfacing Austen's theme of how suffering, gainsaying, deprivation develops the personality in morally creative ways. This is true of Julia Bertram's as against her sister Maria's fate. Denied her chance of acting with Crawford in theatricals and of developing a flirtation with him at her sister's expense, her elopement (with Yates) and future can be patched up for her far better than for Mrs Rushworth.

> "There was comfort also in Tim, who gradually regained his health, without regaining the thoughtlessness and selfishness of his previous habits. He was the better for his illness. He had suffered, and he had learnt to think, two advantages that he had never known before..." (48,462)

In the significantly named "wilderness" at Sotherton, as one deluded couple after another circumambulate past the stationary and central Fanny, she alone observes, weighs, estimates, scruples over their behaviour - partly out of her impotence to do anything else, to have any social role of her own which permits delinquency. This gives her an ethical gravity which the others badly lack, yet her physical debility derives from it too, I think; and all this is represented as early as the horse-riding episode. That whole scene (ch 7) compresses Fanny's loneliness, the importance to one powerless as herself, in all her human relations, of the conduct of others who disregard her, the honing of her moral discriminations which such fascination with their deeds achieves and which itself is also morbid; the censorship which is accurate and just, yet adds to the habit of spiritual ungenerousness. Jealousy - even her simple sexual jealousy of Mary Crawford, the better horsewoman (significantly), the cynosure of Edmund's attentions - becomes inseparably one thing

with just censure:

> "The houses, though scarcely half a mile apart, were not within sight of each other; but by walking fifty yards from the hall door, she could look down the park, and command a view of the parsonage and all its demesnes... A happy party it appeared to her - all interested in one object - cheerful beyond a doubt, for the sound of merriment ascended even to her. It was a sound which did not make **her** cheerful; she wondered that Edmund should forget her, and felt a pang...After a few minutes, they stopt entirely, Edmund was close to [Mary Crawford], he was speaking to her, he was evidently directing her management of the bridle, he had hold of her hand...She could not but think indeed that Mr. Crawford might as well have saved him the trouble; that it would have been particularly proper and becoming in a brother to have done it himself; but Mr. Crawford, with all his boasted good nature, and all his coachmanship, probably knew nothing of the matter, and had no active kindness in comparison of Edmund. She began to think it rather hard upon the mare to have such double duty; if she were forgotten the poor mare should be remembered." (7,67-8)

All her objections are just; but her solicitude for "the poor mare" (which it is anyway a high privilege and unique kindness in Edmund, among his family, to let her ride daily for exercise) is inextricably interwoven with an enforced meanness of spirit, She has to be out of doors watching them in case they are waiting for her to appear for her "turn" on the horse; but this very looking-on is demoralizing and destructive.

Being the morally most aware person here and throughout the story, yet the most "politically", socially, impotent, is a strain, makes an ever-developed tension to which I attribute her shown debility of body, and of heart. She does not cry easily and does not know how to (because she cannot wholly, legitimately) answer back. When we compare the very natural **spontaneous** little girl who first arrived at the Park (and who did cry, quite normally, that first day from bewilderment, fear, fatigue), we see someone behaving with an immediacy and innocence which this same Fanny never has again.

Immediacy-and-innocence of this kind is one thing. Spontaneity as such - **the** arch, essential virtue, principal **raison d'être** of the Romantic philosophers and of their whole age in the "Western" world, is another. Spontaneity as the leading value in living this novel thoroughly exposes and damns, but it acknowledges as much as any book anywhere the need for immediacy and innocence as the central core and bloom of vitality, wit, social grace, livingness - and **in** the contrasted characterisations of Fanny Price and Mary Crawford, for neither of them has it. Marvin Mudrick in his valuable, notorious book25 has railed upon Fanny and against her author for the treatment of Mary. He quotes from Austen's own letters again and again, aptly pointing out - "This is Mary as we know her in the novel, unmasking cant in others, free of it herself, driven to no false system: very like Elizabeth Bennet;...And we come finally to be convinced that both Mary and Jane make such continual demands upon their wit in order to protect a certain depth of privacy, to avoid a full commitment."26 He lambasts Fanny's cattiness towards her rival and Jane Austen's falsifying - as it seems to him - Mary Crawford's role at times in order to blacken it. -

> 'Tom has become ill, and Fanny concludes at once that Mary will wish him dead so that Edmund may succeed to

the baronetcy:

'...Miss Crawford gave her the idea of being the child of good luck, and to her selfishness and vanity it would be good luck to have Edmund the only son.' (45,430)

"...I put it to your conscience, whether 'Sir Edmund' would not do more good with all the Bertram property, than any other possible 'Sir'..." (434)

We are asked to believe, therefore, that a worldly, intelligent girl - even if excited by the not uncommon selfishness that comes with the anticipation of a windfall - would confide her feelings unreservedly to a stiff moral object, an obsessed partisan of the Bertram code, like Fanny.'27

He puts the case against this characterisation as well as it can be stated - vividly and with an element of truth. - Austen's book is great precisely because she is not writing about lay-figures, devils swathed in green lights to be comfortably hissed and easily rejected out of hand, but dramatising complex alternatives of which her own nature lives all the different attractions and justifications. Yet his argument is a perfect statement of the dominant modern view of human psychology which **Mansfield Park** exists to confute.

The Crawfords are all spontaneity; and it makes them infinitely more pleasing, some of the time, than Fanny, as well as embodying in them powers and energies which life is sadly grey without. We see Edmund's, let alone Fanny's, stolidness if mind by comparison, in the conversation on the Church between him and Mary Crawford during their Sotherton day-visit. All his sentiments show for perhaps worthy but certainly ponderous beside Mary's witty, apt and true comment on their morning at Mr Rushworth's home:

> 'That [Fanny] should be tired now, however, gives me no surprise; for there is nothing in the course of one's duties so fatiguing as what we have been doing this morning - seeing a great house, dawdling from one room to another - straining one's eyes and one's attention - hearing what one does not understand - admiring what one does not care for. - It is generally allowed to be the greatest bore in the word, and Miss Price has found it so, though she did not know it' (9,95-6)

Yet the Crawfords have their spontaneity and vitality as a consequence of not having been suppressed or gainsaid in their lives; they have been so much 'the children of fortune' they are spontaneous in the extreme, erratic. Mary's conversation is to be pondered not in particular parts but as a whole across the entire book. There is the marvellous kindness of her treatment of Fanny when it is proposed she should play Cottager's wife and, not wanting to, is attacked by Aunt Norris (ch.15) Here Mary shows herself for more sensitive and actively, almost courageously, helpful than any other member of the Bertram circle. Yet we are given the extravagant vulgarity of her 'Rears and Vices' pun on the admirals she has known at her uncle's (6,60). There is the clever, and considerate, wittiness of the remark just quoted about people being fatigued by sightseeing; yet the easy cheapness of her '"Every generation has its improvements," to Edmund when they are told in the chapel at Sotherton, '"Prayers were always read in it by the domestic chaplain, within the memory of many. But the late Mr Rushworth left it off." (9,86)

By letting themselves be carried about by each gust of their psychic energy, by speaking to every impulse; in not having had their thinking and being disciplined into reflection and restraint by denials and thwartings, the Crawfords have become people each without, really, a

personality at all. They are chameleons, non-existent in the sense of having an identifiable centre to which and from which loyalties can be made - which are the very staple of relationship as of identity.

Fanny interests Henry Crawford at first as the one and only woman he is unable flirtatiously to attach in this Mansfield scene. But drawn in, he becomes sincerely interested in her, and as deeply as in his nature it is possible for him to be. By comparison with his rakish handling of the trip to Sotherton and his caddish performances with the Miss Bertrams, his treatment of the Prices at Portsmouth is a marvel of sustained fine tact (chs 41, and 42). Fanny notices a 'wonderful improvement in Mr Crawford' (end of ch 42) and actually moves well within the orbit of accepting his marriage-proposal:

> 'Poor Susan was very little better fitted for home than her elder sister; and as Fanny grew thoroughly to understand this, she began to feel that when her own release from Portsmouth came, her happiness would have a material drawback in leaving Susan behind. That a girl so capable of being made, everything good, should be left in such hands, distressed her more and more. Were **she** likely to have a home to invite her to, what a blessing it would be ! - And had it been possible for her to return Mr Crawford's regard, the probability of his being very far from objecting to such a measure, would have been the greatest increase of all her own comforts. She thought he was really good-tempered,and could fancy his entering into a plan of that sort, most pleasantly.' (43,419)

Her suitor is so much (genuinely) influenced by her, as well as

anxious to please, that his new schemes of improvement for his tenants and at Thornton Lacey are earnest of a possible fine future for them both. Yet what we are is the consequence of what we have been drilled into being, or trained ourselves to be, over many years. Fanny's long career of hurts, insults and denials at Mansfield Park has forced her upon self-definition, the creation and maintenance of a consistent coherent identity. The weakness in Plato's original argument (in the **Republic**) against dramatic art is that it has too simple-minded a notion of deception. When we adopt any social role or persona off the stage, (this I think is Austen's theme) that then constitutes or assails our selfhood radically, according as it persisted in or varied. But a man dressing up as Frederick in the Kotzebue play, or reading the part of Henry VIII in Shakespeare's drama at a family entertainment, is deluding neither himself nor other people into really believing he is either of those gentlemen. Though a fine skill in such representations **may** betoken a self which is dangerously fluid or unfixed, great acting is not to be hoped for only from men and women with weak personalities.

Nevertheless it is significant that

> 'in Mr Crawford's reading there was a variety of excellence beyond what [Fanny] had ever met with. The King, the Queen, Buckingham, Wolsey, Cromwell, all were given in turn...and whether it were dignity or pride, or tenderness or remorse, or whatever were to be expressed, he could do it with equal beauty.' (34,337)

(and there is also dramatic irony in this choice of play. What was Henry VIII but, supremely, a man incapable of a sustained relationship with a woman?)

Carried off by the next strong impulse, Crawford's habits, his

creation of this new consistent self which has been oriented towards Fanny, are still too weak, and the possible marriage between them tragically lapses. I say tragically, because we cannot but feel how much better it would be if to respective espousals the partners from Mansfield Park brought their steadying influence, their sobriety, and the Crawford siblings brought vitality and the free-flowing of (albeit now well-regulated) bright spirits. The best possible marriages - those of Edmund and Mary, Henry and Fanny - are frustrated, and in their place we see the kind of wedding people make in the real world often enough where matters, following the delinquency and vagrancy of so many human minds, have to be patched up. It is appropriate therefore that the ending should read as relatively scamped as it does. Austen cannot, though she approves the match as well enough - make of Edmund's and Fanny's union a grand passion or matrix of the kind of liveliness that **should** be there. All along she has dramatised her story through Fanny's consciousness, partly because that is the kind of artistic process congenial to her (showing the world through the eyes of an unattached young woman). but more radically because everything in her book is deployed to register the inescapability of being a limited human outlook, an if partly strong, also partly marred individual, If we are competent, responsible and good, this will be because in certain respects we have been thwarted - and mutilated, permanently. Her book is again and again critical, (sometimes very sardonically), of Fanny's **manques.** When Mrs Norris finally leaves Mansfield we are slyly told 'Not even Fanny had tears for aunt Norris - not even when she was gone for ever.'(48,466) The book is positively spattered with such criticisms, but its method, its procédé enforces the recognition at a much deeper level that grand options like being marvellous and perfect, standing outside all the major possible human inadequacies, scarcely exist. We can be discriminative and responsible, if we will, as Fanny is; but that too will have been bought at a 'Price' (isn't that

why she is so named? I'm not sure the idea is a fanciful one.)

At the end, Fanny is once again a dependent at Mansfield, this time in Mrs Norris's position (though she occupies it doubtless very differently, we have seen that this is not healthy), Edmund has accepted two livings after having spoken earlier against plurality. Generally order, decency, responsibility, have been won, and that is all-important. But at a high cost.

Notes

1 — R W.Chapman (ed),**The Works of Jane Austen,** vol. VI - Minor Works - Oxford 1975, section V,p. 432.

2 — In **The Quarterly Review,** vol. 228 (July 1917), conveniently accessible in **Sense and Sensibility, Pride and Prejudice and Mansfield Park - A Selection of Critical Essays** (in the Macmillan "Casebook" series), ed. B.C. Southam, London 1976,p.207. I refer whenever possible to this volume and to the equally handy and worthy **Jane Austen - A Collection of Critical Essays** (in the Prentice-Hall "Twentieth Century Views" series), ed. **L. Watt,** New Jersey 1963, which also collates at low price and in good format some of the most significant critical comment on Austen in little space.

3 — Southam (ed.), op.cit.,p.214

4 — Watt (ed.), op cit., pp.37-8

5 — Southam (ed.), op. cit., p.246

6 — Watt (ed.), op.cit., p.31

7 — All quotations from the novel itself are from the standard edition by R.W. Chapman (very slightly modified over more recent years by M. Lascelles), vol. III of his Oxford Illustrated Jane Austen, 1978 impression. I give the chapter number first, so that other editions may be consulted, and then the page number in the Chapman text. Succeeding editions after this of Chapman's (originally 1923) from a scholarly-critical point of view have been works of the purest supererogation. Consult

the scanty leaves of Textual Notes recording but a handful of variants, all told, from Chapman, in all five volumes of the recent "Oxford English Novels" editions of Austen (1969-71) solemnly worked up by conscientious individuals (one recalls Dr Johnson's words on Theobald - ' a man of heavy diligence') and one has cause to feel to feel that the republic of letters, with financial resources so much slenderer than the spheres of munitions or commerce, the taxation departments of governments or spendthrift millionaires in casinos, can also be guilty of serious extravagance, whereof the means could have been far better deployed.

There are fine introductions to the Austen volumes in this otherwise very valuable series, but what need the editing from scratch and setting-forth anew ot these texts on expensive paper at a costly press, when they already exist equally authoritatively in the Chapman hardbacks and the Penguin soft covers? The commentaries could have been housed in other cheap reprints or in the learned journals.

Much better is the attitude of Mrs A.H. Ehrenpreis in the 'Note on the Text' of her expert edition of **Northanger Abbey** (for Penguin books, Harmondsworth, 1972): 'The only text for **Northanger Abbey** is the 1818 edition published after Jane Austen's death. I have followed this, adopting in seven places the emendations noted by R.W. Chapman, all of which seem to me sensible... It is is a (quite superfluous) tribute to Chapman's accuracy that I have found in his text only half a dozen errors - all are of punctuation and none of them signifcant. They are given here, since Chapman's text is (rightly) taken as gospel. It is doubtless too much to hope that my own text will be as clean...My indebte-

dness to the notes in Chapman's fine editions of the novels and the letters is manifest.' (op.cit., pp 25-6).

Why then have the Syndics of the Oxford University Press - one of the greatest bastions and best servants of literature - been putting forth into the world of late both their Chapman and their newer so adscititious "Oxford English Novels" editions of Austen? Have they no other employments for the many hands and scholarly brains associated with them? Let them only send a round robin through the citadels of learning - or rather, wherever imaginative literature is prized at its true worth; as a way of living, a mode of consciousness not less than all-important- and they will be overwhelmed with suggestions for 'wondrous necessary' projects. When (for instance) are we going to get a complete, up-to-date Langland or a satisfying **Jubilate Agno?**

8 — L. Trilling, **Sincerity and Authenticity,** London 1972,p.75

9 — In B. Ford (ed.), **The Pelican Guide to English Literature,** Harmondsworth, 1957

10 — Ibid. (1969 reprinting, revised), p.121

11 — Reproduced from its fifth edition, with Mrs Inchbald's Preface, etc., in the text of **Mansfield Park** used here. My quotations from this material give the page numbers in this volume.

12 — Southam (ed.), op.cit., p.245

13 — F. Kermode (ed.), **Selected Prose of T.S. Eliot,** London 1975, p.48

14 — Ibid., p.47

15 — Chapman (ed.), **Works of Jane Austen** vol. VI, pp. 397-8

16 — Southam (ed.), op. cit., p.237

17 — **Two Cheers for Democracy,** ed. O. Stallybrass, London 1972, pp. 82-3

18 — **Biographia Literaria,** ed. G. Watson, London 1977, p. 173

19 — All these foregoing quotations are, of course, from his sad, marvellous sonnet 'To R.B'.

20 — Act III, scene 2 (p. 89,Arden edition of 1962)

21 — Fourth edition (1938), p.21

22 — **Reality and Comic Confidence in Charles Dickens,** London 1979, ch.1, passim

23 — My quotations from **Emma,** (vol.IV of the Oxford Illustrated Austen), follow the same rule as those from **Mansfield Park.**

24 — E.M. Forster,op. cit., p. 67

25 — **Jane Austen: Irony as Defense and Discovery**, Princeton University Press 1952

26 — Ibid., pp. 169-70

27 — Ibid., p. 167